هجرة الألبان إلى دمشق في القرن العشرين وإسهامهم في الحياة الثقافية

هجرة الألبان إلى دمشق في القرن العشرين وإسهامهم في الحياة الثقافية

محمد م. الأرناؤوط

الطبعة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

alaanpublishers.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-508-2

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /5 /2484)

378.107 ال

الأرناؤوط، "محمد موفق" أحمد

هجرة الألبان إلى دمشق في القرن العشرين وإسمامهم في الحياة الثقافية/ محمد "موفق" الأرناؤوط. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(242) ص

ر. إ: 2484/ 5/ 2022

الواصفات: الهجرة الجماعية/ / الألبانيون/ / الأحوال السياسية/ / الحياة الثقافية/ / المسلمون/ / دمشق

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

محمد م. الأرناؤوط

هجرة الألبان إلى دمشق في القرن العشرين
وإسهامهم في الحياة الثقافية

دراسة

إلى حفيدتي تـاج

التي آنستني خلال العمل في هذا الكتاب

فهرس المحتويات

مقدمة 9

دراسات 13
من الإسلام العثماني إلى الإسلام السلفي بين النخبة الدينية الألبانية في دمشق 15
بقايا الثقافة العثمانية لدى الجيل الأول: «المولد» في اللغة الألبانية بالحروف العربية 23
سنوات الحافظ إسلام البرشتوي بدمشق (1920-1929) 36
من العثمانية إلى القومية العربية: معروف الأرناؤوط 45
الشيخ سليمان غاوجي وكتابه: «نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين» 56
بروز «السلفية الألبانية»: الشيخ ناصر الدين الألباني 67
إسهام ثلاثة ألبان من ثلاثة أجيال في الفن السوري الحديث والمعاصر 83
إسهام ثلاثة أجيال في الأدب السوري الحديث 106
دمشق مركزا لترجمة الأدب الألباني: عبد اللطيف الأرناؤوط 122

ذكريات 133
ذكريات الشيخ عبد الرحيم عابدين 134
ذكريات عبد الوهاب إسلام جلال الدين (1917- 1980) 146
ذكريات شوكت غاوجي (1937- 2004) 167

ألبوم صور 193

ملاحظات ببلوغرافية 217

كتب أخرى للمؤلف 219

مقدمة

يمثّل هذا الكتاب ثمرةَ انشغالٍ بحثيٍّ متواصل بالوجود الألباني بالعالم العربي خلال الحكم العثماني الذي دام حوالي 400 سنة في هذه المنطقة من العالم. وكان من حظي أنّي ولدتُ في دمشق في أسرة ألبانية هاجرت من كوسوفا عام 1930، في حارة تشكّلت حول «جامع الأرناؤوط» وراء «معهد اللاييك» في شارع بغداد، وتابعتُ دراستي العليا في اللغة الألبانية في قسم التاريخ بجامعة بريشتينا في سبعينيات القرن الماضي، وكانت رسالتي للماجستير عن «الجالية الألبانية في سورية ودورها في الحياة السورية»، بينما كانت أطروحتي للدكتوراة بعنوان: «الحضور الألباني في العالم العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين».

وخلال العقود السابقة شاركتُ بأوراق حول هذا الموضوع في ندوات ومؤتمرات علمية، كانت أُولاها ورقة: «الأقلية الألبانية في سورية ودورها في الحياة السورية»، المقدّمة إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الذي عُقد في عمّان خلال العام 1976. لكنَّ انتقالي إلى الأردن في العام 1989، وعملي أستاذا للتاريخ في جامعات أردنية عدة حتى سنة 2018، جعلني -ميدانيا ومنهجيا- أقرب إلى هذا المجال البحثي. فقد أُتيحت لي الفرصة لزيارات عديدة إلى سورية ولبنان ومصر، ذات الصلة الوثيقة بالوجود الألباني، واستفدتُّ من المصادر المحلية (خاصة سجلات المحاكم الشرعة والمؤلفات المخطوطة والمطبوعة لمؤرخي المنطقة وغيرها)؛ للتعرّف بشكل أفضل على بدايات هذا الوجود الألباني خلال الحكم العثماني، وما تركه من أثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مع بناء الولاة الألبان (محمد باشا دوكاجين، سنان باشا، وأحمد باشا، وغيرهم) لمنشآت عديدة (جوامع ومدارس وخانات وأسواق... إلخ) في دمشق وحماة وحلب وغيرها. ونشرتُ بعض دراساتي عن ذلك بالعربية في كتابي الأخير «شخصيات ألبانية في الشرق الأوسط خلال القرون الميلادية 16-20» الذي صدر بالألبانية في عام 2020.

لكن إلى جانب هذه الشخصيات كان لدينا وجود ألباني وازن في مصر وسورية، مع الهجرة الألبانية التي تمركزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، مع الفارق في الحالتين؛ فقد كانت الهجرة الألبانية إلى مصر في معظمها من جنوب ألبانيا ولأسباب اقتصادية، وذلك مع النهضة الاقتصادية التي عرفتها مصر بعد افتتاح قناة السويس. لذلك تشكّلت هناك جالية بغالبية مسيحية حافظت على هويتها القومية وأصبحت من أهم الجاليات الأجنبية في مصر (بعد اليونانية والإيطالية والبريطانية والفرنسية) حتى منتصف القرن العشرين، وهو ما خصّصتُ له كتابي: «فصول من تاريخ الألبان في مصر خلال القرون 15-20» الذي صدر بالألبانية عام 2016، ثم بالعربية بعنوان «الجالية الخفية» (القاهرة، 2018).

وبالمقارنة مع مصر كانت الهجرة الألبانية إلى دمشق في النصف الأول من القرن العشرين في معظمها من ولاية كوسوفا؛ أي كانت من المسلمين الذين نجوا بأنفسهم من حرب البلقان (1912-1913)، أو من الاضطهاد الممنهج من مملكة يوغوسلافيا ما بين الحربين العالميتين، والذين اختاروا دمشق أو «شام شريف» لما لها من مكانة دينية. وحتى الذين هاجروا من ألبانيا المستقلة بعد العام 1920، جاؤوا دمشق بدوافع دينية احتجاجا على الإصلاحات التي بدأها حاكم ألبانيا الجديد (أحمد زوغو)، وأرست قوانين جديدة مأخوذة من الدول الأوروبية بدلا من الحكم بأحكام الشريعة الذي استمر حتى نهاية الحكم العثماني.

ومع الأخذ بعين الاعتبار هذه الخلفية، لا يُعَدُّ من المستغرب أن تكون الجالية الألبانية في دمشق مختلفة عن تلك التي تشكّلت في القاهرة أو الإسكندرية. صحيح أن الجيل الأول من المهاجرين جاءت معه نخبة دينية تقليدية كانت تمثل ما هو موجود في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، إلا أن الجيل الثاني الذي نشأ في دمشق انقسم بين اتجاهين منصهرين مع مستجدات الحياة السورية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي: اتجاه سلفي (المعمّمون الجدد)، واتجاه مدني (الأفندية الجدد). وهكذا كان من الملاحظ مع تشكيل

أول جمعية ألبانية في دمشق عام 1949 أن الاتجاه العام يميل للاتجاه المحافظ/ السلفي الذي أراد من هذه الجمعية أن تكون مجرد «جمعية خيرية لمساعدة فقراء الأرناؤوط»، وليست جمعية تحافظ على الهوية الألبانية وتحرص على تعليم اللغة للجيل الجديد.

ومن هنا نجد أن الجالية الألبانية الصغيرة في دمشق، بالمقارنة مع تلك في القاهرة والإسكندرية، والتي حافظت على هويتها القومية، تبدو أكبر من حيث الشخصيات التي انبثقت منها وأصبحت معروفة، سواء في سورية أو في العالم العربي الإسلامي، مثل الشيوخ: ناصر الدين الألباني (1914–1999)، وعبد القادر الأرناؤوط (1928–2004)، وشعيب الأرناؤوط (1928–2016)، الذين بروزا في علم الحديث وعلم التحقيق ليوفروا بذلك رافعة للسلفية الجديدة في العالم العربي الإسلامي.

في هذا الكتاب الّذي ينحصر بألبان دمشق، كان الاعتماد على الذَّاكرة الجماعيَّة المتوارَثَة، وعلى الأوراق المخطوطة القليلة الّتي تركها الجيل الأوَّل. بينما لدينا من الجيل الثَّاني «مذكَّرات» مخطوطة تُنشَر لأوَّل مرَّة، وتضيء الظُّروفَ الصَّعبةَ الّتي واجهت المهاجرين الواصلين إلى دمشق، وظروفَ التَّعليم الأولى، والانخراطَ بعد ذلك في الحياة اليوميَّة. وبالإضافة إلى ذلك، لدينا مصدر آخر يكشف عن حياة الجيل الأوَّل من المهاجرين من الدَّاخل والخارج، ألّا وهو الصُّور الفوتوغرافيَّة الّتي تُنشَر كذلك لأوَّل مرَّة، والّتي ستكون نواة لألبوم لاحق يستعرض قدوم الألبان وحياتهم في دمشق من خلال الصُّور.

ومن الواضح هنا أن عنوان الكتاب بتركيزه على إسهام الألبان في الحياة الثقافية (التي لم تُستكمل) يشير إلى طبعة أخرى تتضمن أيضا إسهامهم في الحياة السياسية والعسكرية (دور الضباط الألبان في حرب 1948)، في انتظار استكمال الأوراق والمسودات التي تبعثرت هنا وهناك في السنوات الأخيرة بسبب الظروف المختلفة.

وأود أخيرا أن أشكر بشكل خاص الرسّام والناشط في توثيق الذاكرة الألبانية السورية؛ زهير جلال الدين، الذي أمدّني بنسخة من «المذكرات» التي دوّنها عمّه، وسمح لي بنشر

عدد من لوحاته التي تخصّ الذاكرة الجماعية للألبان في دمشق. كما أود أن أوجه الشكر إلى الأخ يحيى نعمان لإفادته الغنية عن حياة والده نعمان ثابت ما بين شرق الأردن ودمشق، وتَقْدِمَتِه لمجموعة من الصور النادرة التي تُنشر هنا لأول مرة، وإلى الشاعرة عائشة أرناؤوط؛ على تقديم بعض الصور النادرة من مجموعتها الشخصية، وإلى الدكتور محمود أنور أرناؤوط على تقديم بعض الصور واللوحات من مجموعة والده، وإلى سامي عبد القادر أرناؤوط على تقديمه بعض الصور واللوحات من مجموعة والده.

بريشتينا 2/ 3/ 2022

محمد م. الأرناؤوط

دراسات

من الإسلام العثماني إلى الإسلام السلفي:
بين النخبة الدينية الألبانية في دمشق

باستثناء الشيخ سليم المسوتي الأرناؤوطي (1832-1906)، الذي بقي في دمشق بعد انسحاب الإدارة المدنية والعسكرية لمحمد علي باشا الذي حكم الشام خلال الفترة (1831-1840)، جاء الجيل الأول من المهاجرين سواء من ولاية قوصوة (كوسوفا) العثمانية بعد الاجتياح الصربي/ المونتنغري لها خلال حرب البلقان (1912-1913)، أو من ألبانيا بعد استقرار الدولة المستقلة الجديدة في العام 1920، ليمثل تطوّر الأوضاع على الأرض في البلقان بعد نهاية الحكم العثماني الذي ترك تقاليد دينية ثقافية عميقة لدى الألبان بعد حكم دام حوالي 500 سنة.

فقد انتشر في مناطق الألبان ما نسمّيه «الإسلام العثماني» الذي ارتبط بالمذهب الحنفي (مذهب أهل الرأي)، الذي كان يناسب أكثر البيئة الجديدة المختلفة عن الموطن الأصلي للإسلام (جزيرة العرب)، وصاحب الطرق الصوفية المعتدلة ومنها السعدية –نسبة إلى الشيخ سعد الدين الجباوي المدفون في دمشق–، وهي الوحيدة التي انتقلت من دمشق إلى بلاد الألبان مع كرامات شيوخها التي أصبحت تمثل الإسلام الشعبي في أحد وجوهه[1]. من ناحية أخرى كان «الإسلام العثماني» يمثل في جانبه السياسي ترويج السلطنة باعتبارها نموذجا للدولة الإسلامية، خاصة خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909)، الذي روّج للخلافة وقرّب الألبان المسلمين منه[2]. لذلك حرص خلَفه السلطان

(1) للمزيد حول انتشار هذه الطريقة بين الألبان انظر دراستنا: انتقال الطريقة السعدية من بلاد الشام إلى بلاد البلقان وحضورها هناك، المنشورة في كتابنا: دراسات في الصلات العربية البلقانية خلال التاريخ الوسيط والحديث، بيروت، جداول، 2012، ص117-144.

(2) للمزيد حول العلاقة بين السلطان عبد الحميد الثاني والمسلمين الألبان، ودورها في تدعيم حكمه أو الانقلاب عليه، انظر ما صدر مؤخرا بالإنكليزية والألبانية:

محمد رشاد (1909-1918) على زيارة ولاية قوصوة (كوسوفا) في حزيران/ يونيو 1911 لحشد المسلمين فيها إلى جانب السلطنة العثمانية، بينما جاء العدوان الإيطالي على ولاية طرابلس الغرب في تلك السنة، وتقارب دول البلقان (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان)؛ لشن الحرب في السنة التالية (1912) التي حجّمت بسرعة (الحكم/ الوجود) العثماني بالمعنى السياسي والديموغرافي[1]. وفيما يتعلق بالجانب الثقافي، حمل «الإسلام العثماني» إلى بلاد الألبان بعض التقاليد الثقافية - الاجتماعية الجديدة، ومنها نَظْم القصائد في سيرة الرسول (الموالد)، التي أصبح يتنافس عليها الشعراء الألبان الذين كانت غالبيتهم من النخبة الدينية، والتي انتشرت في المجتمع بعدما لم يعد تقتصر قراءة الموالد على يوم محدد في السنة، بل أصبحت تنشد في المناسبات الاجتماعية المختلفة (الاحتفال بشفاء مريض أو ولادة صبي أو بناء بيت... إلخ). دون أن ينشغل المسلمون هناك بكونها بدعة كما حدث مع غيرهم في مناطق أخرى في العالم[2].

وفي هذا السياق يمكن القول إن الشيخ سليم المسوتي الأرناؤوطي كان يمثل في دمشق «الإسلام العثماني»، أو «الإسلام الشعبي» السائد في بلاد الألبان، الذي يبرز فيه الإيمان بكرامات شيوخ الطرق الصوفية التي تشمل مساعدة المحتاجين وحتى شفاء المرضى، ذلك أن الشيخ المسوتي انخرط في الطريقة الخلوتية وأصبح من شيوخها.

Gerorge W.gaweich, The Cresent and the Eagle London (I.B.Tauris) 2006; George Gawrich, Gjysmëhëna dhe shqiponja: Sundimi osman, Islamizmi dhe shqiptarët, Tiranë (Bota shqiptare) 2007.

(1) لدينا معطيات مختلفة حول عدد ضحايا التطهير الإثني/ الديني الذي لحق بالمسلمين في البلقان، لكن أحدث المعطيات الموثقة تفيد بأن عدد من قتلوا بلغ 623,408، وأنّ عدد من نجوا من المهاجرين 812,771، منهم 3181 وصلوا إلى ولايتي حلب وسورية:

Justin A. McCarthy, Death and Exile: The Ethnic ceasing of Ottoman Muslims 1821-1922, Princeton (Darwin Press) 1995, pp.161-164.

(2) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت، عالم المعرفة، 1983، ص128-131.

وُلد الشيخ سليم بن خليل المسوتي عام 1832 في حي العقيبة الغني بمنشآته الدينية التي تعود إلى العهد المملوكي كجامع التوبة، حيث قرأ العلوم الدينية على مشايخ دمشق المعروفين في منتصف القرن التاسع عشر، كالشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ بكري العطار. وأخذ الفقه عن الشيخ أحمد الحلبي، والتفسير عن الشيخ سليم العطار، والحديث عن الشيخ أحمد الكزبري، والتصوف عن الشيخ محي الدين العاني. ثم أخذ يدرّس في جامع التوبة المذكور في الحديث النبوي وخاصة الفقه الحنفي، فقد كان له درسٌ عام كل يوم بعد طلوع الشمس وبين العشاءين تستفيد منه الخاصة والعامة، فتخرّج على يده الكثير من العلماء اللاحقين الذين يكفي أن نذكر منهم أبا الخير الميداني (1875-1961) رئيس جمعية العلماء[1].

ولدينا عنه أوسع ترجمة لدى يوسف النبهاني في كتابه «جامع كرامات الأولياء» إذ قال عنه إنه اجتمع به في بيروت عام 1323هـ (تبدأ في 8/ 3/ 1905)، فرأى فيه أنه: «من خيار العلماء العاملين والأولياء العارفين»، واستجازه: «بكل ما عنده من جهة الشريعة والطريقة» فأجازه. وأخبره أنه: «يحضر دروسه العلمية جماهير من الملائكة والجن فضلا عن الأنس»، وأنه: «ليس له كسب من جهة معلومة، ولا مال له ولا عقار، مع ذلك هو متزوج بأربع زوجات، كل واحدة مع أولادها في بيت مستقل، وله أحفاد كثيرون؛ نحو سبعين نفسا، وهو ينفق عليهم جميعا. ولا شك أن ذلك من أعظم الكرامات وخوارق العادات، وأخبرني أن مدده الأعظم من النبي محمد صلى الله عليه وسلم»[2]. ويروي النبهاني عنه كرامات كثيرة، منها أن أحد التجار دعاه مرة إلى طعام في داره، فلما أراد الشيخ الانصراف

(1) من علماء الشام المعروفين في القرن العشرين، وُلد في حي الميدان سنة 1875، وتخرّج في المدارس العثمانية (الرشدية وعنبر السلطانية) لينضم إلى الجيش. لكن الشيخ المسوتي آثره فقرأ عليه حتى تمكّن، واشتهر لاحقا بدروسه، وشارك في تأسيس «رابطة العلماء» في العام 1954، وبقي رئيسا لها حتى وفاته سنة 1960.

(2) محمد جيل الشطي، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر من 1201 إلى 1350هـ، ط1، دمشق، دار البشائر، 1994، ص417-421.

ناوله التاجر صرّة فيها عشر ليرات ذهبية وطلب من أحد أولاده أن يتعقبه ليرى ما يفعل بها، فلما وصل الشيخ إلى أحد الحرّاس أعطاه الصرة وهو لا يعرف ما فيها، فلما سأله الولد قال له الحارس إنه فتح الصرة ووجد فيها عشر ليرات كان في أشدّ الحاجة إليها لأنه عقد على امرأة منذ عهد قريب وهو لا يجد مهرها[1].

وفي نهاية ترجمته للشيخ المسوتي، يذكر النبهاني في جملة معبّرة أن «صلاحه كان يغلب على علمه»، وهو ما تعزّزه الروايات التي تتحدث عن كرمه أو كراماته التي يروي بعضها العلامة علي الطنطاوي في مذكراته نقلا عن والده الذي كان من تلاميذ المسوتي. ففي مذكراته يصف المسوتي بأنه: «من كبار المشايخ المعلمين الصالحين»، وكذلك: «أحببته لكثرة ما سمعت من أخباره منه ومن شيخنا الميداني». ويذكر من ذلك أنه: «كان –على فقره– لا يردّ سائلا، ولطالما لبس الجبة أو «الفروة» فلقي بردانا يرتجف فنزعها فدفعها إليه وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفرة من أمام عياله فأعطاها للسائل. وكان يوما في رمضان وقد وُضعت المائدة انتظارا للمدفع، فجاء سائل يقسم أنه وعياله بلا طعام، فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له فأعطاه الطعام كله، فلما رأت ذلك امرأته ولولت عليه وصاحت وأقسمت أنها لا تقعد عنده، وهو ساكت. فلم تمرّ نصف ساعة حتى قُرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟ وإذا الخبر أن سعيد باشا شمدين (أمير الحج الشامي) كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام، وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ سليم المسوتي، قال: أرأيتِ يا امرأة؟»[2].

ومع هجرة الألبان من بلادهم نتيجة لحرب البلقان، وما صاحبها من مجازر لدفع المسلمين إلى مغادرة بلادهم نحو ما بقي للدولة العثمانية من ولايات، جاء الجيل الأول إلى بلاد الشام في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، أو وصل متأخرا إلى دمشق خلال

(1) المصدر السابق.

(2) على الطنطاوي، ذكريات، ج1، دمشق، ص150.

السنوات الأولى للانتداب الفرنسي. وضمن الموجة الأولى من المهاجرين الذين جاؤوا من مدن وقرى ولاية قوصوة العثمانية إلى دمشق، كانت الغالبية من الريف، بينما كان هناك بعض المتعلمين أو ممّن يُحسبون على «العلماء» في بلادهم.

ومن هؤلاء كان الحافظ إسلام بريشتينا أو إسلام البرشتوي، كما أصبح يعرّف بنفسه في دمشق نسبة إلى بريشتينا[1]. وفي الواقع كان الحافظ إسلام أفضل ممثل للإسلام العثماني، ذلك أنه دَرَس العلوم الدينية في المدارس العثمانية التقليدية في بلده ثم أصبح مدرّسا في مدرسة «بيريناز» المعروفة في بريشتينا حتى اندلاع حرب البلقان في العام 1912. وبالإضافة إلى ذلك كان شاعرا مجيدا في اللغة الألبانية بالحروف العربية، ونظم كغيره القصائد في سيرة الرسول لكي تُنشد في الموالد، سواء التي تقام في شهر ربيع الثاني كل عام أو في المناسبات الاجتماعية المختلفة على امتداد العام.

كان الحافظ إسلام في السنوات الأولى من إقامته في دمشق أفضل ممثل للإسلام العثماني، فقد كان يتردد عليه المهاجرون الألبان للاستفادة من علمه وحكمته، وجَمَعَ قصائده التي نظمها عن سيرة الرسول في «مولد» وأرسله إلى وطنه الأم (كوسوفا) لكي تُنشد هناك في الموالد، كما أنه تولى إمامة جامع عبد الرحمن بن أبي بكر المجاور لمقبرة الدحداح، فقد استقر بعض المهاجرين الألبان حوله في أحياء العقيبة والذهبية والقزازين. ولكن الحافظ إسلام عانى في سنواته الأخيرة من اعتلال في صحته وتوفي في عام 1929.

وخلال مرضه، وصل إلى دمشق مهاجرا من ألبانيا الشيخ نوح نجاتي (1878-1958) مع أولاده الذين تميز منهم لاحقا ناصر الدين الألباني. وعلى عكس الحافظ إسلام الذي هاجر من ولاية قوصوة العثمانية بعد الاجتياح الصربي لها وما صاحبه من فظائع خلال العامين 1912-1913، كان الشيخ نوح نجاتي يمثل الجيل الأخير من الإسلام العثماني في

(1) كان لدى الألبان حتى القرن العشرين تقليد بنسبة الشخص إلى المدينة التي وُلد فيها أو ارتبط بها، لذلك لدينا إسلام بريشتينا، ومعاصره النائب في البرلمان العثماني حسن بريشتينا الذي سُمّيت جامعة بريشتينا مؤخرا باسمه.

بلاده ألبانيا التي أعلنت استقلالها في العام 1912، لكن حدود هذه الدولة ونظامها لم يستقرا إلا عام 1920. وضمن هذا النظام الجديد برز آنذاك وزير الداخلية أحمد زوغو، الذي أصبح رئيسا للوزراء عام 1922، واشتهر بتوجّهه لسلخ ألبانيا عن الشرق وجعلها جزءا من أوروبا بالمعنى الثقافي أيضا وليس الجغرافي فقط، على نمط ما كان يقوم به مصطفى كمال في تركيا. ففي 1920، أُقرت الأبجدية اللاتينية، وتقرر انفصال مشيخة الإسلام في ألبانيا عن السلطنة والخلافة العثمانية في عام 1921، وصدرت في العام نفسه أول ترجمة للقرآن الكريم إلى الألبانية، ليدشِّن ذلك لاحقا الحديثَ عن «إسلام ألباني» يتماشى مع الظروف الأوروبية[1].

ومن الطبيعي أن تكون هذه التطورات مثل الزلزلة للشيخ نوح نجاتي، إذ رأى معها أن ألبانيا تتحول إلى «دار كفر»، لذلك رأى ضرورة الهجرة مع أولاده إلى «دار إسلام». ونظرا لعلمه الذي حمله معه، فقد اتّسع بيته للجيل الشاب من المهاجرين الألبان، كما توضّح مذكرات بعض أفراد ذلك الجيل، الذين كان منهم ابنه ناصر الدين وعبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط وغيرهم. لكن نظرا لأن الشيخ نوح نجاتي كان يدرّس الفقه الحنفي في موطنه وهو ما استمر عليه في دمشق، فإن هذا الجيل الشاب كان يتشرب من مصادر جديدة، لذلك نجد ابنه ناصر الدين يتململ من القولبة الحنفية ويتجه نحو أفق آخر، وهو ما نتناوله في فصل لاحق من هذا الكتاب.

وفي تلك السنوات برز أيضا الشيخ حمدي بختيار (1893-1971)، الذي جاء أيضا مهاجرا من ولاية قوصوة (كوسوفا) بعد حرب البلقان التي أنهت الحكم العثماني هناك. وكان الشيخ حمدي قد حصَّل تعليمه الأولي في موطنه، وافتتح مكتبا لتعليم الصبيان القرآن

(1) للمزيد عن هذا التوجه الجديد نحو «الإسلام الألباني» انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة.. تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007، ص46-48.

الكريم والقراءة والكتابة والحساب كان يحضره أبناء الجيل الأول من المهاجرين، كما توضّح ذلك مذكرات أولئك، كما آل إليه جزء من مكتبة الحافظ إسلام بعد وفاته[1].

لكن التطور الأبرز في هذه الفترة الانتقالية بين الجيل الأول والجيل الثاني من المهاجرين (الذين جاؤوا أطفالاً أو وُلدوا ونشأوا في دمشق)، كان يتمثل بقدوم الشيخ سليمان غاوجي إلى دمشق عام 1936مهاجراً من ألبانيا.

وكما هو الأمر مع الشيخ نوح نجاتي، فقد رأى الشيخ سليمان غاوجي (توفي 1958)، الذي كان يمثل أيضا الجيل الأخير من الإسلام العثماني في بلاده، أن ألبانيا تتسارع في التحوّل إلى «دار كفر» مع نهج أحمد زوغو الذي عزّز سلطته وانتُخب رئيسا للجمهورية بتاريخ 27/ 1/ 1925. لذلك قرر الهجرة مع أخيه نوح وأولادهما إلى دمشق في صيف تلك السنة، إلا أن السلطات الفرنسية أمرته بمغادرة دمشق بناء على طلب السلطات الألبانية، كما يذكر ابنه شوكت في مذكراته المنشورة في نهاية الكتاب. لكنه مع تزايد التوجه العلماني لحكم أحمد زوغو الذي تحول إلى ملك لألبانيا في عام 1928، خاصة مع قرار السلطات منع غطاء الوجه للنساء وعقاب من يحول دون ذلك في عام 1933، فقرّر الشيخ سليمان الهجرة إلى دمشق في العام 1936 مع أخيه نوح وأولادهما، بحسب ما يتضح في مذكرات ابنه شوكت.

ومع أن الشيخ سليمان حظي بترحيب من الهيئة الدينية السورية، فعيّنته للإمامة والوعظ في جامع العمارة عام 1937، إلا أن الوضع في دمشق آنذاك لم يعد يبدو للشيخ كما كان في عام 1925. فقد كان مشهد المجتمع الدمشقي قد تغيّر مع تزايد التوجه نحو السفور والاختلاط، وهو الأمر الذي هاجر الشيخ لأجله من بلاده التي أصبح يعتبرها «دار كفر» لينجو بنفسه وأولاده في دمشق باعتبارها «دار إسلام». لذلك قام بنشر كتابه «نجاة المؤمنين بعدم التشبّه بالكافرين» في دمشق عام 1949، ليعبّر بشكل واضح عن هذا الانتقال من «الإسلام العثماني» الذي عرفه الجيل الأول من المهاجرين إلى «الإسلام السلفي» النابع

(1) انظر ما ورد في مذكرات ابن الحافظ إسلام المنشورة في نهاية الكتاب.

من ردة الفعل على التحديث الجديد في المجتمعات المسلمة، سواء في ألبانيا ما بعد العثمانية، أو في سورية تحت الانتداب الفرنسي، وهو الذي سيبرز بقوة لاحقا مع الشيخ ناصر الدين الألباني الذي سنتناوله في فصل لاحق.

بقايا الثقافة العثمانية لدى الجيل الأول:
«المولد» في اللغة الألبانية بالحروف العربية

مع انتشار الإسلام بين الأتراك في آسيا الوسطى وبروز الدول التركية (القراخانية والسلجوقية والعثمانية)، بدأ الأتراك التحوّل لكتابة لغتهم بالحروف العربية بدلاً من الحروف الأويغورية، لتبرز بعد ذلك اللغة العثمانية التي ضمّت مفردات عربية وفارسية أكثر من التركية، ومعها الأدب العثماني الذي أصبحت له خصوصيته بعد أن شارك فيه كتّاب من شعوب مختلفة وُجدت ضمن الدولة العثمانية الواسعة (الألبان والبشناق والشركس وغيرهم). وضمن هذه الخصوصية برز لدينا أدب المولد النبوي، الذي بدأ مع سليمان جلبي (توفي 1429م) بمنظومته «وسيلة النجاة»، وانتشر بين شعوب الدولة العثمانية سواء عبر ترجمته أو استلهامه في إبداعات جديدة حتى نهاية الحكم العثماني. ومع هذا التطور الأدبي/ الثقافي، أصبح الاحتفال بالمولد النبوي يتضمن سماع القصائد التي تتناول ولادة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- ونشأته ومعجزاته، سواء في يوم مولده أو في مناسبات اجتماعية (ولادة ولد، شفاء مريض، بناء بيت جديد... إلخ) على مدار العام[1].

وفي هذا السياق استلهمت الشعوب والجماعات المسلمة في البلقان تجربة اللغة العثمانية لكتابة لغاتهم المحلية بالحروف العربية أيضا، كما هو الأمر عند الألبان والبُشناق والبلغار واليونان وغيرهم. وفي ما يتعلق بالألبان فقد ارتبط هذا باعتناق غالبية الألبان للإسلام حتى القرن السابع عشر، وانتشار التعليم في المدارس الجديدة التي كانت تعلّم العربية والفارسية والعثمانية، حتى برزت نخبة جديدة من الشعراء أخذت تكتب اللغة

(1) Fehim Bajraktarović, O našim mevludima i o mevludu uošte, Prilozi za književnost, jezik, istoriju i folklor, knj. XVIII, sv.1, Beograd 1937, s, p: 350.

الألبانية بحروف عربية، في الوقت الذي كانت فيه الأقلية الكاثوليكية في الشمال تكتب لغتها الألبانية بحروف لاتينية، بينما كانت الأقلية الأرثوذكسية في الجنوب تكتب لغتها الألبانية بحروف يونانية مع بعض التعديلات لكي تناسب النظام الصوتي للغة الألبانية[1].

وفي هذا الإطار برز بقوة أدب المولد النبوي أو الموالد (جمع مولد) عند الشعوب المسلمة في البلقان، فقد بدأ الأمر بترجمة «مولد» سليمان جلبي، وانتهى بالتنافس بين الشعراء لإبداع ما هو جديد وجاذب أكثر لجمهور المحتفلين بهذه المناسبات الاجتماعية، حتى أصبحت كل منطقة تفاخر بما لديها من «مولد» أفضل. وقد استمرت هذه الحالة حتى السنوات الأخيرة للحكم العثماني، حين أخذت النخبة الألبانية القومية الصاعدة بتبنّي أبجدية لاتينية للغة الألبانية في الصحف والكتب الألبانية التي أصبحت أكثر انتشارا بفضل الطباعة، بينما بقيت مؤلفات اللغة الألبانية بالحروف العربية في معظمها مخطوطة تنتقل بالنسخ أو السماع. وحينما أدركت سلطة «الاتحاد والترقي» أنّ تبنّي الألبان للحروف اللاتينية يمكن أن يمهّد لاستقلالهم عن الدولة، وقامت بحملة دينية وسياسية لدعم كتابة الألبانية بالحروف العربية خلال الأعوام 1910-1912، كان الوقت قد فات بسبب اندلاع حرب البلقان واستقلال ألبانيا خلال العامين 1912-1913. ومع استقرار الدولة الألبانية في حدودها الحالية منذ العام 1920 أصبحت الأبجدية اللاتينية للغة الألبانية هي الرسمية، بينما استمرت الكتابة باللغة الألبانية بالحروف العربية لدى الألبان في ولاية قوصوة

(1) Hasan Kaleši, Mevludi kod Arbanasa, Zbornik Filozofskog Fakulteta, Knj. IV-2, Beograd 1959, s. p: 349-351.

وقد نُشرت مؤخرا أوراق ندوة علمية أقيمت في المشيخة الإسلامية في كوسوفا تحت عنوان «المولد عند الألبان»، تضمنت ثقافة «المولد» عند الألبان و«الموالد» التي أُلّفت على مدى قرنين وأكثر في مختلف المناطق الألبانية، سواء بالحروف العربية أو بالحروف اللاتينية:

Mevludi tek shqiptarët, Prishtinë (BIK) 2010.

(كوسوفا) التي أصبحت ضمن مملكة يوغوسلافيا الجديدة حتى انهيارها في العام 1941[1].

في هذه الظروف كان من الطبيعي أن تحمل النخبة الألبانية الدينية التي هاجرت إلى دمشق من ولاية قوصوة (كوسوفا) الثقافة العثمانية التي حصّلتها: كتابة اللغة الألبانية بحروف عربية، واستمرار تقليد كتابة القصائد لـ«المولد» لقراءتها في المناسبات الاجتماعية التي توزّع في نهايتها صُرر الملبّس المُشتراة من سوق البزورية القريب من الحارة التي تمركز فيها المهاجرون الألبان. وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن شخصيتين من الجيل الأول للمهاجرين: المُلا ثابت نعمان فريزاي (Mula Thabit Niman Ferizaj) (1860-1950)، والحافظ إسلام بريشتينا (Hafiz Islam Prishtina) (1882-1929).

بالنسبة للمُلا ثابت نعمان، يذكر حفيده من ناحية أمّه، عبد اللطيف الأرناؤوط (1931-2022)، أنّه تعلّم في مدرسة البلدة التي انتسب إليها (فريزاي) اللغة العربية وقراءة القرآن ومبادئ علوم الدين، وعندما بلغ العشرين افتتح كُتّابا في البلدة. لكنه ترك البلدة بعدما تزوج من فتاة خارج التقاليد الألبانية التي تمنع زواج الأقارب، وهاجر إلى بلاد الشام حيت تنقّل بين بعض المدن (عمّان والكرك والمسْمية) قبل أن يستقرّ بدمشق في «حارة الأرناؤوط». ويبدو أنه في هذه الحارة المطلّة على الغوطة جمع بين الاهتمام بالزراعة والنجارة في البيت وتصنيع بعض الأدوات، بالإضافة إلى اهتماماته الشعرية والعلمية (علم الفلك) وغيرها، حتى إن حفيده يذكر له عناوين مؤلفات متنوعة تشمل العقيدة والتفسير والتاريخ وعلم الفلك والزراعة، ويستشهد له بثلاث قصائد، قبل أن يعتكف ويتخذ له زاوية في «جامع الأرناؤوط»[2].

---

(1) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1983، ص162-171.

(2) عبد اللطيف الأرناؤوط، ثابت نعمان فريزاي، مجلة التمدن الإسلامي، مجلد43، عدد7، دمشق 1976، ص560-563.

لكن ما وصل إلينا في الحقيقة مجموعة أوراق متناثرة كُتبت بخطّه بالألبانية بحروف عربية يعبّر فيها عن بعض مشاعره شعرا ونثرا، واستخلصنا منها أبجديته التي استخدمها لكتابة الألبانية لأجل ورقة قُدّمت لمؤتمر علمي عام 1978[1]. لكن بعد ذلك عثرنا على قصيدة كاملة تتألف من 35 بيتا من نوع «الإلهيات» في مدح الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- تُنشد في الموالد، أو قد تكون نواة لـ «مولد»، منسوخة بيد حفيده محمد بشير نعمان ثابت (1957-1996) الذي عُني بتراث جده واشتغل في التحقيق. وفي هذه الصفحات التي وصلتنا عام 2016، لدينا معلومات مهمة تبيّن أن هذه القصيدة كُتبت قبل 1318هـ (تبدأ في 1/ 5/ 1900)؛ لأن «المُلا محمد بن نوح نجاتي»، أي ناصر الدين الألباني، نقلها عن النسخة الأصلية المكتوبة بيد المُلا ثابت نعمان عام 1318هـ، ثم قام ابنه الشيخ نعمان ثابت (1900-1983) بنسخ هذه النسخة التي بهتت مع مرور الزمن، إلى أن قام الحفيد محمد بشير نعمان بنسخها في 28/ 5/ 1972 كما وثّق ذلك في نهاية الأوراق[2].

(1) Muhamed Mufaku, Një alfabet i përdorur te shqiptarët e Sirisë pas Lidhjes së Prizrenit, Përparimi 4, Prishtinë 1978, f.519-525.

(2) وجدتُ هذه الأوراق في حوزة أخيه يحيى نعمان ثابت في عمّان، وأنتهز هذه المناسبة لشكره على تقديمه نسخة لي.

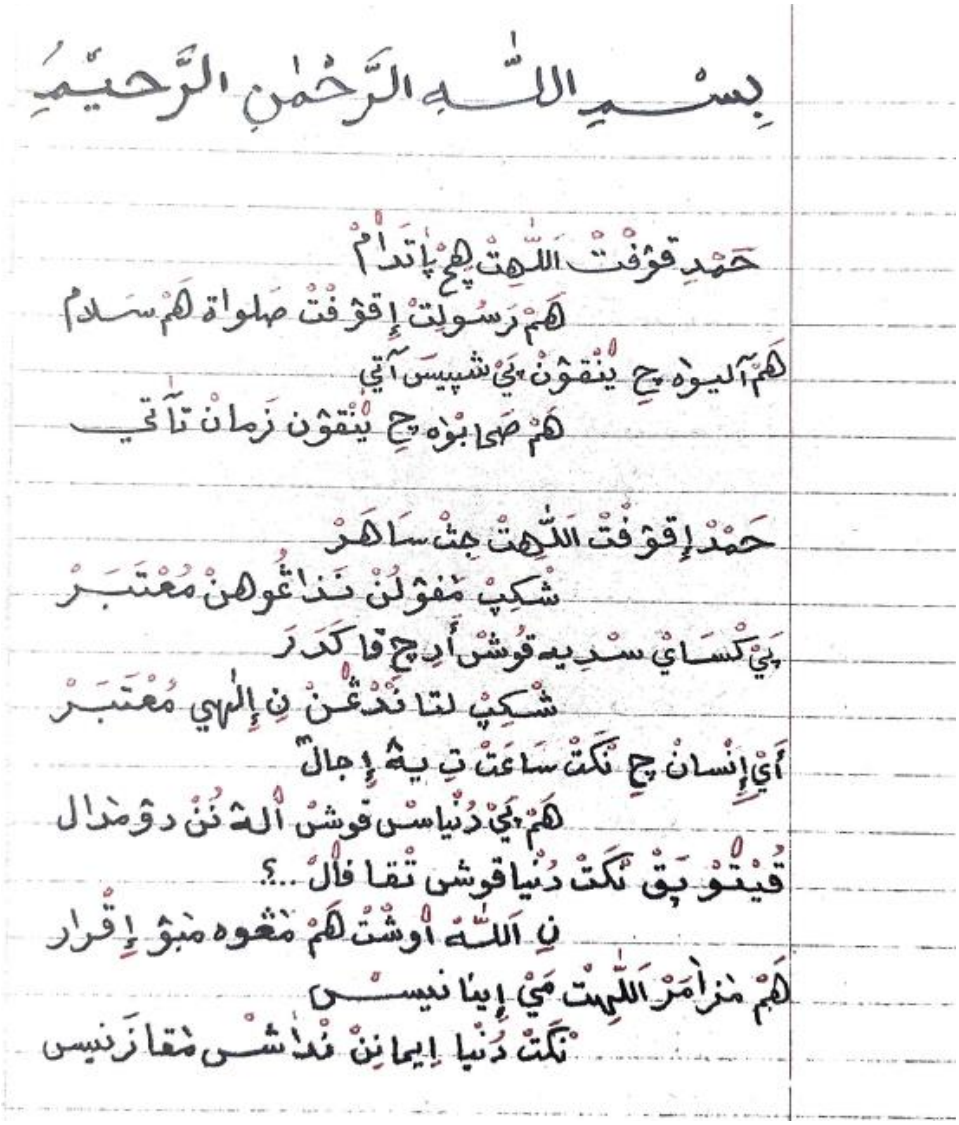

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حَمْدِ قوْفتْ اللّٰهتْ هِجْ پاْتدَاْمْ
هَمْ رَسُولِتْ إِقوْفتْ صَلواة هَمْ سَلام
هَمْ آليوْه چِ ينْقوْنْ يَيْ شپيسَ آيْتي
هَمْ صَحابوْه چِ ينْقوْنْ زَمانْ تاآتي

حَمْدْ إِقوْفتْ اللّٰهتْ جِثْ سَاهَرْ
شْكِپْ مْفوْلُنْ نَنْدَاغُوهنْ مُعْتَبَرْ
پَيْ كْسَايْ سَدِيه قُوشْ أَدِچِ قا كَدَرَ
شْكِپْ لتا نَدْغَنْ نِ إِلٰهي مُعْتَبَرْ
أَيْ إِنْسانْ چِ نَكتْ سَاعَتْ تِ يهْ إِجالْ
هَمْ يَيْ دُنْياسْ قوشْ اْلهْ نُنْ دوْمْدال
قُيْتوْ يَقْ نَكتْ دُنْيا قوشْ تْقا فالْ...؟
نِ اللّٰه اْوشْتْ هَمْ مْغوه مْبوْ إِقرار
هَمْ مْزاْمَرْ اللّٰهتْ مَيْ إِيمانيسْ
نَكتْ دُنْيا إِيمانِنْ نْدشْ مْغا زَنيس

قصيدة ثابت نعمان

وتتميز هذه الأوراق بمحاولة الحفيد ضبط القصيدة ليستخلص منها النظام الأبجدي الذي استخدمه للكتابة في اللغة الألبانية بالحروف العربية. والمشكلة في المحاولات أو الأبجديات التي وُضعت للغة الألبانية بالحروف العربية تكمن في ابتكار إضافات أو إشارات إضافية على الحروف العربية، لتصبح قادرة على التعبير عن النظام الصوتي الغني للغة الألبانية التي تتألف أبجديتها اللاتينية الحالية من 36 حرفا، منها ثمانية تعبّر عن الأصوات التي لا توجد معظمها في اللغة العربية (a,e,ë,i,j,o,u,y). ونظرا لأنّ المُلا ثابت كتب ما كتبه بلهجة أهل الشمال (الغيغ)، التي تخفّف أو تسقط بعض الأصوات المميزة للهجة أهل الجنوب (التوسك)، نجد من هذه الإضافات التي وردت لديه ما يلي:

پ (بثلاثة نقط) لـ p في الألبانية: بي (مِن)، بَق (قليلا)، بر (لأجل)... إلخ.

ۏ لـ o في الألبانية: مبو (لفعل)، لكنه أحيانا يستخدم (أو) عوضا عنها: اوشت (يكون).

نِ لـ nj في الألبانية: نِ إلهي (قصيدة إلهية).

و/ أو لـ u في الألبانية: تو قيتوا (تذكّر)، توركنيا (بلاد الأتراك/ المسلمين) ... إلخ.

ولـ v في الألبانية: نوه (لنا)، أي بدون أي تمييز عن حرف: o.

ومع ذلك نلاحظ أن المُلا ثابت لم يلتزم تماما بالنظام الأبجدي الذي وضعه، ذلك أنه استخدم بعض الحروف العربية التي تعبّر عن أصوات خاصة بالعربية، مثل الحاء (ح) حين يستخدم بعض الكلمات العربية التي دخلت الألبانية (حمد، حرام، عذاب، شيطان، مُعتبر، شيطان... إلخ)، بينما يستخدم حرف القاف (ق) للتعبير عن كلمات ألبانية أصيلة يمكن أن يعبّر عنها بحرف الكاف (ك) الذي كان من ضمن أبجديته (قوفت، قويتو، قجوراه... إلخ)، وكذلك استخدم حرف الصاد العربي بدلا عن حرف (s) الموجود في ألبانية (صد بر صد)، على حين أنه لم يكن يلتزم دائما بالإضافات التي وضعها على الحروف العربية للتعبير عن بعض الأصوات الخاصة باللغة الألبانية.

أما العمل الأهم في هذا المجال فقد جاء مع الحافظ إسلام بريشتينا، الذي جمع بين التعليم الحكومي والديني في بريشتينا. فقد التحق بالمدرسة الابتدائية وأكمل المدرسة

الرشدية (التي تعادل الإعدادية)، ثم التحق بمدرسة «بيريناز» الدينية وتعلّم على يد أشهر المدرسين الذين يذكرهم في إحدى أوراقه[1]. ثم اشتغل مدرّسا في هذه المدرسة التي بقيت قائمة حتى عهد يوغوسلافيا الملكية[2]. ونظرا لثقافته الشعرية والدينية، فمن المؤكد أنه كان على صلة بالأعمال الشعرية التي كانت تتناول ولادة وسيرة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو «الموالد» التي بدأت تُطبع في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في الألبانية بالحروف العربية[3]. وبالاستناد إلى ذلك، وعلى الرغم من ظروفه الصعبة التي عاشها في السنوات الأولى لحياته الجديدة في دمشق، فقد تابع التقليد الثقافي العثماني في نظم القصائد عن ولادة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- وسيرته في اللغة الألبانية بالحروف العربية، ليضع «مولدا» أرسل نسخة منه إلى موطنه الأصلي أيضا كما يبدو في الصفحة

(1) يحتفظ الحفيد زهير جلال الدين بأوراق جدّه في الألبانية والعثمانية والعربية، ومنها شجرة العائلة ونبذة عن نشأته وتعليمه وأسماء معلميه، وأشكره هنا لارساله هذه الورقة لي.

(2) مدرسة بيريناز Pririnaz، أو بيري ناظرPriinazir وهو الأصح، نسبة إلى جامع بيري ناظر الذي بناه الصدر الأعظم للسلطانين سليم الأول وسليمان القانوني في بريشتينا قبل 1566، بُنيت في جوار هذا الجامع في بدايات النصف الثاني للقرن التاسع وأصبحت من أشهر المدارس في ولاية قوصوة (كوسوفا). بقيت بعد حرب البلقان 1912-1913 والحكم الصربي ثم النمساوي (1913-1918) واستمرت ضمن مملكة يوغوسلافيا حتى 1927 حين أغلقت مؤقتا ثم عادت وأغلقت مع غيرها من المدارس الموروثة من العهد العثماني في 1948 من قبل النظام الشيوعي الجديد:

Madžida Mećirović, Prosvjetni objekti islamske arhitekture, Starine Kosova VI-VII, Priština 1972-1973, s.86; Sadik Mehmeti, Shkollat dhe arsimi në Kosovë 1830-1912, Prishtinë (Instituti albanologjik) 2019, f.265-265.

(3) طُبع أول «مولد» في اللغة الألبانية بالحروف العربية في إستانبول عام 1878 بعنوان «ترجمة مولود على لسان أرناؤود» للحافظ علي رضا اولتشيناكو H.A.R. lUlqinaku، وهو ترجمة حرة لـ «مولد» سليمان جلبي نالت انتشارا واسعا بين الألبان وأعيدت طباعتها عدة مرات، بينما طُبع أول «مولد» في اللغة الألبانية بالحروف اللاتينية في 1900 للحافظ علي كورتشا H.A. Korça وتلاه حوالي عشرة «موالد» حتى نهاية القرن العشرين:

Faik Luli- Islam Dizdari, Mevludet në gjuhën shqipe, Shkodër (Camaj-Pipaj) 2002.

الأولى على المخطوطة الموجودة في كوسوفا. وقد أنجز الحافظ إسلام هذا «المولد» عام 1921، ثم أضاف إليه قصائد أخرى عام 1924 وختمه في الصفحة الأخيرة بالعربية بتوثيق تاريخ الانتهاء من: «تسويد هذه المجموعة الشريفة على يد مؤلفه المفتقر إلى الله الرحيم الودود خويد الفقراء، إسلام بن جلبي الأرناؤد، البرشتوي مولدا، ودمشق مهاجرا، في خمس عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة من له العزو والشرف صلى الله عليه وسلم». ثم أضاف أخيرا بيتين من الشعر بالعربية:

يا ناظرا في الكتاب بعين الرضا صحح الخطأ إذا كنت ملاقيا

وانصر الدين لا تصغ بيا فعيون السخط تبدي المساويا

ونظرا لأن دمشق كانت مركز تجمع الحجاج الذاهبين إلى مكة والعائدين من منها إلى بلادهم في البلقان، فقد حلّ في دمشق عام 1926 الحاج الياس هاشاني (I. Hashani) من بريشتينا، فزار زميله الحافظ إسلام الذي أعطاه نسخة من «المولد» الذي أنجزه لكي يوصله إلى تلميذه في كوسوفا المُلا أحمد تشيناكو (A. Qinaku)، مع توصية بنسخه ونشره في كوسوفا. وبالفعل فقد وصلت النسخة إلى تلميذه الذي اهتم بالأمر وسعى إلى طبع المولد في مطبعة «بصمهخانة» في إستانبول (حيث طُبعت عدة موالد)، فاشترطت تقديم أربعين نسخة مخطوطة للنظر فيها من قِبل العلماء قبل الموافقة على طبعها. وقد عمل علماء منطقة لاب (Lap) (في شمال كوسوفا) برئاسة المُلا أحمد على نسخ ثلاثين نسخة، لكن التوترات السياسية في المنطقة عرقلت الاستمرار في العمل وطبع المولد. ومع ذلك، كما يقول صبري بايغورا ابن المنطقة الذي نشر هذا المولد في الألبانية الجديدة التي حلّت محل الألبانية بالحروف العربية، فإن «المولد» الذي أرسله الحافظ إسلام إلى موطنه الأصلي انتشر من خلال النسخ المذكورة وأصبح يُنشد في المناسبات، وبشكل خاص في منطقتي

لاب ودرنيتسا Drenica[1]، مع أن «مولد» طاهر بوبوفا T. Popova الذي سبقه كان أكثر انتشارا في كوسوفا لكونه طبع عدة مرات بالحروف العربية ثم بالحروف اللاتينية[2].

وبالنسبة لهذا «المولد»، الذي يتمتّع بقيمة خاصة لكونه كُتب في دمشق، وأشير في غلافه إلى أنه: «هذا مولود شريف ما أُرسل من الشام»، نجد أنه يتألف من ست وأربعين صفحة يبدؤها بكلمة يبيّن فيها أهمية المولد النبوي والاحتفال به، ثم يُتبعها بأبيات يطلب فيها الشفاعة من الرسول. وفي الصفحة 4 نجدُ إشارة مهمة تقول عن مضمونه إنه: «كلمات حلوة من بلاد الإسلام بمناسبة مولد حبيب الله، كتبتُها بلهجة أهل الغيغ»، أي باللهجة الألبانية الشمالية التي تضمّ شمال ألبانيا وكوسوفا. وعلى غرار بقيّة الموالد نجد أولا «قصيدة الحمد» حيث يشير الحافظ إسلام في البيت الخامس منها إلى أن «هناك كثيرا من الموالد التي كُتبت قبل هذا المولد». وبعد هذه لدينا منظومة المولد التي تتألف من حوالي أربعمائة بيت، ثم دعاء المولد. وفي الصفحة الأخيرة لدينا بيتان من الشعر يشيران إلى أن الشاعر «من مدينة بريشتينا وهو الآن مهاجر في الشام الشريف، حيث يعيش اليوم»، وبيتان يؤرخان لإنجاز العمل: 1340 هجرية؛ أي 1921.

وقد أُرسل هذا المولد كما رأينا إلى الموطن الأصلي للحافظ إسلام في عام 1926؛ أي عندما بدأت المصاعب الصحية تتناوب عليه حتى وفاته في عام 1929، لتنهي بذلك هذه الثقافة العثمانية التي جاءت من كوسوفا مع النخبة الدينية للجيل الأول من المهاجرين[3]،

---

(1) السبب في انتشار «مولد» الحافظ إسلام في هاتين المنطقتين يعود إلى أن أسرة الحافظ إسلام تنتمي إلى قرية نيكوفس (Nekovc) في منطقة درنيتسا، وأن تلميذه أحمد تشيناكو الذي أرسل له المولد من دمشق كان يقيم في منطقة لاب.

(2) Faik Luli-Islam Dizdari, Mevludet në gjuhën shqipe, f.263.

(3) لدينا هنا استثناء مع «منظومة المولود في فضل المولود بلسان الأرنؤد» لزين الله أوزيشار الذي نُشر بدمشق عام 1970. وتفيد المقدمة أن المؤلف من الألبان الذين هاجروا من كوسوفا إلى تركيا في فترة ما بين الحربين، وأنه نظم المولد أولا في «اللغة الألبانية بحروف اللغة التركية» في أنقرة عام 1944، ثم أعاد

على حين أن أبناء الجيل الأول الذين نشؤوا وبرزوا في دمشق (ناصر الدين الألباني، وعبد القادر الأرناؤوط، وشعيب الأرناؤوط)، حافظوا على اللغة الألبانية المحكية التي تعلّموها في بيوتهم، بينما تعلّموا العربية سواء في حلقات العلم أو في المدارس واتخذوها لغة للكتابة. وقد بقي هذا «المولد» مخطوطا ومحفوظا في الصدور إلى أن قام الباحث صبري بايغورا بنشره باللغة الألبانية الحالية[1].

كتابته في اللغة الألبانية بالحروف العربية في دمشق الشام عام 1970، أي بعد أن انقطعت الصلة بهذا التراث.

(1) Sabri Bajgora, «Mevludi i Hafiz Islam Çelebiut-Nekovcit (1882-1929)» in Faik Luli-Islam Dizdari, Mevludet te shqiptarët, f.647-685.

الورقة الأولى لمولد الحافظ إسلام

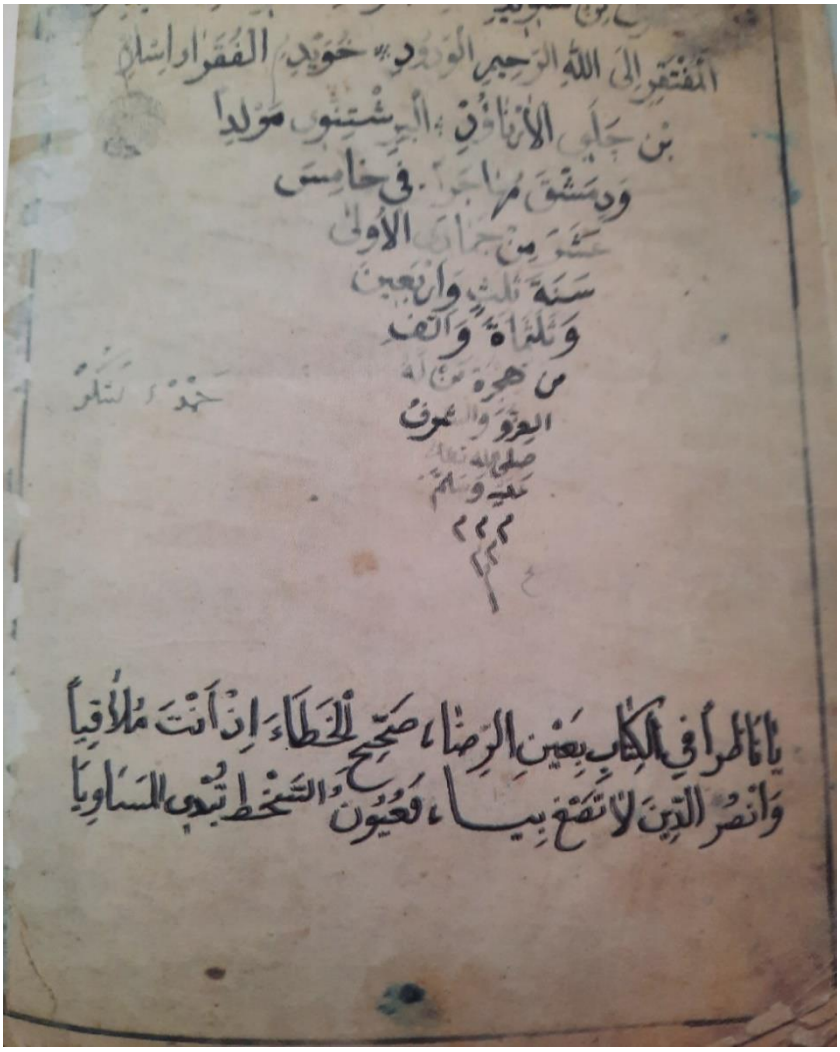

الورقة الأخيرة لمولد الحافظ إسلام

ولكن مع بروز «سُلطة الحديث»، كما يسمّيها ستيفان لاكوروا (S. Lacroix)، وانطلاق السلفية الجديدة في سورية وجوارها، أخذت النظرة السلفية تتعامل مع «المولد» باعتباره بدعة، مما ساهم في انحسار الثقافة التقليدية للاحتفال بالمولد، سواء في الجوامع أو في البيوت كما كانت عليه الحال خلال الحكم العثماني، وهو ما شمل مجتمع الألبان في دمشق تحت تأثير «سلطة الحديث» التي أرساها الشيوخ ناصر الدين الألباني، وعبد القادر الأرناؤوط، وشعيب الأرناؤوط، بما حقّقوه من كتب الحديث والفقه التي تُعلي من شأنه. ومع وصول السلفية إلى الموطن الأصلي للألبان، مع عودة الطلاب الذين تخرّجوا في الجامعات السعودية منذ ثمانينيات القرن الماضي، بدأت تُسمع في المجتمع الألباني أصواتهم حول «بدعية» الاحتفال بالمولد، ونجح هؤلاء في ما لم ينجح فيه العهد الشيوعي بإبعاد جيل الشباب عن هذا التقليد المتوارث. مع ذلك، لا تزال غالبية الألبان المسلمين هناك، الذين يتبعون المشيخات الإسلامية التي تمثل دستوريا المسلمين أمام الدولة في ألبانيا وكوسوفا ومقدونيا الشمالية، تحافظ على هذه الثقافة الموروثة التي تحتفي بالمولد وتحتفل به سواء في الجوامع أو في البيوت[1].

(1) Ramadan Shkodra, Manifestimi i mevludit në Kosovë (dikur dhe sot), in Mevludi tek shqiptarët, Prishtinë (BIK) 2010, f.72-73.

سنوات الحافظ إسلام البرشتوي بدمشق

(1920–1929)

قبل أربعين سنة؛ أي عام 1982، حين كنت أعمل في قسم الاستشراق في بريشتينا، وقعت في يدي نسخة مصورة من مخطوطة «مولد» الحافظ إسلام التي وصلت من دمشق إلى كوسوفا، وحُفظت هناك في ظروف مثيرة. فقد وصلت هذه النسخة إلى الشيخ عبد الله بيرامي، الذي كان شخصية معروفة في مدينة بودييفو (Podujevo) خلال العهد اليوغوسلافي الملكي، وقد تعرّض بيت الشيخ بيرامي في العام 1954 إلى تفتيش من قبل قوات الشرطة الصربية التي أخرجت كتبه إلى ساحة الدار وأحرقتها، بينما حافظت زوجة الشيخ كاملة بيرامي على هذه النسخة لـ«المولد»، التي وصلت أخيراً إلى مركز الوثائق في كوسوفا[1].

وقد وقعت هذه النسخة في يدي في الوقت الذي كنت أنجز فيه كتاب «الأدب الألباني في الأبجدية العربية»، ولذلك أشرتُ إلى هذا «المولد» مع المعلومة الوحيدة عن المؤلف (الحافظ إسلام) التي تقول إنه قد هاجر من بريشتينا (عاصمة كوسوفا) بعد الحرب البلقانية (1912-1913)، واستقر في دمشق حيث أنجز ذلك «المولد» سنة 1340هـ/ 1921م، وأرسله إلى موطنه الأصلي، كوسوفا[2].

وبعد صدور هذا الكتاب في عام 1983، ازداد اهتمام الباحثين الألبان بالمولد وصفه تقليدا اجتماعيا - ثقافيا، ونُشرت عدة دراسات أشارت إلى «مولد» الحافظ إسلام بالاسم دون أي معلومات جديدة عنه، كدراسة: «المولد في الأدب الألباني بالأبجدية العربية» لنهاد

(1) كان مصدر هذه المعلومات الابن د. عاكف بيرامي، مدير مركز الوثائق في كوسوفا آنذاك، الذي أهداني حينئذ نسخة مصورة من هذا «المولد»، لذلك لا يسعني إلا أن أشكره مرة أخرى على ذلك.

(2) د. محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1983، ص183-184.

كراسنيتشي التي نُشرت عام 1991[1]، ودراسة فتحي مهدي الملحقة بالطبعة الجديدة لـ«المولد» للحافظ علي كورتشا التي نشرت عام 1922[2]، ورسالة الماجستير: «المولد في اللغة الألبانية» لبختيه غربيشي التي نوقشت في كلية الفيلولوجيا بجامعة بريشتينا عام 1998[3]، ودراسة فائق لولي وإسماعيل دزداري: «نظرة تاريخية حول إبداع الموالد» التي نشرت عام 2002[4]، والكتاب المرجعي الجديد لفتحي مهدي: «حفّاظ القرآن في خدمة الوطن» الذي نشر عام 2012[5].

وقد أتيحت لي الفرصة لزيارة عائلة الحافظ إسلام في دمشق في صيف العام 2002، فتمكنت من العثور على بعض الأوراق المحفوظة بخط يده، وعلى بعض المعلومات من ابنه عبد الوهاب (ولد في العام 1928)، وحفيده زهير (ولد في العام 1955)، وهي تكشف عن معلومات جديدة عن أسرة الحافظ إسلام، وعن تنقّله في الدولة العثمانية، خاصة عن السنوات الأخيرة التي قضاها في دمشق (1920-1929). وفي الحقيقة فإن أهم ما في هذه الأوراق شجرة العائلة التي رسمها الحافظ إسلام مع ملاحظات قيمة على الوجه الآخر للشجرة كُتبت باللغة العثمانية، والإجازة في الحديث النبوي التي حصل عليها عام 1341هـ/ 1923م، من العالم المعروف عبد الوهاب الأرزنجاني نزيل دمشق في ذلك

(1) NehatKrasniqi, «Mevludi nëlettersinëshipe me alphabet arab», Dituria Islame 30-31, Prishtinë 1991, p.27.

(2) Hafiz Ali Korça, Mevludi, Prishtinë, 1992, p.34.

(3) Bahtije Gerbeshi, Mevuldi nëshqip, punimmagjistrature, Universiteti Prishtinës/ Fakultii Filologjisë, Prishtinë 1998, p.27.

(4) FetiMehdiu, Havizët e Kur'anit, Shkup (Logos), 2012.

(5) لم نجد في كتب التراجم عن علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي (الشطي والفرفور وغيرهما) ما يتوقع المرء عن هذه الشخصية، وكل ما وجدناه في «الأعلام» معطيات عن أويس الأرزنجاني الذي عاش في الفترة ذاتها وألّف «منهاج اليقين» (طُبع)، و«شرح أدب الدنيا والدين» للماوردي الذي فرغ من تأليفه سنة 1327هـ/ 1909م: خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، 1992، ج2، ص32.

الوقت[1]، بالإضافة إلى «المجموعة» الشعرية التي تضم قصائد عدة مكتوبة باللغة الألبانية بالحروف العربية. أما المعلومات المروية عن ابنه عبد الوهاب وحفيده زهير، فإن مصدرها الحقيقي هو زوجة الحافظ إسلام (وحيدة أحمدي) التي وُلدت في كوسوفا عام 1892، وهاجرت مع زوجها إلى دمشق حيث توفيت عام 1990[2].

وبالاستناد إلى كل هذا يتضح أن الحافظ إسلام قد وُلد في قرية نكوفتس (أو نقوفجة كما يكتبها هو) (Nekofc) التي تقع في منطقة درنيتسا (Dernica) بقلب كوسوفا. وهو ينحدر من عائلة عريقة بحسب الشجرة التي وضعها خلال حياة عمه سليمان الذي كان قد بلغ الثمانين حين وضع هذه الشجرة عام 1329هـ/ 1911، ويؤشر فيها إلى وفاة من ترد أسماؤهم فيها حتى ذلك الحين. ويذكر في الملاحظات المدونة على الوجه الآخر للشجرة أن عمه الآخر صادق كان في مصر خلال حرب 1293هـ/ 1876م، ثم ضاعت أخباره بعد ذلك[3].

ويبدو أن إسلام بن جلال الدين قد تابع تعليمه في بريشتينا حيث حصل على لقب «الحافظ» الذي يدل على أنه قد حفظ القرآن الكريم. ويرد في الملاحظات المذكورة المرفقة مع شجرة العائلة أن الحافظ إسلام تخرّج في المدرسة الرشدية (الإعدادية)، وفي

(1) بحسب البطاقة العائلية رقم 49169 الصادرة في دمشق بتاريخ 19/ 12/ 1974.

(2) في ذلك الحين كانت مصر تخوض حربًا ضد الحبشة، تُوجت بمعركة قرع (7 آذار 1876). للمزيد حول ذلك انظر: إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863 إلى سنة 1879، ج2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1990، ص109-115.

وأنتهز هذه الفرصة لأشكر الصديق د. فاضل بيات على مساعدته لترجمة هذه الملاحظات من العثمانية إلى العربية.

(3) مصدر هذه المعلومات شجرة العائلة وما تحويه من معلومات بخط الحافظ إسلام، التي يحتفظ بها حفيده زهير جلال الدين.

المدرسة الدينية «بيريناز» في بريشتينا التي عمل فيها لاحقا حتى عام 1912[1]، أي حتى اندلاع الحرب البلقانية.

وبسبب الفظائع التي مارستها آنذاك القوات الصربية في كوسوفا وبريشتينا[2]، والتي بقيت تتذكرها وترويها زوجته وحيدة، فقد اضطر الحافظ إسلام إلى الهجرة إلى إستانبول مع أمه وزوجته وابنته وابن أخته محرم عاكف. وقد تصادف وصوله إلى إستانبول مع اندلاع الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى نقص الأغذية وتفشّي الأمراض في المنطقة، حتى توفيت له 3 بنات[3].

---

(1) كانت الصحافة العربية الصادرة في القاهرة ودمشق وبيروت تتابع باهتمام أخبار المجازر التي كانت ترتكبها القوات الصربية في كوسوفا ضد الألبان المسلمين. وهكذا على سبيل المثال، فقد نشرت «المقتبس» مقالاً نقلاً عن جريدة الدايلي كرونيكل يروي فيه مراسل الجريدة من منطقة الحرب أن القوات الصربية قتلت خمسة آلاف ألباني بالقرب من بريشتينا فقط: المقتبس، القاهرة، 1/ 12/ 1912، وفي الحقيقة أن هذا الرقم (5 آلاف قتيل في ضواحي بريشتينا فقط) ورد في التقارير الميدانية عن الحرب التي نُشرت أيضاً في جريدة «ديلي تلغراف»:

Leo Freundich, Albania's Golgothe, translated from German by S.S. Juka, New York, 1991, Reprinted in Prishtina 2001, p.45.

(2) لقاء مع الابن عبد الغني والحفيد زهير في بيتهما بدمشق في 3/ 8/ 2002.

(3) كلس: مدينة تقع على سفح جبل كفيز قرب الحدود التركية السورية، ورد ذكرها في المصادر الآشورية باسم كليزي. بعد فتح السلطان سليم الأول لبلاد الشام عام 1516، أصبحت مركز سنجق/ لواء تابع لإيالة حلب، وفتحها إبراهيم باشا عام 1831 وبنى فيها ثكنة عسكرية كبيرة. وبعد انسحاب إبراهيم باشا من بلاد الشام عام 1841 أصبحت مركز سنجق/ لواء تابع لولاية حلب. وبعد انسحاب القوات العثمانية منها احتلتها القوات الإنجليزية عام 1919، ثم تركتها للقوات الفرنسية فدخلت مؤقتاً ضمن حدود سورية الجديدة. وبحسب «معاهدة أنقرة» عام 1921 دخلت المدينة نفسها ضمن حدود تركيا، بينما بقيت البساتين والأراضي التابعة لها ضمن حدود سورية، وبحسب اتفاقية 1926 دخلت هذه البساتين والأراضي مع بعض القرى ضمن حدود تركيا.

وكلس اليوم مدينة يبلغ عدد سكانها حوالي مئة ألف نسمة، وتبعد 10 كم عن الحدود التركية السورية على طريق حلب إعزاز:

MaydanLaroussi, vol.11, Istanbul, 1992, p.288.

ويبدو أنّ ذلك كان السبب الذي دفعه إلى الانتقال والاستقرار في الطريق في بلدة كلس القريبة من حلب[1]. وقد استفاد من هذه الإقامة بالاتصال بالعالم المشهور في المذاهب الأربعة «محمد بن جلال»، وعمل خلال ذلك الوقت مدرّساً في مدرسة خاصة معادلة للرشدية (الإعدادية). وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى انتقل من كلّس إلى حمص التي تقع في منتصف الطريق بين كلس ودمشق، حيث علّم فترة في المدرسة الابتدائية بحمص، لكنه لسبب لا يذكره في ملاحظاته عاد مرة أخرى إلى كلس حيث عين وكيلاً لمدير مدرسة «شمس المعارف». وخلال إقامته هناك توفي مفتي كلس وأُجري له امتحان ومنح الإجازة في «العلوم الاثني عشر»، إلا أنه تعرض إلى ظلم المجلس الامتحاني الذي شُكّل في كلس بحجة معارضته لجماعة «الاتحاد والترقي» (التي يسميها الفرقة السياسية الضالة)، التي كانت في الحكم آنذاك، واشتُهر هناك بسبب ما تعرض له. وبعد ذلك (كما يبدو بعد الحرب وإبعاد «الاتحاد والترقي» عن الحكم) نجح في الامتحان الذي أجري له في جامع حاجي علي، وأصبح إماماً للجامع، كما أصبح المدرس الثاني الأصيل في المدرسة المذكورة. وخلال إقامته في كلس وُلد له الابن الأكبر عبد الغني في العام 1918.

في الأسبوع الأخير من حكم الشريف فيصل لسورية (يوافق 17-24 تموز 1920) رحل الحافظ إسلام إلى حلب المجاورة. وخلال وجوده في حلب خضعت سورية للانتداب الفرنسي، فهاجر منها إلى دمشق واستقر فيها حيث عرف باسم الحافظ إسلام

(1) يلاحظ في الإجازة التي أعطاها له الشيخ عبد الوهاب الأرزنجاني، أن اسمه يرد «إسلام أفندي البرشتوي»، بينما يَذكر هو اسمه في نهاية «المولد» الذي ألفه: «إسلام الأرناؤد» أو «الأرناؤوط» الذي أُطلق آنذاك على من هاجر من الألبان سواء من كوسوفا أو من ألبانيا. للمزيد حول هذا الاسم (الأرناؤوط) انظر دراستنا: الألبانيون.. عدة تسميات لأمة واحدة، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد 63، ج4، دمشق، 1988، ص677-684.

البرشتوي (نسبة إلى بريشتينا) أو حافظ إسلام أرناؤد[1]. وخلال السنوات التي عاشها في دمشق (آب 1920- نيسان 1929) سافر مرة إلى قبرص «لأجل الزيارة» دون أن يوضح في ملاحظاته ما كان وراء هذه الزيارة.

وكما في كلّ المدن التي عاش فيها، كان الحافظ إسلام حريصاً خلال إقامته في دمشق على تحصيل المزيد من العلم. وكان ممن اتصل بهم آنذاك نزيل دمشق العالم عبد الوهاب الأرزناجي، الذي أخذ منه إجازة في الحديث في 5 جمادى الآخر 1341هـ/ 24 كانون الثاني 1922. وبالإضافة إلى ملازمته للشيخ الأرزناجي، فقد كان للحافظ إسلام جلسات علمية مع اثنين من العلماء الأرناؤوط المهاجرين (الشيخ نوح نجاتي والد الشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ سليمان الغاوجي الألباني والد الشيخ وهبي غاوجي) اللذين هاجرا من ألبانيا إلى دمشق خلال الفترة 1923-1925، بسبب معارضتهما لسياسية أحمد زوغو الإصلاحية[2].

لكن مشكلة الحافظ إسلام كانت في تأمين لقمة العيش له ولعائلته. فقد نزل أولاً مع عائلته في جامع العفيف بمحلة «المهاجرين» التي اكتسبت اسمها من المهاجرين الذين كانوا يقصدون دمشق من أنحاء الدولة العثمانية في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، ثم انتقل إلى «بيت» في محلة الذهبية المجاورة لمحلة العمارة التي كان يقصدها المهاجرون الأرناؤوط آنذاك. وفي الواقع أن بيوتها الضيقة التي كان يشبهها الجيل الأول من المهاجرين بالقبور، كانت تضيق بسكانها الجدد الذين كانوا يبحثون عن أي عمل ليعيشوا في ظروف أفضل.

---

(1) للمزيد حول سياسة زوغو المذكورة، انظر عرضنا: «مصطفى أتاتورك وألبانيا» لكتاب المؤرخ الألباني كوبي كيتشيكو في كتابنا: دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، تونس، 1995، ص147-149.

(2) يرى كراسنيشي، الذي نشر دراسته عن «الموالد في الأدب الألباني» عام 1991 أن «مولد» الحافظ إسلام لم يحظ بانتشار واسع في كوسوفا:

Krasniqi, Mevludetnë Letersinë Shqipe, p. 26.

وكما يعترف الحافظ إسلام في ملاحظاته، فقد تعلم من والده جلال الدين مهنة النجارة والبناء، كما تعلم في دمشق مهنة تصليح الساعات (التي كانت مهنة بعض الشيوخ)، واشتغل فترة لدى الشيخ أبي رمزي قرب جامع الأقصاب، إلا أنه يعترف بأنه لم يتمكن من هذه المهنة «بشكل جيد». وبسبب هذه الحالة و«ما لاقاه من مصائب الدهر» حتى اشتعل رأسه شيباً قبل أن يبلغ سن الشيخوخة -كما يقول في ملاحظاته- فقد أخذ المرض يتمكّن منه. ويبدو أن هذه الحالة؛ الحرص على العمل والكسب الشريف، قد أثرت عليه؛ إذ يكتب لأولاده وأحفاده: «إنني لم أترك مالاً لذريتي، ولهذا ينبغي ألا يلوموني لأنني وُجدت في زمن لم أحصل فيه إلا على المال الحلال ولم أقبل المال الحرام».

وفي هذه الحالة ازداد المرض عليه حتى توفي في 25 نيسان 1929، ودفن في مقبرة الدحداح المجاورة لمحلة الذهبية. ومما يجدر ذكره هنا أن زوجته قامت ببيع «عدة أكياس» من كتبه للشيخ حمدي بختيار (المهاجر من تيتوفا آنذاك)؛ لكي تشتري بثمنها قطعة أرض في المحلة الجديدة (الديوانية) التي انتقل إليها المهاجرون الأرناؤوط، وتبني (بمساعدة الآخرين) البيت الذي نشأ فيه أولاده (عبد الغني وإبراهيم وحقي وعبد الوهاب)، وهو البيت الذي لا يزال يعيش فيه الابن الأصغر عبد الوهاب والحفيد زهير.

بالاستناد إلى ملاحظاته يبدو أن الحافظ إسلام كان محافظاً على ألبانيته، فهو يذكر باعتزاز أهل قريته «نقوفجة» الذين «حافظوا على أوطانهم»، ويعدد محلاتهم الأربع، كما يذكر القبائل الألبانية الاثنتي عشرة لينتهي إلى القول بأنه من عشيرة «غاش» المعروفة، ويشدد على أنه كان «غيوراً يضحي من أجل راحة بني جنسه». ولا ينسى أن يوصي في ملاحظاته الألبان من حوله في سورية بـ«إن أقاربنا الآن يخضعون لحكم الصرب وينبغي ألا ينسوهم، وإن لم يتمكنوا من زيارتهم فيجب ألا يتأخروا في مراسلتهم»، وينتهي إلى القول: «الحمد لله أن الإسلام ديني.. والألبانية جنسي». وحين يتحدث عن اللغات التي يعرفها فإنه يذكر الألبانية والعربية والتركية بالإضافة إلى الفارسية «التي يفهمها».

وفي ما يتعلق بنتاجه، فمن المؤكد أن ثقافته كانت تساعده على الكتابة بالعربية والألبانية والتركية. لكن بيع المخطوطات والكتب التي كانت له بعد وفاته يجعل من الصعب أن نعرف ما الذي كتبه، إذ لم يصل لنا سوى مجموعة شعرية مؤلفة من 53 صفحة يرد في نهايتها أنه انتهى من تسويدها في 15 جمادى الأولى 1343هـ/ 13 كانون الأول 1924. ويبدو لنا أن الحافظ إسلام كتب قصائد هذه «المجموعة» خلال السنوات 1920-1924، على الرغم من الظروف الصعبة التي كان يعيش فيها قبل أن تسوء صحته ويموت.

ففي ملاحظاته التي خلَّفها على شجرة العائلة، يذكر أنه في العام 1340هـ/ 1921م، ألَّف قصيدة مؤثرة جداً في حب النبي بعنوان: «وفاة أفضل الموجود بلسان الأرناؤد». ويبدو أنه في ذلك الوقت كتب قصيدة «المولد» التي أرسلها إلى كوسوفا لتُنشد هناك، لكنه أضاف بعض القصائد الأخرى إلى هذه «المجموعة» التي انتهى منها عام 1343هـ/ 1924م.

وتجدر الإشارة إلى أن «المولد»، كتقليد اجتماعي، أخذ يظهر في المشرق منذ مطلع القرن الثالث عشر، إذ تكتب القصائد التي تتناول حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت تنشد في شهر المولد (ربيع الأول) وسط احتفالات/ كرنفالات، ثم أصبحت تنشد خلال السنة في مناسبات اجتماعية مختلفة (الولادة، والخطبة، والزواج، والاحتفال ببناء بيت، والوفاة... إلخ) عند الأتراك والألبان[1].

وفي ما يتعلق بالمهاجرين الألبان في دمشق، يذكر كبار السن أنهم نقلوا المولد معهم من كوسوفا، وحافظوا في دمشق على هذا التقليد الذي كان يعتمد على إنشاد «المولد» الذي ألَّفه طاهر بوبوفا. وبعبارة أخرى فإن «المولد» الجديد الذي ألَّفه الحافظ إسلام وأُرسل إلى كوسوفا، لم يحظ بالانتشار لدى الألبان في دمشق. ويبدو أن وفاة المؤلف عام 1929، في الوقت الذي كان المهاجرون الألبان فيه لا يزالون يأتون إلى دمشق، كانت من الأسباب

(1) من لقاء مع الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (ولد عام 1928 في قرية فرلا (Vrella) بكوسوفا وهاجرت أسرته إلى دمشق حوالي العام 1930) في بيته بدمشق في 1/ 8/ 2002م.

التي جعلت الألبان الجدد (الذين نقلوا معهم تقليد «المولد» من كوسوفا) يحافظون على «المولد» المفضل في موطنهم الأصلي، وبالتحديد «مولد» طاهر بوبوفا.

وإذا عدنا من جديد إلى «المجموعة» التي بقيت لنا من قصائد الحافظ إسلام، والتي تشكل بكليتها ما اصطُلح على تسميته «المولد»، وجدنا أنها تبدأ بقصيدة استهلالية بعنوان «مدح المولد» (ص2-3) تتألف من 31 بيتًا، ثم قصيدة «المولد» (ص4-14) التي تتألف من 166 بيتًا، وبعدها قصيدة «مناجاة» (ص15) التي تتألف من 10 أبيات، ثم قصيدة «معراج النبي» (ص15-25) التي تتألف من 51 بيتًا، وبعدها قصيدة أخرى بعنوان «مناجاة» (ص25-26) تتألف من 24 بيتًا، ثم القصيدة التي أشار إليها في ملاحظاته عن «وفاة المصطفى» (ص27-36) وتتألف من 119 بيتًا، وبعدها قصيدة عن «وفاة فاطمة الزهراء» (ص37-44) تتألف من 55 بيتًا، ثم قصيدة تتناول معجزات النبي (ص45-46) تتألف من 61 بيتًا، ولدينا في النهاية (ص49-53) «الدعاء» الذي يُتلى بعد إنشاد «المولد».

وفي ما يتعلق بالأبجدية العربية التي استخدمها الحافظ إسلام في كتابة ما ألّف بالألبانية، فتجدر الإشارة إلى أنه كان قد غادر موطنه عام 1912، في الوقت الذي كانت لا تزال فيه هذه الأبجدية هي الشائعة في كوسوفا -على الأقل-، على الرغم من أن التجاذب بين المثقفين الألبان كان يميل حينئذ لصالح الأبجدية اللاتينية[1]. وفي مركز كدمشق، كان من الطبيعي أن يستمر الحافظ إسلام بكتابة اللغة الألبانية بالأبجدية العربية، وهو في هذا يختلف عن الجيل الجديد من العلماء الألبان الذين نشؤوا في دمشق (ناصر الدين الألباني، وعبد القادر الأرناؤوط، وشعيب الأرناؤوط، وغيرهم) الذين استخدموا فقط اللغة العربية في التأليف.

(1) للمزيد حول هذه التجاذب انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، ص58-72.

من العثمانية إلى القومية العربية:
معروف الأرناؤوط

لدينا في السنوات الأخيرة للحكم العثماني في بلاد الشام ما يمكن أن نسمّيه نزعة التحول من العثمانية إلى العروبة أو القومية العربية لدى الجيل الجديد من المتعلمين من ذوي الأصول البلقانية، مثل معروف الأرناؤوط (1890-1949)، وجميل مردم بك (1895-1960)، وأحمد حلمي عبد الباقي (1892-1963) وغيرهم. فقد تخرّج هؤلاء الثلاثة في المدارس العثمانية التي كانت تغرس مفهوم الولاء للرابطة العثمانية المتمثلة في الدولة العثمانية، لكن آلت بهم الأمور إلى الموجة الجديدة الصاعدة (القومية العربية) التي تدعو إلى دولة عربية مستقلة. وبصرف النظر عن ظروف هذا التحول، تمثل حالة معروف الأرناؤوط حالة خاصة؛ لأنها تجلّت في الانضمام إلى الثورة العربية عام 1917، ودخوله دمشق مع الأمير فيصل عام 1918 واستقراره فيها حتى وفاته عام 1948. وقد تميّز بنتاج صحفي وأدبي كان له دوره في الترويج لهذه الفكرة أو الأيديولوجيا الجديدة التي كرّست مفهوم «دمشق قلب العروبة».

بالمقارنة مع غيره، وُلد معروف أحمد الأرناؤوط في بيروت عام 1892 لابن آغا ألباني من مدينة فلورا (Vlora) جاء مع القوات العثمانية بعد انسحاب جيش محمد علي باشا عام 1840، وتولّى مسؤولية الأمن في المدينة. وخلال دراسته وحتى انضمامه للثورة العربية عام 1917 تأثر بعدة شخصيات معروفة أخذت به ما بين العثمانية والقومية:

1. الشيخ حسين الحبال (1875-1954)، وهو فقيه ومدرس وشاعر وصحفي أسّس جريدة «أبابيل» عام 1895، التي عُرفت بموالاتها للدولة العثمانية ومناهضة التحالف الفرنسي - البريطاني للسيطرة على العالم الإسلامي، لذلك رأس وفد بيروت إلى الأستانة

للمباركة للسلطان محمد رشاد باسترداد أدرنة في العام 1913 وألقى قصيدة أمامه، بينما اعتقلته القوات الفرنسية بعد احتلالها لبيروت عام 1919 وأغلقت صحيفته[1].

2. الشيح أحمد عباس الأزهري (1853-1926)، وهو فقيه ومدرس وشاعر معروف، درّس أولا في «المدرسة الوطنية» ثم في العام 1895 أسّس «الكلية العثمانية الإسلامية» التي درس فيها معروف. ورغم ولائه للدولة العثمانية، إلا أن الأزهري اصطدم مع سياسة «جمعية الاتحاد والترقي»، مما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى إستانبول في العام 1913. ورجع بعد الحرب وأعاد فتح المدرسة بعد إسقاط كلمة «العثمانية» عنها[2].

3. يوسف حرفوش (1847-1921)، وهو معلّم ومترجم معروف، تخرّج في «مدرسة الآباء اليسوعيين» وتابع تعليمه في فرنسا، وبرز في وضع نصوص مناسبة لتعليم الفرنسية مثل «الدروس الفرنسية: قواعد- تمارين- ترجمة- لغة- إعراب» (1888)، ونقل إلى التلاميذ روح الثورة الفرنسية ومبادئها والفكرة القومية[3].

4. عبد الحق حامد (1851-1937)، دبلوماسي وشاعر وكاتب مسرحي معروف في الدولة العثمانية وتركيا الجمهورية. تعرّف عليه معروف الأرناؤوط وتأثر به بعد اندلاع الحرب ودعوته للخدمة العسكرية برتبة معاون ضابط، إذ نقل أولا إلى إستانبول، ثم استقر

---

(1) مثّل الشيخ حسن الحبال بيروت مع بعثة الوفود الشامية إلى إستانبول لتهنئة السلطان محمد رشاد باسترجاع أدرنة، وألقى كلمة علماء بيروت أمام السلطان. كما كان في استقبال أنور باشا وجمال باشا خلال زيارتهما إلى بيروت عام 1916. وعند دخول جيوش الحلفاء إلى بلاد الشام في نهاية الحرب العالمية الأولى اعتُقل وقُدّم إلى قائد قوات الحلفاء الجنرال اللنبي الذي سأله: لماذا كتبت ضد الحلفاء والشريف حسين؟ فأجاب: أما الحلفاء فهم أعداء بلادي، وأما الشريف حسين فقد شقّ عصا الطاعة.

(2) يقول خير الدين الزركلي الذي عرف الأزهري عن هذه الكلية: «تخرج فيها جمهور ممن حملوا فكرة الاستقلال العربي في عهد الترك»، وهو ما ينطبق على معروف الأرناؤوط: الأعلام، ج1، ص142.

(3) تخرج في مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت ثم أكمل دراساته في فرنسا، وعاد ليعمل في كلية القديس يوسف، وفي تدريس الفرنسية لطلبة الكلية العثمانية الإسلامية التي بثَّ فيها روحا منفتحة على العصر.

في ضاحية فنار بولي على بحر مرمرة، وتعرّف هناك على عبد الحق حامد الذي ترك تأثيرا واضحا في تفكيره ونتاجه المسرحي والروائي لاحقا[1].

مع هذه الشخصيات المعروفة انطلق معروف الأرناؤوط بعد تخرّجه في الكلية في خطيّن متداخلين تحت تأثير معرفته بالعثمانية والفرنسية، فانشغل بترجمة القصص والمسرحيات وحتى الروايات للكتاب الفرنسيين المعروفين إلى العربية، وكان ينشرها مسلسلة في الصحف اللبنانية مثل: «البلاغ»، و«الإقبال»، و«الرأي العام» وغيرها. ولا شك أن انغماسه في ترجمة المسرحيات من الفرنسية مكّنه من الخوض في تأليف أول مسرحية كتبها تحت ضغط التطورات المفاجئة للحرب البلقانية التي كان لها صداها في بيروت، وصدرت عام 1913 بعنوان «العودة إلى أدرنة»، وتعبّر عن مشاعره العثمانية بالفرحة لاسترداد الجيش العثماني في هجوم مفاجئ أدرنة (العاصمة الأولى للدولة العثمانية في أوروبا) خلال الحرب البلقانية الثانية، بعد أن احتلّها البلغار خلال الحرب البلقانية الأولى[2].

لكن بعد صدور هذه المسرحية، سرعان ما اندلعت الحرب العالمية الأولى بين دول الوسط ودول الوفاق في أوروبا التي انضمت إليها الدولة العثمانية، وحشدت لها المشاعر العثمانية والإسلامية مع إعلان السلطان للجهاد ضد «أعداء الإسلام». وفي هذا السياق

---

(1) يبدو هذا التأثر واضحا حتى وقت متأخر، إذ إن عبد الحق حامد نشر عام 1917 مسرحيته «أبو عبد الله الصغير» التي كانت أول عمل يتناول هذه الشخصية في الأدب العثماني، بينما نشر مسرحيته «طارق أو فتح الأندلس» عام 1937، وهو ما نجده أيضا عند معروف الأرناؤوط الذي نشر عام 1929 مسرحيته «أبو عبد الله الصغير»، بينما نشر في العام 1941 روايته «طارق بن زياد». وقد نُشرت مؤخرا دراسة أكاديمية مقارنة حول شخصية أبي عبد الله الصغير بين المسرحيتين، وهو ما نتمناه أيضا لشخصية طارق بين زياد في العملين المذكورين:

عبد الستار الحاج حامد، أبو عبد الله الصغير في المسرحين العربي والتركي.. دراسة مقارنة بين عبد الحق حامد ومعروف الأرناؤوط، ص527-538:

Journal of Humanities and Social Sciences (FSM), No 14, Istanbul, November 2019, pp. 527-538.

(2) الرجوع إلى أدرنة، تراجيديا مؤلفة من مقدمة وأربعة فصول تمثل سقوط أدرنة في 26 آذار، وما تخلّل ذلك من الفظائع، حتى الحرب البلقانية الثالثة، واسترداد أدرنة بقيادة البطل أنور بك، بيروت، 1913.

استدعي إلى الخدمة العسكرية معروف الأرناؤوط الذي خدم فترة في إستانبول، ثم انتقل إلى فنار بولي على بحر مرمرة حيث تعرّف على الشاعر والكاتب المسرحي عبد الحق حامد. ويبدو أنه عايش أهوال الحرب هناك وتابع أخبار المنطقة العربية عبر جرائد إستانبول، وعندما علم باندلاع الثورة العربية قرّر الفرار من الجيش العثماني والالتحاق بقوات الثورة العربية في العقبة، حيث صاحب الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل الذي دخل دمشق في فجر اليوم الأول من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1918. ومع إعلان الأمير فيصل تشكيل «الحكومة العربية» في 5/ 10/ 1918 بدأ ظهور معروف الأرناؤوط في وجهه العروبي الجديد مع تأسيس الصحف الأولى المعبرّة عن روح تلك الفترة وانشغاله بالأدب المروّج للقومية العربية ونشاطه الميداني خلال الفترة 1918–1920.

في تلك الفترة العاصفة بالأحداث، سعت النخبة العروبية التي جاءت مع الأمير فيصل من الخارج إلى إنشاء مؤسسات وإصدار صحافة تروّج للفكرة القومية العربية التي كانت جديدة لمجتمع بقي حوالي 400 سنة تحت الحكم العثماني. وهكذا كان «النادي العربي» الذي كان معروف الأرناؤوط من أعضائه، من أهم هذه المؤسسات التي روّجت للعروبة واحتضنت عام 1919 اجتماعات «المؤتمر السوري» الذي عبّر عن روح جديدة لتأسيس دولة عربية مستقلة[1]. وإلى جانب ذلك قدّرت «الحكومة العربية» خبرة معروف الأرناؤوط في الصحافة، وسلّمته مطبعة الحكومة في الأيام الأولى ليُصدر مع صديقيه عثمان قاسم ورشدي ملحس جريدة «الاستقلال العربي» بتاريخ 14/ 10/ 1918، التي يعبّر اسمها عن توجّه «الحكومة العربية» الجديدة. وقد نشرت جريدة «القبلة» في مكة عرضا للعدد 119

(1) للمزيد حول «غُربة» هذه النخبة عن المحيط الدمشقي الذي حلّت فيه، واحتلالها المناصب المهمة العسكرية والمدنية في «الحكومة العربية»، وتحوّلها إلى «أغراب» في عيون المجتمع الدمشقي التقليدي، انظر كتابنا: من الحكومة إلى الدولة.. تجربة الحكومة العربية في دمشق (1918–1920)، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2020، ص43.

من هذه الجريدة، نقلت فيه المقال الافتتاحي لمعروف الأرناؤوط الموجّه إلى الملك الحسين الذي يفيض بروح العروبة الجديدة:

«*هذه الأنهر السيقة التي يسبح فوقها الحلم*

هذه الوديان الملأى بالزهور التي تعطّر الأجواء

هذه الغابات، هذه المراعي، هذه الشواطئ.. إنما هي ملك للعربي

أجل كلّ هذه الأشياء هي لنا، لأنها مخضوبة بدماء آبائنا ولأنها صينت من كل عبث وإرهاق بفضل السيوف العربية

نعم، إنّ هذه الجبال هي لنا، لأنّ ظلنا بحدّها من كل صوب وحدب

وهذه الخيول هي لنا، لأن موتانا يتفيؤون ظل أرضها الظليل

فيا أيها الشعب العربي تذكّر وأنت واقف على الشواطئ العربية الساحرة أن أجدادك قد عمّروا هذه الضواحي، وأنهم حملوا إليها الحرية والسلام

إنك -أيها العربي- تسمع في صوت الصدى البعيد جرجرة أصوات الجدود، وإنك لتشهد على الجبال بعض آثارهم. فإذا نظرت مليا إلى صورة مليكنا المحبوب أدركت هذه الأصوات وعملت على حرية وطنك الكبير»[1].

لكن لسبب ما لم تستَمر جريدة «الاستقلال العربي» سوى سنة واحدة، ربما بسبب عدم التوافق في العمل بين الثلاثة المؤسّسين، وهو ما دفع معروف الأرناؤوط إلى أن يُصدر مع صديقه سليم عبد الرحمن مجلة جديدة باسم «العلم العربي» عام 1919، وكانت أول مجلة أدبية تصدر في دمشق، واتخذت من «النادي العربي» مقرا لها[2]. وقد نشرت جريدة «القبلة» في مكة خبرا بارزا عن صدور هذه المجلة الجديدة، واستعرضت ما جاء في عددها

(1) جريدة «القبلة»، عدد 262، مكة، 4 جمادى الثانية 1337، ص2.

(2) تأسس «النادي العربي» مع إعلان تأسيس «الحكومة العربية» بدمشق في 5/ 10/ 1918 للترويج للاستقلال العربي، وتحوَّلَ إلى مقر صحف وجمعيات عاملة في هذا المجال، كما عُقدت فيه جلسات المؤتمر السوري خلال العام 1919، وقامت السلطات الفرنسية التي احتلت دمشق في 25/ 7/ 1920 باقتحامه ومصادرة ما فيه من وثائق وإغلاقه.

الأول المزيّن «بالراية العربية بألوانها الأصيلة.. وفيها صور المأمون وأبي العلاء المعري وابن جابر الكيماوي العربي، وفيها المقالات الحافلة عن العرب وتاريخهم وآدابهم»[1].

كانت النخبة العروبية المرافقة للأمير فيصل إلى دمشق، التي كان معظمها من العراق ولبنان وفلسطين، ركّزت في عملها بعد اكتشاف الواقع البعيد عما كانت تتصوّره[2] على نشر الفكرة العروبية والحشد لها، سواء عبر الصحافة الجديدة أو تسيير المظاهرات وإلقاء الخطابات في المناسبات، وحتى عرض المسرحيات في المقاهي التي تحشد مثل هذه المشاعر.

في هذا السياق برز معروف الأرناؤوط بمسرحية جديدة في بداية العام 1919 بعنوان «جمال باشا السفاح»، لتوظيفها في هذا الحشد للمشاعر العروبية عبر عرضها في المدارس والمقاهي في مدن سورية ولبنان وفلسطين مع تغطية بارزة لها في صحف تلك الفترة. وكما هو معروف في التجارب القومية للشعوب الأخرى، كان لا بدّ لأدلجةِ قومية ما من وجود بطل قومي وعدو معارض لاستثارة المشاعر القومية في الاتجاه المطلوب. ويبدو أن معروف الأرناؤوط قد نجح في ذلك نجاحا كبيرا مع هذه المسرحية التي شهدت إقبالا كبيرا حتى نهاية «المملكة العربية السورية» بعد معركة ميسلون في 24/ 7/ 1920.

وللأسف الشديد فقد ضاع نص المسرحية، لكن ذكريات بعض المشاهدين وكتابات الصحف في تلك الأيام عن عروض هذه المسرحية تساعد على التعرف على إسهام معروف الأرناؤوط في هذا المجال، سواء من الناحية التقنية أو من ناحية التأثير في حشد

---

(1) جريدة «القبلة»، عدد 262، مكة، 4 جمادى الثانية 1377، ص3.

(2) في اعتراف نادر للأمير زيد بن الحسين، الذي ناب عن أخيه الأمير فيصل في حكم سورية خلال الفترة 1918-1919، للمؤرخ الأردني سليمان الموسى، قال إن الشريف الحسين كان يعتقد «أن الروح القومية عند العرب أقوى بكثير مما تبيّن له في ما بعد.. عندما دخلنا دمشق تبيّنت لنا الحقيقة أكثر وأكثر: هذا شامي وهذا حلبي وهذا درزي وهذا بدوي، أضف إلى ذلك ادعاء البعض بأن هذا عراقي وهذا لبناني وذلك فلسطيني»، مذكرات الأمير زيد.. الحرب في الأردن 1917-1918، ط3، عمان، دار ورد، 2007، ص270.

المشاعر العروبية للمتفرجين. وربما أفضل ما لدينا عن هذه المسرحية هو ما كتبته جريدة «الكوكب» المصرية تحت عنوان «رواية النادي العربي» بمناسبة عرضها في القدس في الأسبوع الأول من عام 1919. ويلاحظ هنا أولا أن اسم المسرحية ورد: «جمال باشا الطاغية وشهداء الجنسية العربية»، أي أن مصطلح «جنسية» الموروث من العهد العثماني بقي يستخدم بمعنى «قومية». ومع ضياع النص تفيدنا «الكوكب» أن هذه المسرحية: «حوت مظالم جمال باشا وما كابده شهداء الأمة العربية في سبيل الوصول إلى غايتهم التي قضوا لأجلها، وما كان يعاني كلّ منهم من الضرب في السجون والإهانة والجلد، وتحمّل كل واحد منهم هذا العذاب بارتياح لأنه يطلب حلا لأمته قد حلّلته الأيام». ومن الناحية الفنية تكشف «الكوكب» أن المسرحية افتُتحت بفصل مستقل ظهر فيه عرّاف عربي (كان يلعب دوره الأرناؤوط) «تحوم حوله أرواح رجال العرب وتذكّر الأبناء بالواجب الكبير الوطني»، وخلال العرض «نزلت الدموع من المآقي لمّا أخذ جمال باشا يحكم على خيرة رجالنا بالموت». وبعد ختام المسرحية قام تلاميذ بإلقاء نشيد قومي يذكّر بأمجاد العرب وأمالهم[1]. ويلاحظ هنا أن افتتاح واختتام عرض المسرحية كان يختلف من مدينة إلى أخرى ويوظف لحشد المشاعر القومية. فعندما عرضت المسرحية في نابلس خلال تموز/يوليو 1919 بدعم من «النادي الوطني» في المدينة، كان أحد أعضاء النادي يبدأ قبل العرض بإلقاء خطاب «يدعو فيه المواطنين إلى الاتحاد والتعاضد، ويذكّرهم بما كان للعرب من أمجاد حتى يبذلوا جهودهم للمستقبل»، ولكن الجديد هنا أن تلاميذ المدارس كان يظهرون على المسرح بين الفصول لإنشاد قصائد وطنية[2].

كان معروف الأرناؤوط يجول في المدن مع عروض مسرحيته، ويشارك فيها أحيانا بدور العرّاف العربي الذي يظهر في مقدمة المسرحية ليخبر عن ماضي العرب ويبشر باتحادهم

(1) جريدة «الكوكب»، عدد 131، القاهرة، 11 يناير 1911، ص9.

(2) جريدة «الكوكب»، عدد149، القاهرة، 15 تموز 1919، ص10-11.

من جديد[1]، ويتردّد على المقاهي خطيبا يثير المشاعر القومية وسط الحضور، ويثيرهم ضد الوجود العسكري البريطاني- الفرنسي الذي كان يشكل تهديدا للاستقلال العربي الموعود. لذلك احتجت السلطات العسكرية البريطانية وطالبت بإبعاده، ثم قامت باعتقاله في أوائل نيسان/ أبريل 1919، وهو ما يعتبره غلفنت مؤشرا على تراجع سيطرة «الحكومة العربية» و«النادي العربي» على الشارع السياسي لصالح «اللجنة الوطنية» برئاسة الشيخ القصّاب[2]، التي لم يلعب فيها «الأغراب» (النخبة القومية التي جاءت مع الأمير فيصل) دورا مهما كما كان الأمر مع «الحكومة العربية» و«النادي العربي»[3].

بعد انهيار «المملكة العربية السورية» في تموز/ يوليو 1920، استقرّ معروف الأرناؤوط في دمشق وتزوج دمشقية من آل شيخ الأرض، وعاد ليعمل في الصحافة فأصدر في 18 شباط/ فبراير 1920 جريدة يومية أطلق عليها «فتى العرب». في هذه المرة نجح في إصدار جريدة عربية بالاسم والتوجّه والمحتوى، فكتب فيها أعلام العرب في ذلك الوقت مثل: عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمد حسين هيكل، وأحمد شوقي، وخليل مطران، وشكيب أرسلان، حتى إن اسمه أصبح مرادفا لـ«فتى العرب». وفي الحقيقة كان معروف الأرناؤوط يكتب المقال الافتتاحي الذي حقّق له شهرة خاصة بالنسبة لتبنّيه للعروبة والقضية العربية. وبقي مع ما حقّقه من شهرة أدبية لاحقا أسير سمعة «فتى العرب»، فقد كان هذا المقال الافتتاحي، كما يصفه كاتبٌ سوري معارض للجريدة: «له

(1) عادل أبو شنب، بواكير التأليف المسرحي في سورية، دمشق، 1978، ص28-29.

(2) James L.Gelvin, Divided Loyalities: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire, Berkeky-Los Angeles (University of California Press) 1998, p.75.

(3) يكشف عزة دروزة في مذكراته عن تجمّع الشوام أو أبناء العائلات الدمشقية المعروفة تحت مظلة «الحزب الوطني السوري» أن ذاك التجمع: «كان في حقيقته حزبا شاميا أو دمشقيا ضد العراقيين والفلسطينيين البارزين في عهد فيصل الذين كانوا يسمونهم أغرابا ويتذمرون من بروزهم ونشاطهم وأثرهم في العهد الفيصلي»: مذكرات محمد عزة دروزة (1887-1984)، بيروت، الغرب الإسلامي، 1993، ج1، ص383.

صداه القومي في نفوس السياسيين والأدباء معاً، لأنه كان يصوغ الأفكار السياسية والاتجاهات القومية في قوالب من الأدب رفيعة.. ومع أنه كان ينهج في سياسة الجريدة نهجاً حراً يخالف أحياناً رأي السياسيين، فقد كانوا يجمعون على إكبار أدبه لإيمانهم بإخلاصه للقضية العربية»[1].

وفي هذه الجريدة أخذ معروف الأرناؤوط ينشر لاحقا أعماله الأدبية الجديدة بشكل متسلسل قبل أن يعاود إصدارها مستقلة في كتب. ومن هذه الأعمال الأدبية الجديدة التي نُشرت أولا في «فتى العرب» رواية «سيد قريش» التي صدرت عام 1929 في ثلاثة أجزاء بـ85 فصلاً، واستحق عليها معروف أن يُعتبر «رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام»[2].

ويمكن القول هنا إن هذه الرواية أقرب إلى الملحمة، بل إنها عمل مؤدلج يستعرض الأوضاع الاجتماعية والسياسية للعرب ما قبل ظهور الإسلام، لذلك تبدو روح معروف الأرناؤوط هنا أوضح. فهو- كما بدا لنا- يحاول أن يصوغ موقفاً فكرياً في إطار رواية تاريخية. لقد كتب معروف هذه الرواية بعد أن أخذت الاتجاهات الفكرية السياسية في سورية تتبلور وتتميز أكثر فأكثر عن بعضها البعض (الوطنية السورية، والحركة الشيوعية، والقومية السورية، والقومية العربية)، ومن الطبيعي ألا يستمر معروف محايداً وسط هذا التمايز.

كان معروف، كما فهمه د. سامي الدهان، من المؤمنين بفكرة «الإمبراطورية العربية»، وكتب في الدعوة إلى هذه الفكرة مئات المقالات. لكن الآن برزت هذه الفكرة حيّة في رواياته. ففي رواية «سيد قريش» -المفروض كما يقول د. الدهان أن تكون ذات إطار ديني- كانت الفكرة القومية أغلب، و«ما رأيتُ كاتبا استطاع أن يقرّب بين وجهة نظر

(1) الموسوعة العربية الكبرى، ج1، دمشق، هيئة الموسوعة العربية، 1998، ص951.

(2) إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية في بلاد الشام، ط2، بيروت، دار المناهل، 1987، ص164.

المسلمين والمسيحيين في القومية العربية ويحبّبها إليهم، بل يجعلها عقيدة من العقائد كما فعل معروف الأرناؤوط»[1].

من الناحية الفنية تحمل الرواية خصائص الروايات الأولى التي تخلّص منها معروف الأرناؤوط في ما بعد، ألا وهي إثقال الرواية بالهوامش التي تحيل إلى المصادر التي اعتمد عليها المؤلف لكي يثبت مصداقيته. وفي الحقيقة كانت الرواية تعتمد على أحداث وشخصيات تاريخية معروفة، لكن لم ينقصها الخيال التاريخي أو استحضار بعض الأحداث التي تخدم سير الرواية، ومن ذلك زيارة امرئ القيس للقسطنطينية. وفي هذه الرواية أيضا، كما في مسرحية «جمال باشا السفاح»، يعتمد معروف الأرناؤوط على شخصية العرّاف أو المتنبئ الذي يبشر العرب بمستقبل زاهر لهم. وهكذا يجمع المؤلف الشاعرين حسان بن ثابت وأمية بن أبي الصلت في زيارة إلى دمشق وتوقفهما خلال الطريق في دير بحيرا حيث التقيا أبا سفيان بن حرب الذي «أبدى أساه إذ رأى دمشق تخضع للأجنبي وملوكها يخدمون قيصر»، وأنبأهما بظهور نبي عربي كريم يقود الأمة إلى نصر أبدي، لكن الشاعر ابن أبي الصلت يرغب في التحقق من ذلك ويذهب بنفسه إلى الراهب بحيرا الذي وجده متحيرا مما سمعه: «هل أجفلك هذا! واعجبا لكم معاشر العرب! تعيشون في الصحراء عيشة السائمة وقد ألظّ بها الفصل القائظ، بينما يغشى تلك المدن التي تركتموها وراء هذه الصحراء العارية أجنبي ينعم بالظلال الوارفة الرطبة، وبينما يحصد الأجنبي ما زرعته أيديكم في الحقول التي أسرعت في لهث نفوسكم»[2].

لقد صدرت «سيد قريش» في دمشق عام 1929، لتترك صدى قويا إلى حدّ أن مؤلفها انتخب سنة 1930 عضوا في «المجمع العلمي العربي» الذي هو إحدى ثمرات «الحكومة العربية» في عام 1919، لينتقل بذلك من عداد الصحفيين إلى عداد الأدباء المجمعيين

---

(1) سامي الدهان، الأدب العربي المعاصر في سورية 1850-1950، د2، القاهرة، دار المعارف، 1968، ص252.

(2) معروف الأرناؤوط، سيد قريش، ط3، بيروت، دار القلم، 1971، ج1، ص359 وج1، ص27.

بعدما أصدر في السنة نفسها مسرحية «أبو عبد الله الصغير»[1]، ثم ألحقها بعدة روايات: «عمر بن الخطاب» (1936)، و«طارق بن زياد» (1941)، و«فاطمة البتول» (1942)، بينما ترك روايته الأخيرة «القاهرة» دون أن يكملها ليرحل عن الدنيا عام 1948 بعد أن شهد ثمرات كفاحه في سبيل القومية العربية بانبثاق «عصبة العمل القومي» في قرنايل بلبنان عام 1933، التي فرّخت لاحقا عدة أحزاب قومية عربية في سورية[2].

(1) معروف الأرناؤوط، أبو عبد الله الصغير، آخر ملوك العرب في الأندلس، حلب، المطبعة العلمية، 1929.

(2) من المفارقات أن بعض المشاركين في تأسيس «عصبة العمل القومي» قاموا في نيسان/ أبريل 1947 بتأسيس «حزب البعث العربي»، أي قبل شهور من وفاة معروف الأرناؤوط.

الشيخ سليمان غاوجي وكتابه:

«نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين»

كان الشيخ سليمان غاوجي (توفي 1387هـ/ 1958م) من الشخصيات الألبانية البارزة التي هاجرت إلى دمشق في النصف الأول للقرن العشرين، فقد كانت له مكانة دينية وعلمية بين الألبان الذين هاجروا آنذاك إلى دمشق وتمركزوا مع الزمن في عدة أحياء على جانبي شارع بغداد الجديد (العقيبة والذهبية والديوانية... إلخ). فقد تولى الإمامة والخطابة والتدريس والتأليف، ونشر عام 1368هـ/ 1949م كتابه «**نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين**»[1]، الذي كانت له دلالته بالنسبة لتكوينه وهجرته من بلاده ألبانيا وما وجده في بلاد الشام.

ولد الشيخ سليمان غاوجي (Sulejman Gavoci) في مدينة شكودرا (Shkodra) بشمال ألبانيا، وكانت مركز الإسلام المحافظ[2] في مطلع العقد الأخير من القرن التاسع عشر. ولدينا ما يشير إلى أنه شارك مع والده الشيخ خليل غاوجي في الدفاع عن المدينة أمام حصار قوات الجبل الأسود لها خلال حرب البلقان[3].

ومن الواضح أن سليمان الفتى تعلم أولاً مبادئ العلوم الدينية برعاية والده الشيخ خليل، الذي كان إماماً ومدرساً معروفاً في المدينة، لكنه يعترف بالفضل لأستاذه العالم يوسف كلمندي (Jusuf Kelmendi) الذي: «اخترته أستاذاً ولازمتُ درسه مدة مديدة، فلما

---

(1) الشيخ سليمان بن خليل الغاوجي الألباني، نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1368هـ/ 1949م.

(2) كانت شكودرا مركزا نشطا للأقلية الكاثوليكية في شمال ألبانيا، لذلك تميزت في مقابل ذلك بنخبة مسلمة محافظة أكثر بالمقارنة مع جنوب ألبانيا.

(3) Personalitetet shqiptare të kulturës islame XIX-XX, Tiranë (Komuniteti Mysliman i Shqipërisë), 2013, p.245.

وفقني الله تعالى بإتمام العلوم العقلية والنقلية استنجزت الأستاذ المذكور بتدريس العلوم فأجازني». وبعد ذلك أخذ في التدريس ومنح الإجازات لطلبة العلم في شكودرا، إذ يقول: «بدأت بتوفيق الله تعالى بالنشر والإفادة، وحضر مجلس هذا المسكين بعض الأفاضل من بلدتنا وداوموا على الدرس إلى أن حصل لهم بتوفيق الله العقليات والنقليات، وبعد إتمام الدروس لهم طلبوا مني إجازة كما أجازني أستاذي، فأجزت لهم إجازة ملفوظة ومكتوبة في العقليات والنقليات»[1].

لكن هذه المسيرة التقليدية للشيخ سليمان وغيره من المسلمين المحافظين في شكودرا اضطربت مع البروز السريع لأحمد زوغو (Ahmet Zogu) (1895-1961) في الحياة السياسية في ألبانيا التي استقرت حدودها عام 1920، وقُبلت آنذاك في عصبة الأمم. فقد دخل أحمد زوغو «حكومة الإنقاذ الوطني» وزيراً للداخلية 1920-1921، وأصبح رئيساً للوزراء خلال 1922-1924، ورئيساً للجمهورية 1925-1928، وملكاً على ألبانيا 1928-1939[2].

فعلى الرغم من ولادته في منطقة يغلب عليها الطابع العشائري بشمال ألبانيا ونشأته في إستانبول العثمانية خلال الأعوام 1905-1910، إلا أن مشاركته في الحركة الوطنية الألبانية التي قادت إلى إعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية في عام 1912، والسنوات التي قضاها في فيينا خلال الحرب العالمية الأولى، أدّت إلى تأثره بالثقافة الغربية وطموحه للعب دور في «نقل ألبانيا من الشرق إلى الغرب». وهكذا فقد عمل على السماح لمشاركة المرأة في أول انتخابات برلمانية في ألبانيا خلال العام 1912، مما جعل ألبانيا من أوائل الدول الأوروبية في هذا المجال[3]، كما أنه مع حكومته اعتمدت ألبانيا عام 1920 بشكل

(1) الألباني، نجاة المؤمنين، ص3-4.

(2) للمزيد حول أحمد زوغو انظر مقدمتنا لمذكراته التي صدرت مؤخراً بالعربية: حسين سلماني، من مذكرات ملك ألبانيا أحمد زوغو في مصر 1946-1955، ترجمة وتقديم: محمد م. الأرناؤوط، بيروت، جداول، 2015، ص15-30.

(3) Blend fevziu, Ahmet Zogu Prisedenti që u bë mbret, Tiranë (UET), 2014, f.

نهائي الأبجدية اللاتينية للغة الألبانية التي كان المسلمون يكتبونها سابقًا بالحروف العربية[1].

وعندما تولى أحمد زوغو رئاسة الحكومة عام 1922، بدأ النهج الإصلاحي/ العلماني يتسارع مع التركيز على الفصل بين السلطنة- الخلافة والدولة القومية للألبان، وبالتحديد الدفع بتأسيس هيئة مستقلة عن شيخ الإسلام في إستانبول تُمثّل المسلمين أمام الدولة، وتُعبّر عن إسلام منفتح على الأفق الأوروبي، وهو ما تمّ في شباط 1923 مع تأسيس «الجماعة الألبانية المسلمة». وفي كلمته في المؤتمر التأسيسي قال مفتي ألبانيا الشيخ وهبي ديبرا (Vebhi Dibra) إنه: «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أننا في وسط أوروبا»، وركَّز على أن هدف المؤتمر: «التعبير عن الروح الليبرالية الإنسانية للإسلام، وذلك بتطور عصري وقومي يقوم على الإصلاح دون المسّ بأركان الدين»[2].

ولا شك أن مثل هذا الخطاب الذي يؤسس لإسلام ألباني أوروبي، أي يأخذ بعين الاعتبار التعايش الديني بين الألبان (75٪ مسلمون و25٪ كاثوليك وأرثوذكس في ذلك الحين) وحقيقة وجود ألبانيا في قلب أوروبا، أثار بعض علماء الدين المسلمين في شكودرا المحافظة، ودفع بعضهم إلى الهجرة إلى بلاد الشام على اعتبار أن ألبانيا لم تعد «دار إسلام». ومن هؤلاء كان الشيخ نوح نجاتي (Nuh Nexhati) الذي هاجر مع أولاده وعلى رأسهم محمد ناصر الدين إلى دمشق عام 1923، التي كانت قد وصلتها بعض الأسر الألبانية آنذاك، كما أن الشيخ سليمان غاوجي هاجر أيضًا مع أخيه الشيخ نوح إلى دمشق عام 1925. وبحسب مذكرات ابنه شوكت سليمان، لم يبق الشيخ في دمشق سوى ثلاثة شهور؛ لأن السلطات الفرنسية طلبت منه مغادرة ألبانيا[3]. وربما يعود السبب في ذلك إلى

(1) للمزيد حول ذلك راجع كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، الكويت، سلسلة علم المعرفة، 1983.

(2) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة – تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2007، ص47-48.

(3) انظر مذكرات ابنه شوكت غاوجي المنشورة في نهاية الكتاب.

أن بعض الشبان الألبان أخذوا يلتحقون بالثورة السورية التي كانت قد اندلعت آنذاك، وكان يُخشى من هؤلاء العلماء التحريض ضد سلطات الانتداب الفرنسي.

ومع عودته إلى ألبانيا كان أحمد زوغو قد أصبح رئيسًا للجمهورية وتحوَّلت ألبانيا إلى النظام الرئاسي الذي يمنح الرئيس سلطات كبيرة، مما سمح لزوغو باستكمال نهجه الإصلاحي في علمنة الدولة التي كانت تعني الحرية الدينية لكل الأديان والمساواة بينها والفصل التام بين الدين والدولة. وفي هذا السياق، أصدر عام 1928 القانون المدني الجديد ليشكل قطيعة تامة مع الماضي العثماني. فقد استلهم هذا القانون ما هو موجود في سويسرا وفرنسا وإيطاليا، ومنح المواطنين الألبان لأول مرة الحقوق المتساوية بصرف النظر عن الجنس والدين في الزواج والطلاق والميراث، وهو ما سمح بحرية الزواج بين أتباع الديانات المختلفة. وبناء عليه تم تسريح القضاة الشرعيين المسلمين، بعدما أصبحوا «دون عمل» بعد إصدار هذا القانون[1].

ومع تحوّل ألبانيا إلى الملكية في أيلول/ سبتمبر 1928، أصبحت للملك زوغ الأول – كما أصبح يدعى بعدما تخلى عن اسمه الأول– سلطات أوسع تسمح له بالمضي قدمًا في نهجه الإصلاحي/ العلماني. وفي هذا السياق، شجع أخواته الأميرات على الظهور بالأزياء الحديثة في المجتمع الألباني بما في ذلك ملابس السباحة على شاطئ البحر، مما كان له صداه الواسع في ألبانيا الخارجة لتوها من حكم عثماني دام حوالي 500 سنة[2]. وبعد هذا التمهيد أو التشجيع على خلع غطاء الوجه الموروث من الحكم العثماني، أصدر الملك أحمد زوغو عام 1937 القانون الذي ينص على منع ارتداء غطاء الوجه وفرض العقوبات على من يحثّون عليه[3].

(1) للمزيد حول ذلك: الإسلام في أوروبا المتغيرة، ص49.

(2) Fevziu, Ahmet Zogu, f.

(3) للمزيد حول ذلك: الإسلام في أوروبا المتغيرة، ص50–51.

ومن الواضح أن مثل هذا القانون أصبح يشمل الشيخ سليمان وأمثاله، الذين كانوا يعارضون سفور المرأة والاختلاط وغير ذلك. لذلك رأى الشيخ سليمان أنه من الأسلم له أن يهاجر من جديد إلى بلاد الشام مع أخيه الشيخ نوح، ليستقر في أواخر العام 1937 بحي الديوانية في دمشق، الذي أصبح آنذاك «حي الأرناؤوط»[1]. وبالصدفة تعرَّف آنذاك على الشيخ محمد شكري الأسطواني (1869-1955)، الذي عُين عام 1937 نائباً للمفتي العام للجمهورية، فولّاه إمامة جامع العمارة القريب من الديوانية نيابة عنه[2]. وبالإضافة إلى الوعظ في الجامع المذكور، أخذ يتردد عليه في البيت طلبة العلم من شبان الأرناؤوط مثل: عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط. ومع توسّع حي الديوانية إثر قدوم اللاجئين الفلسطينيين عام 1948، إذ أصبح الحي يُقسم إلى ديوانية جوانية تمتد من شارع بغداد وديوانية برانية تمتد نحو ساحة السبع بحرات، أصبحت الحاجة ماسة إلى جامع، فتعاون أهل الخير من آل العراقي والذريع وغيرهم لبناء جامع في الوسط بين الديوانيتين أطلق عليه «جامع الأرناؤوط»؛ لأن غالبية السكان كانت من الألبان. وانتقل للإمامة والخطابة والتدريس فيه الشيخ سليمان، وبقي يقوم بذلك حتى وفاته عام 1378هـ/ 1958م[3]. ومن الواضح، كما يبدو في كتابه الذي نتناوله هنا، أن الشيخ سليمان اشتغل أيضاً في التأليف بالعربية التي أصبح يجيدها كأبنائها.

لكن سورية كانت قد تغيرت. وهكذا بدا للشيخ سليمان، المهاجر إلى بلاد الشام للحفاظ على دينه بسبب السفور والاختلاط في بلاده، أن المجتمع السوري أيضاً لم يعد

---

(1) قبل ذلك حرص الشيخ سليمان عام 1936 على الذهاب إلى الحج عن طريق مصر ليلتقي شيخ الأزهر الشيخ محمد المراغي (1881-1945). ويسجّل ابنه الكبير شوكت في الأزهر للدراسة هناك: شوكت سليمان غاوجي، ذكرياتي، ص30-31.

(2) المصدر السابق، ص34؛ محمد مطيع الحافظ، نزار أباظة، موسوعة علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، دار الفكر، 1998، ج2، ص700.

(3) المصدر السابق. ولا تزال اللوحة المعلقة على باب الجامعة تحمل هذا الاسم (جامع الأرناؤوط) مع أن الألبان أضحوا أقلية في الحي.

ذلك الذي كان عام 1925. ففي ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بدأت حركة السفور، كما كانت تسمى آنذاك، وأصبحت النساء الآن يظهرن في المجتمع سافرات الوجه ويشاركن في النشاطات العامة[1]، وهو ما شغل الشيخ سليمان ودفعه إلى تأليف كتابه «نجاة المؤمنين بعد التشبه بالكافرين».

في كتابه هذا تبدو بوضوح شخصية الشيخ سليمان شخصية فقيه متمكّن من علمه، حنفيٍّ في مذهبه وعارف جيد بالمذاهب الأخرى، وسلفيٍّ متشددٍ في مواقفه التي يعبّر عنها في المواضيع الخمسة التي اختارها لكتابه: القبعة وأحكامها، والتبرّج، وزواج غير المسلم بالمسلمة، والتصوير، والإرث. ومن الواضح أن السلفية هنا تبرز كردة فعل على الحداثة المفاجئة في المجتمعات المسلمة، خاصة تلك التي ترتبط بسلطة جديدة تعمل على تسريع التحديث كما هو الأمر مع الزغوية والكمالية في تركيا، حيث يسيطر الخوف على الذات أمام المستجدات في النظام السياسي (ما بعد العثماني)، والمتغيرات في المجتمع التي لم تكن في الحسبان بالنسبة للفقهاء التقليديين. ويبدو هذا في مقدمة الكتاب التي تربط ما بدأ في ألبانيا ثم في تركيا مع ما برز في سورية بعد هجرة المؤلف إليها. يقول المؤلف إن: «سبب جمعنا هذه الرسالة انتشار شعار الكفرة عندنا وبلاد تركيا وغيرها من بلاد المسلمين كالقبعة المختصة بالكفرة وتبرج النساء»، و«المخلص في دينه لا يستعمل شيئًا من الأشياء التي ظهرت في زماننا مثل البرنطة، وشد الزنار، والتبرج، واجتماع النساء على الرجال في الأماكن الفسقة مثل السينامايات والمقاهي، كاشفات الرؤوس والركب، ويَعدّون هذا من المدنية الأوروبية»[2].

(1) للمزيد حول ذلك انظر: عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، 1987، ص74-75.

(2) الألباني، نجاة المؤمنين، ص6.

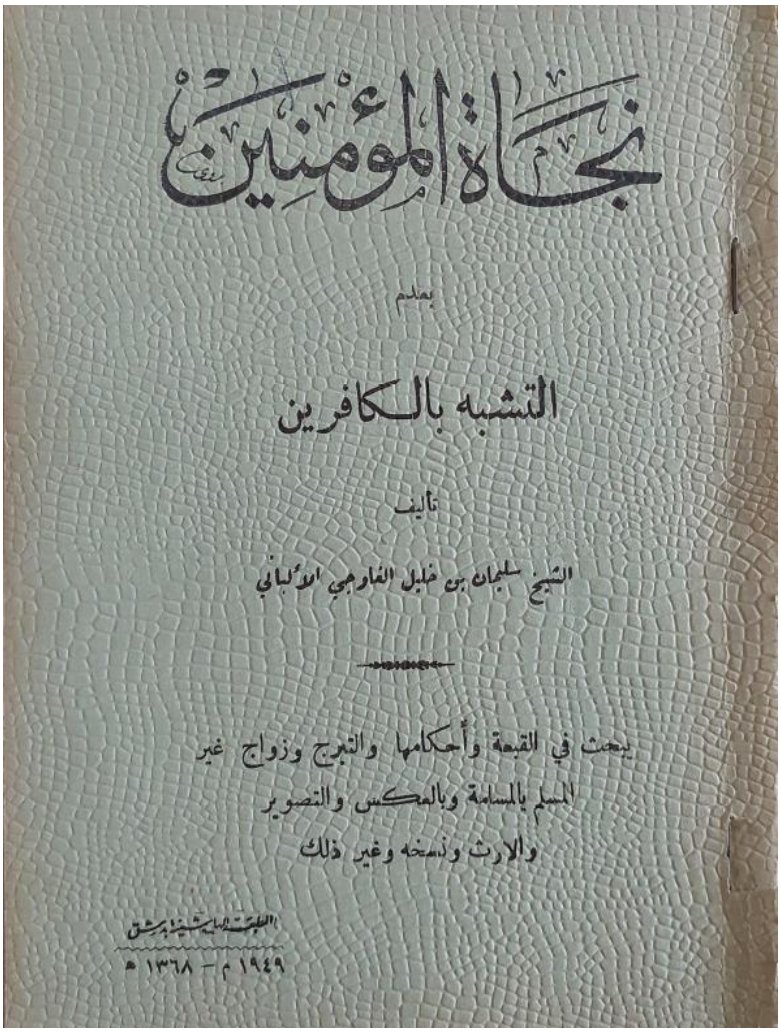

غلاف كتاب نجاة المؤمنين

ومن الواضح هنا أن الشيخ سليمان يمثل استمراراً للتراث الفقهي الذي كان يقسم العالم إلى «دار إسلام» و«دار كفر»، وبالتحديد إلى مسلمين وكافرين مختلفين في كل شيء ويجب أن يبقوا كذلك إلى قيام الساعة. لذلك آثر هو ومن يشاطره هذا التفكير «الهجرة» من ألبانيا بعدما أصبحت مع إصلاحات أحمد زوغو «دار كفر» إلى بلاد الشام باعتبارها «دار الإسلام». لكن الوضع في سورية أيضاً لم يعد كما كان يتصوره الشيخ سليمان، فوجد من واجبه أن يؤلف هذا الكتاب بالعربية.

ففي الموضوع الأول أو القبعة، الذي أثار أولاً فقهاء البوسنة بعد الاحتلال النمساوي-المجري لبلادهم عام 1878[1]، يستند الشيخ سليمان إلى بعض الأحاديث النبوية الي تؤكد على ضرورة «المخالفة» لأهل الكتاب و«عدم التشبه بالغير»، وعلى آراء الفقهاء المعروفين على المذاهب الأربعة، لينتهي إلى تكفير من يلبس القبعة (أو «البرنطة» كما يسميها) من المسلمين، سواء كان هذا استخفافاً بدينه أو ميلاً إلى دين الآخرين[2]. ويستدعي الشيخ سليمان هنا فتوى لأمين الفتوى في ألبانيا في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، يَرِد فيها أن أي امرأة يصل إلى علمها أن زوجها شوهد «وعلى رأسه برنيطة» يصبح طلاقها بائناً[3].

ومع ذلك يلاحظ هنا أن الشيخ سليمان يحاول الآن في سورية أن يربط الأمر بـ«الثقافة القومية»؛ أي في الوقت الذي برز فيه الخطاب القومي وأصبحت دمشق تعتبر «قلب

---

(1) كان رئيس العلماء جمال الدين تشاؤتشفيتش (Dž. Čaušević) قد أفتى بجواز لبس القبعة العسكرية لشبان البوسنة الذين يخدمون في الجيش النمساوي، ما أثار بعد ذلك نقاشا طويلا بين المؤيدين والمعارضين للبس القبعة والبرنيطة:

Adnan Jahić, Hikjmet – riječ tradicionalne uleme u BiH, BZK Preporod, Tuzla, 2004., str. 20.

(2) الألباني، نجاة المؤمنين، ص9.

(3) المصدر السابق، ص22.

ويضيف الشيخ سليمان هنا: «ذهب بعض جماعتنا عند المفتي السابق العام في سورية المرحوم الشيخ عطا الله أفندي الكسم وسألوه المسألة نفسها فكان جوابه مثل أمين الفتوى عندنا».

العروبة». ففي نقده لـ«التشبه بالغير» نجده ينتهي إلى أن: «الاستقلال في العادات وغيرها مما يعدّ من مميزات الأمم التي تُعرف بها، ويزيد استقلال الأمة قوة ورسوخاً في مقوماتها المالية[1] كالدين واللغة والآداب وما يسمونه الثقافة القومية»، وهو يستشهد هنا بالخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يحضّ قواده الفاتحين على «المحافظة على عادات العرب وزيها»[2]. ومن الواضح هنا أن الشيخ سليمان يخلط ما بين «الملة» بالمفهوم العثماني و«القومية» بالمفهوم الألباني أو العربي. ففي نهاية الفصل المتعلق بالقبعة أو البرنيطة يتوجه الشيخ سليمان إلى القراء بالسؤال: «من ذا الذي يا قوم لا يعدّ من السفه ترك زيّه القومي إلى زيّ قوم قد يفضي حبنا لتقليدهم إلى ذهاب قوميتنا وفناء شخصيتنا في شخصيتهم»، ثم يوضح الجواب بالقول: «القومية إنما تكون بالدين الذي جعل المؤمنين في مشارق الغرب ومغاربها إخوة.. ولهذا الدين حقوق وآداب تزول بزوال تلك الشخصية، فلا بدّ من احترامها والعمل بها حفظاً لتلك القومية»[3].

وفي الفصل الثاني المتعلق بالتبرج، تظهر سلفية الشيخ سليمان في القول بأن الحديث النبوي الذي يسمح للمرأة بالكشف فقط عن وجهها وكفيها إنما هو «محمول على المرأة التي تصلي»، أما في غير الصلاة فهو يأخذ بالحديث الآخر: «المرأة كلها عورة إلا عين واحدة»[4]. ومن هنا ينتهي إلى أن المرأة التي تُظهر «زينتها الخلقية أو المكتسبة» وهي لا تعتقد جواز ذلك فهي «مؤمنة فاسقة تجب عليها التوبة»، أما من تقوم بذلك وهي تعتقد جواز ذلك فهي «كافرة يجب عليها تجديد الإيمان والنكاح»[5]. ولا يقتصر الأمر هنا على النساء بل على الرجال أيضاً. فـ«من يقول بالسفور ورفع الحجاب وإطلاق حرية المرأة»

(1) هكذا ورد، والمقصود الملية.
(2) الألباني، نجاة المؤمنين، ص9.
(3) المصدر السابق، ص21.
(4) المصدر السابق، ص 24.
(5) المصدر السابق، ص27.

مع اعتقاده بعدم جوازه فهو «مؤمن فاسق يجب الرجوع عن قوله وإظهاره ذلك لدى العموم»، و«إن قاله معتقداً جوازه ويراه من إنصاف المرأة المهضومة فهذا يُكفَّر»[1].

أما في الفصل الثالث المتعلق بالصور، فيبدو أن الأمر يعود أيضاً إلى مسقط رأسه (شكودرا)، حيث دخل هذا الاختراع (التصوير الفوتوغرافي) مبكراً وأصبح أستوديو ماروبي (Marubi) يُجتذَب للتصوير فيه الرجال والنساء والشباب بأوضاع مختلفة مما جعله يشتهر في ألبانيا وخارجها[2]. وعندما هاجر الشيخ سليمان إلى دمشق للاستقرار فيها، كانت أستوديوهات التصوير قد أخذت تنتشر وتُعلق الصور في البيوت والمحلات. وتبدو سلفية الشيخ سليمان هنا بالعودة إلى الأحاديث النبوية التي أنذرت المصوّرين بكونهم: «أشد الناس عذاباً من الله يوم القيامة»، وينتهي إلى أن: «صنعة التصوير حرام بكل حال، وكما يُحرّم التصوير يُحرّم اتخاذ الصور... لأنها تمنع من دخول الملائكة بيتاً هي فيه»، و«لما فيها من التشبّه بالكفرة»[3]. ونظراً إلى أنه اضطر للتصور من أجل استخراج جواز سفر له لأجل الهجرة إلى سورية، فإنه يضيّق السماح بالصور إلى الحد الأدنى بالقول: «وأما استعمال الصور في الباصات (أي جوازات السفر) والهويات فلا بأس بها لأنها من الضروريات اللازمة في هذا الزمان»[4].

ويبدو تشدد الشيخ سليمان في الفصل الرابع المتعلق بالزواج بين المسلمين وغير المسلمين. فالمعروف أن الإسلام (القرآن الكريم والحديث النبوي) أجاز زواج المسلم من غير المسلمة، لكن الشيخ سليمان يوضح هنا أن القرآن الكريم أباح ذلك لمصلحة المسلمين في ذلك الوقت حين قلّ عدد الرجال بسبب الحروب، بينما الآن اختلف الأمر ولم يعد له مبرر. لذلك ينتهي إلى القول بعدم الجواز لعدم الحاجة من ناحية والخشية من

(1) المصدر السابق، ص28.

(2) أسس هذا الأستوديو بيتر ماروبي (1832-1903) واستمر مع أولاده وأحفاده ليخلف ثروة من الصور تحولت إلى «متحف ماروبي» الذي افتتح عام 2016.

(3) الألباني، نجاة المؤمنين، ص41 و45.

(4) المصدر السابق، ص47.

ميل المسلمين إلى دين زوجاتهم: «أما اليوم فلا مصلحة لنا بأخذ بنات الكفرة لأن بنات المسلمين تكثّرن، كيف المسلم يترك بنت أخيه المسلم ويتزوج بنت الكافر»[1].

أما الفصل الأخير عن الإرث، أو «الوراثة» كما سمّاه، فيبدو أنه انعكاس لما حدث في ألبانيا أكثر مما هو انعكاس لما كان موجوداً في سورية عند تأليف الكتاب. فقد مرّ معنا كيف أن الملك زوغو أصدر عام 1928 القانون المدني الجديد الذي استلهم ما هو موجود في سويسرا وفرنسا وإيطاليا، ومنح المواطنين الألبان لأول مرة الحقوق المتساوية بصرف النظر عن الجنس والدين في الزواج والطلاق والميراث، وهو ما سمح بحرية الزواج بين أتباع الديانات المختلفة والمساواة في الإرث. من هنا يركز الشيخ سليمان على أن آية المواريث الواردة في سورة النساء: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» هي بإجماع الفقهاء: «محكمة غير منسوخة وأنها مثبتة لحظ الذكر والأنثى في الميراث» بالاستناد إلى مبدأ القوامة الوارد في القرآن الكريم، وينتهي إلى تكفير من يقوم بتغيير ذلك: «فليس لأحد بعد هذا أن يستظهر على هذا الدين الحنيف ويقرر نظاماً آخر للتوريث بين الذكر والأنثى غير هذا النظام المحكم، فإن سوّلت له نفسه ذلك فهو كفر صراح»[2].

(1) المصدر السابق، ص50.

(2) المصدر السابق، ص58.

بروز «السلفية الألبانية»:
الشيخ ناصر الدين الألباني

أحوال الهجرة الألبانية إلى سورية

رأينا كيف ارتبطت هجرة الألبان من موطنهم إلى سورية في حدودها الجديدة بحرب البلقان ونتائجها[1]. فقد قضت هذه الحرب التي شنّتها دول التحالف البلقاني (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان) على الدولة العثمانية، على الوجود العثماني في البلقان باستثناء جيب صغير حول إستانبول، وقسّمت الولايات العثمانية في ما بينها. وبفضل تدخل إمبراطورية النمسا والمجر تمّ التوصل في مؤتمر السفراء بلندن عام 1913 إلى اتفاقية تقضي بإنشاء دولة ألبانية مصغرّة تضم حوالي نصف الألبان، بينما توزع النصف الآخر على الحدود الجديدة لكل من صربيا والجبل الأسود واليونان[2].

وفي هذا السياق، هاجر عشرات الآلاف من الألبان من المجازر التي شملت المدنيين خلال هذه الحرب باتجاه الشرق، إلى تركيا الحالية، ومن هناك تابعت بعض الأسر الألبانية طريقها إلى سورية فوصلت إليها في نهاية الحرب العالمية الأولى، أو خلال عهد الحكومة العربية (1918-1920)[3].

---

(1) للمزيد حول هذه الحرب انظر ما صدر في ذكراها المئوية: توفيق طنوس، تاريخ الحرب البلقانية 1912-1913، بيروت، جداول، 2013.

(2) للمزيد حول ذلك انظر: محمد م. الأرناؤوط، الإسلام في أوروبا المتغيرة – تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم، ص30.

(3) من هذه أسرة حسن دوبرلوكا (H.Dobërlluka) الذي جاء مع ابنه حسين الذين حمل لقب أرناؤوط وأنجب ثلاثة من المبرزين في الحياة الثقافية السورية في القرن العشرين: المترجم عبد اللطيف أرناؤوط (1931)، والفنان التشكيلي عبد القادر أرناؤوط (1936-1992)، والشاعرة عائشة أرناؤوط (1948).

ولكن الهجرة الأوسع حصلت في العقدين الثالث والرابع للقرن العشرين بعد أن استقرت حدود دول البلقان الجديدة عقب الحرب العالمية الأولى. فقد تشكّلت في نهاية العام 1918 مملكة يوغوسلافيا التي ضمّت صربيا والجبل الأسود مع كوسوفا التي كانتا قد تقاسمتاها نتيجة لحرب البلقان، وبالتالي أصبحت تضمّ ما يقارب عدد الألبان في ألبانيا نفسها. وعلى حين أن ألبانيا كانت تعتبر الدولة القومية للألبان، حملت الدولة اليوغوسلافية في البداية (1918-1929) اسم «مملكة الصرب والكروات والسلوفيين» ومارست سياسة ترهيب لإجبار الألبان على الهجرة من موطنهم إلى تركيا لتوطين الصرب والمونتغريين مكانهم. وقد أدت هذه السياسة الحكومية إلى تهجير أكثر من مئة ألف ألباني من جنوب يوغوسلافيا إلى تركيا خلال الفترة 1918-1938، على حين أن بلغراد وقّعت عام 1938 مسودة اتفاقية مع تركيا الكمالية لتهجير حوالي 400 ألف آخرين[1]. وفي هذا السياق، فضّل بعض الألبان متابعة طريق الهجرة من تركيا إلى دمشق التي كانت تتمتع بالشهرة كونها «شام شريف» بحسب الصورة التي ارتسمت عنها خلال الحكم العثماني للمناطق الألبانية. وعلى عكس الصورة التي ارتسمت عن هؤلاء لدى بعض الدمشقيين بأنهم «هاجروا هربا من الحكم الشيوعي»، فإن الحقيقة تتمثل في أن كل هؤلاء الألبان تقريبا هاجروا إلى دمشق خلال الحكم الملكي في ألبانيا ويوغوسلافيا حتى العام 1939، بينما جاءت دمشق خلال الأعوام 1947-1949 مجموعة من المعارضين (ضباط ووزراء وملاك... إلخ) من الذين لجؤوا إلى إيطاليا بعد تسلم الحزب الشيوعي للحكم في البلدين ضمن مشروع توطين للألبان في الشرق الأوسط الذي تولاه ملك ألبانيا في المنفى أحمد زوغو، لكنه لم ينجح مما أدى إلى عودتهم باستثناء عدة أشخاص فضلوا البقاء في سورية[2].

---

(1) للمزيد حول هذا انظر: محمد م. الأرناؤوط، كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني – الصربي في القرن العشرين، القاهرة، مركز الحضارة للقرن العشرين، 1998، ص38-45

(2) من هؤلاء الضابطان الألبانيان: نشأت كولونيا وماتو مراد، والمعارضان الكوسوفيان: آدم دوشي وإسماعيل غوراني وغيرهم:

Muhamed Mufaku, Figurat shqiptare në Lindjen e mesme, Shkup (LogosA) 2021, pp.154-161.

وفي حين أن هجرة الألبان من مملكة يوغوسلافيا جاءت تحت ضغوط الترهيب المختلفة التي كان يمارسها النظام هناك، جاءت هجرة الألبان من ألبانيا إلى سورية في ظروف مختلفة تماما. فقد دخلت ألبانيا بعد اعتراف القوى الكبرى بحدودها الجديدة عام 1913 في متاهة خلال الحرب العالمية الأولى، ولم تستعد حدودها وتنضم إلى عصبة الأمم إلا عام 1920. وقد برز على رأس الحكومة الألبانية في العام 1922 الضابط أحمد زوغو (1895-1961) الذي أصبح رئيسا للجمهورية عام 1925 وملكا على ألبانيا خلال الفترة 1928-1939، وهو الذي تميز برؤية مبكرة لـ «أوربة» ألبانيا لكي تنفك عن تراثها العثماني وتصبح دولة علمانية على نمط الدول الأوروبية المتقدمة[1].

وقد أثارت الإجراءات التحديثية الأولى التي اتخذها أحمد زوغو سخط بعض رجال الدين المحافظين في شمال ألبانيا، حيث كانت مدينة شكودرا (Shkodra) موطن الإسلام السني المحافظ. ووصلت إجراءات زوغو إلى حدّ اعتماد العلمانية وإلغاء المحاكم الشرعية والاكتفاء بغطاء الرأس بالنسبة للنساء عوضا عن الملاءة السوداء التي كانت تغطي الوجه كلّه. واحتجاجا على تلك الإجراءات، فضّل بعض رجال الدين من مدينة شكودرا الهجرة إلى سورية التي أصبحت معروفة للألبان بحكم وجود أقلية ألبانية هناك[2].

للمزيد عن هذا المشروع الجديد لتوطين الألبان في الشرق الأوسط انظر مذكرات شوكت غاوجي الذي كان صلة الوصل بين الملك أحمد زوغو والسلطات السورية، المنشورة في نهاية الكتاب.

(1) للمزيد حول رؤية زوغو وسياسته بتطبيق العلمانية في ألبانيا انظر: الأرناؤوط، تجربة ألبانيا في القرن العشرين، ص48-51.

(2) مقابل هذه الأقلية المعارضة لسياسة زوغو العلمانية، كانت أغلبية رجال الدين المسلمين منضوين في المؤسسة التي تمثل الإسلام والمسلمين أمام الدولة (الجماعة المسلمة الألبانية). فبعد عام من تولي زوغو لرئاسة الحكومة، عقد سنة 1923 «مؤتمر مسلمي ألبانيا»، وهو ما أثار وقتها بعض رجال الدين المحافظين في شكودرا: الأرناؤوط، تجربة ألبانيا في القرن العشرين، ص47-48.

دمشق مركزا للجالية الألبانية الجديدة

مقارنة بالألبان (الأرناؤوط) الذين استقروا في المدن الوسطى والشمالية (حلب واللاذقية وحماة وحمص) خلال حكم محمد علي باشا (1831-1840)، فقد استقر المهاجرون الجدد في دمشق. وفي البداية سكن هؤلاء في جوار مقبرة الدحداح من الجنوب والشرق ما بين حي العمارة والقزازين، في بيوت متواضعة بالأجرة، إلى أن قاموا بالانتقال إلى منطقة الديوانية التي تواجه مقبرة الدحداح من ناحية الشمال، ليؤسسوا هناك في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي حارة خاصة عرفت باسمهم (حارة الأرناؤوط)، يتوسطها الجامع الذي لا يزال يحمل اسمهم (جامع الأرناؤوط). وقد استقطبت هذه المحلة عددا من اللاجئين الفلسطينيين بعد نكبة 1948، ثم مجموعة من الوافدين من العمق السوري لرخص أجرة البيوت فيها وقربها من مركز العاصمة (ساحة السبع بحرات)، مما دفع كثيرا من الألبان إلى «الهجرة» ثانية إلى جنوب دمشق ليؤسسوا في مواجهة قرية «القدم» تجمعا خاصا بهم (حارة الأرناؤوط)، مع الجامع الذي بنوه بمبادرة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وعُرف بـ«جامع الأرناؤوط»، مع أن اسمه الرسمي «جامع عمر بن الخطاب»[1].

ومع التحديث العمراني لدمشق تفتّتت الحارة الأولى التي دخلت ضمن تنظيم «العدوي»، فتوزع الجيل الثاني من الألبان إلى أحياء عديدة في دمشق أو في ضواحيها

(1) في المقال الموجود عن حي «القدم» في «ويكيبيديا»، يرد أن الشيخ عبد القادر الأرناؤوط «كان أول ظهوره في حي الأرناؤوط بالقدم، حيث سعى لبناء مسجد الأرناؤوط المسمّى اليوم جامع عمر بن الخطاب»، بينما كان ظهوره الأول في جامع عمر بن الخطاب في الديوانية:
Ar.wikipedia.org/wiki/ عبدالقادر الأرناؤوط.

الجديدة (مشروع دمر... إلخ)، على حين أن الحارة الثانية اختلطت بالنازحين من الجولان عام 1967 وأصبح الألبان فيها قلَّة[1].

إسهام الألبان في المجال الثقافي والديني

على الرغم من تواضع عدد الأقلية الألبانية في سورية، إذ إن عددهم في سورية بعد استقلالها لم يتجاوز ثلاثة آلاف، إلا أن الألبان من الجيل الأول والثاني برزوا بشكل خاص في المجال الثقافي والديني، وشكلوا حالة ريادة تجاوز تأثيرها الحدود السورية.

ففي مجال الأدب برز أولا الشاعر مصطفى خلقي (1850-1916)، وابنه أكرم خلقي (1903-1973) في مجال المسرح، ثم ابنه علي خلقي (1911-1984) الذي يعتبر من رواد القصة الحديثة في سورية بمجموعته «ربيع وخريف» الصادرة في دمشق عام 1931، ثم برز معروف الأرناؤوط (1892-1948) الذي يعتبر من رواد الرواية والمسرحية في الأدب السوري الحديث[2]. وفي مجال الفن التشكيلي برز من بين الجيل الثاني علي أرناؤوط (1911-1992)، ومصطفى شعبان (1931-1992)، وعبد القادر أرناؤوط (1936-1992)[3].

---

(1) بعد الانتفاضة ضد النظام الحاكم في سورية عام 2011، خلت الحارة من الألبان تقريبا بعد أن قتلت قوات النظام ثلاثة من رجال الحارة خلال مداهمات عنيفة عام 2012 هم: بهلول الأرناؤوط ومنير الأرناؤوط وماهر الأرناؤوط.

(2) للمزيد حول هؤلاء انظر: محمد موفاكو، عودة إلى معروف الأرناؤوط، مجلة البيان، ع129، الكويت، كانون الأول 1976؛ عبد اللطيف الأرناؤوط، أعلام الأدب والثقافة الألبانية العربية، دمشق، دار الحكمة، 2011، ص69-102، و103-122، و123-136.

(3) للمزيد حول هؤلاء، انظر: محمد م. الأرناؤوط، مئوية أنور علي أرناؤوط.. لوحات من دمشق القديمة، جريدة الحياة، 1/ 3/ 2011؛ عبد اللطيف الأرناؤوط، أعلام الأدب والثقافة، مرجع سابق، ص39-54.

وفي المجال الديني يمكن الحديث عن إسهام أكبر، إذ لدينا جيلان من العلماء: الجيل الذي جاء بعلمه من موطنه واستفاد من علمه الألبان وغيرهم، والجيل الذي ولد أو نشأ في سورية واشتهر أكثر خارج سورية.

الجيل الثاني من علماء الألبان في سورية

مقارنة بالجيل الأول من العلماء الذين تحدثنا عنهم (الحافظ إسلام ونوح نجاتي وحمدي بختيار وسليمان غاوجي)، يتميز أفراد الجيل الثاني بأنهم قَدِموا إلى سورية صغار السن، أو أنهم وُلدوا هناك بعيد وصول أسرهم إلى دمشق. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان أفراد الجيل الأول ممن تفقهوا بالفقه الحنفي في موطنهم الأصلي وعُرفوا ضمن نطاق ضيق في دمشق، بينما انفتح أفراد الجيل الثاني على المذاهب الأخرى وبرعوا في علم الحديث والتحقيق وأصبحت لهم شهرة كبيرة خارج سورية، حتى إن ثلاثة منهم عُرفوا بلقب «المحدّث»:

1. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

ولد في شكودرا (Shkodra) عام 1914 وهاجر مع والده الشيخ نوح نجاتي إلى دمشق عام 1923 بسبب سخطه على السياسة العلمانية لأحمد زوغو التي تهدف إلى «تغريب» ألبانيا. استقر لاحقا في حارة الأرناؤوط بحي الديوانية. بدأ تحصيله العلمي على يد والده الذي حرص على تنشئته على الطريقة التقليدية، وعلى يد بعض أصدقاء والده في دمشق كالشيخ سعيد البرهاني. ثم حصل على إجازة في علم الحديث من علّامة حلب الشيخ راغب الصباغ. لكنه تأثر بالشيخ محمد رشيد رضا وأصبح لاحقا من مؤسسي السلفية الصاعدة في سورية، أو كما يسمّيها البعض «السلفية الألبانية» التي أصبحت دعاتها يعرفون باسم «الألبانيين»[1].

(1) للمزيد عنه انظر: محمد بن إبراهيم الشيباني، حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، الكويت، الدار السلفية، 1407هـ/ 1987م؛ سمير بن أمين الزهري، محدث العصر: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض،

2. الشيخ عبد القادر الأرناؤوط

ولد 1928 في قريـــــة فـــرلا (Vrella) بشمـــال غرب كوسوفا، وهاجر مع والده صوقول عبدولي إلى تركيا ثم إلى دمشق عام 1930، حيث سكن أولا حي الأكراد، ثم انتقل إلى حارة الأرناؤوط بعد تأسيسها. التحق بمدرسة الإسعاف الخيري الابتدائية وتابع تحصيله العلمي على شيوخ عصره، فقرأ علوم العربية والفقه على الشيخ سليمان غاوجي ثم على الشيخ صالح الفرفور وغيره من العلماء، واشتغل في التدريس أولا في مدرسة الإسعاف الخيري حتى عام 1958، ثم انتقل بعد ذلك إلى المكتب الإسلامي ليعمل مع الشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق كتب الحديث والمؤلفات السلفية. وخلال عمله في المكتب الإسلامي خلال الفترة 1958-1968، على حد قول مؤسّسه زهير الشاويش: «تأثر بالمنهج السلفي وأصبح من أكبر دعاته في سورية»[1]. وبشهادة الشاويش نفسه، فقد بدأ عمله بمساعدة الشيخ ناصر الدين الألباني في إعداد بعض مؤلفاته المعروفة مثل: «صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادة الفتح الكبير»، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة والضعيفة»، و«شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد» وغيرها، ثم تعاون مع الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق بعض الأعمال مثل: «روض الطالبين وعمدة المفتين» للنووي، إلى أن استقال من المكتب الإسلامي واستقل بعمله ليصدر «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير وغيره، ويشتغل في التدريس والفتوى حتى استحق لقب «محدث الشام» بعد وفاة الشيخ الألباني عام 1999. وقد بقي في دمشق حتى

دار المغني، 1420هـ/ 1999م؛ إبراهيم محمد العلي، محمد ناصرالدين الألباني محدث العصر وناصر السنة، دمشق، دار القلم، 1422هـ/ 2001م؛ ستيفان لاكروا، سلطة الحديث في السلفية المعاصرة.. قراءة في تأثير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ترجمة عومرية سلطاني، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، 2012م.

(1) انظر شهادته في سيرته للشيخ في: ويكيبيديا: الإخوان المسلمون – الموسوعة الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين على الرابط:

www.ikhwanwikia.com/index.php.title عبد القادر الأرناؤوط.

وفاته عام 2004 على الرغم من التضييق عليه في سنواته الأخيرة ومنعه من الخطبة في الجامع المحمدي، مما جعله يتفرغ للتدريس في منزله بحي الميدان[1].

3. الشيخ شعيب الأرناؤوط

ولد في دمشق عام 1928 لأب مهاجر من شكودرا بشمال ألبانيا، وعُرف عنه اهتمامه بالعلم منذ طفولته. اهتم أولا باللغة العربية وقرأ على الشيخ سليمان الغاوجي: «العوامل» للبركوي و«الإظهار» للأطهلي، ثم على غيره من علماء دمشق. واشتغل أولا في تدريس العربية، ثم اهتم بعلم الحديث والتحقيق وتفرغ لهما بعد التحاقه عام 1958 بالمكتب الإسلامي الذي أسّسه آنذاك محمد زهير الشاويش، حيث نشر أول أعماله التي أشهرته؛ «شرح السنة» للبغوي وغيره، ثم انتقل عام 1982 إلى مؤسسة الرسالة في عمّان ليصدر هناك أهم أعماله: «سنن الترمذي» في 16 مجلدا، و«سنن النسائي» في 12 مجلدا، و«مسند الإمام أحمد بن حنبل» في 50 مجلدا... إلخ، ليشتهر في بلاد الشام بلقب «المحدث» ويؤسس مدرسة متميزة في تحقيق التراث[2].

4. الشيخ وهبي غاوجي

ولد في شكودرا عام 1923، ونشأ في كنف والده الشيخ سليمان غاوجي الذي اهتم بتعليمه منذ صغره واصطحبه معه حين هاجر إلى دمشق عام 1937. ومن هناك أرسله والده إلى القاهرة للدراسة في الأزهر فبقي فيه إلى عام 1947 ليعود بشهادة العالمية. وقد مارس أولا الإمامة والتدريس في جامع الأرناؤوط بعد وفاة والده عام 1958، ثم في جوامع

---

(1) للمزيد عنه انظر: محمود محمد جميل الكسر، كشف اللثام عن أحد محدثي الشام: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق، دار المأمون للتراث، 2000.

(2) للمزيد عنه انظر: إبراهيم الكوفحي، المحدث شعيب الأرناؤوط: جوانب من سيرته وجهوده في تحقيق التراث، عمّان 2006؛ محمد الجوراني، رحلة فضيلة الشيخ العلامة المحدث شعيب الأرناؤوط إلى الديار الكويتية، الكويت، وزارة الأوقاف، 2010؛ إبراهيم الزئبق، المحدث العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط: سيرته في طلب العلم وجهوده في تحقيق التراث، بيروت، البشائر الإسلامية، 2012.

أخرى عديدة، وانتقل عام 1966 للتدريس الجامعي في الرياض والمدينة المنورة ودبي حتى العام 2001، ليعود بعدها إلى دمشق ليتفرغ للتأليف والتحقيق في مجال الفقه الحنفي، اشتُهر بذلك في سورية وخارجها إلى أن توفي عام 2013. وفي هذا المجال ألّف العديد من الكتب مثل: «أركان الإيمان»، و«إذا صحّ الحديث فهو مذهبي»، و«الكافي في الفقه الحنفي» وغيره. وحقّق بعض أمهات الفقه الحنفي مثل: «الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر» للقاري، و«ملتقى الأبحر» للحلبي وغيرها. وبالمقارنة مع المذكورين أعلاه فقد كان الوحيد الذي جمع بين التأليف باللغتين العربية والألبانية[1].

ناصر الدين الألباني و«السلفية الألبانية»

تأثّر محمد ناصر الدين الأرناؤوطي، كما كان يسمي نفسه أولا، ثم الألباني، بعوامل عدة ارتبطت بالبيئة التي قدم منها أو بالبيئة الجديدة التي استقرّ فيها. فقد كان والده الشيخ نوح نجاتي من معارضي التحديث الذي بدأه أحمد زوغو منذ سنة 1922 لنقل ألبانيا من الشرق (بعد أن تشرّقت نتيجة للحكم العثماني الذي استمر حوالي 500 سنة) إلى الغرب الذي تقع فيه ويجب أن تنتمي إليه بحسب رأيه. وبالفعل كان زوغو يمثل نزعة قوية لـ«التغريب» سادت في ألبانيا منذ استقلالها عن الدولة العثمانية، وتمثلت في تبني العلمانية في الدستور الأول للبلاد عام 1914. بذلك كانت ألبانيا أول دولة بغالبية مسلمة تتبنى العلمانية[2]. وفي هذا السياق، آثر الشيخ نوح نجاتي أن يهاجر مع ابنه البكر إلى «دار الإسلام» لكي يحافظ عليه في بيئة إسلامية، ولم يكن هناك أفضل من سورية أو «الشام الشريف» كما اشتهرت عند

(1) للمزيد عن حياته ومؤلفاته بالعربية والألبانية انظر: Ar.wikipedia.org/wiki/ وهبي سليمان غاوجي الألباني.

(2) ولدت ألبانيا المستقلة خلال العامين 1912-1913 ضمن منافسة أوروبية حادة، ووُضعت تحت رعاية «لجنة الرقابة الدولية» التي وضعت أول دستور لألبانيا في 10 نيسان 1914، فأرسى الأساس لكل الدساتير اللاحقة بفصل الدين عن الدولة: الأرناؤوط، تجربة ألبانيا في القرن العشرين، مرجع سابق، ص41-43.

الألبان. وقد فُهمت هذه «الهجرة» بمعناها الديني؛ أي الهجرة من «دار الكفر» (كما أصبحت تعتبر ألبانيا تحت حكم أحمد زوغو) إلى «دار الإسلام»، وأصبح الألبان يُعتبرون من «المهاجرين» في سبيل الله الذين جاؤوا إلى «الشام الشريف» للنجاة بدينهم. ومن ناحية أخرى، فقد كان العالم الأبرز في «حارة الأرناؤوط» التي حلّ فيها محمد ناصر الدين الشيخ سليمان غاوجي، الذي قام بدوره بـ«الهجرة» من ألبانيا إلى الشام في سنة 1937 احتجاجا على سياسة أحمد زوغو، والذي مثل بفكره ودروسه في دمشق رفضا لـ«التحديث» الذي عايشه في ألبانيا ووجده يظهر في سورية آنذاك ويقوم على «التشبه بالكافرين» من خلال اللباس والمؤسسات، وهو ما عبّر عنه في كتابه الذي نشره في دمشق «نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين»[1]. وسنرى لاحقا أن هذه الفكرة كانت من الأفكار المؤسسة لـ «السلفية الألبانية» التي ستبرز مع مؤسسها محمد ناصر الدين.

لكن من ناحية أخرى، فإن تردد محمد ناصر الدين إلى المكتبة الظاهرية القريبة من «حارة الأرناؤوط» جعله ينفتح على عالم أوسع، لا سيما مع اطلاعه على مجلة «المنار» لمحمد رشيد رضا الذي كان من رموز السلفية الجديدة التي برزت في مطلع القرن العشرين[2]. فقد كان الشيخ نوح نجاتي حريصا على تنشئة ابنه على المذهب الحنفي الذي كان شائعا في ألبانيا، بينما تميّز محمد ناصر الدين بنزعة مبكرة للتمرد على التقولب المذهبي وللأخذ بالاجتهاد الذي يتجاوز المذاهب الفقهية المعروفة، وهو ما كان بدوره

(1) الشيخ سليمان بن خليل الغاوجي الألباني، نجاة المؤمنين بعدم التشبه بالكافرين، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1368هـ-1949م.

(2) للمزيد حول رشيد رضا ودوره في الحركة السلفية الجديدة انظر: رائد جميل عكاشة (محرر)، محمد رشيد رضا: جهوده الإصلاحية ومنهجه العلمي، عمان، جامعة آل البيت والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2007؛ سكوت هيبارد، السياسة الدينية والدول العلمانية: مصر والهند والولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة الأمير سامح كريم، الكويت، عالم المعرفة، 2014، ص83-84.

من الأفكار المؤسسة لدعوته السلفية الجديدة كما بدت في كتابه «حجاب المرأة المسلمة» الذي خالف به السلفية الوهابية التقليدية[1].

وإضافة إلى هاتين الفكرتين، كان مدخل محمد ناصر الدين إلى دعوته الاهتمام بالحديث النبوي وانشغاله بعلم الحديث، وفرز الأحاديث الموضوعة والضعيفة عن الأحاديث الصحيحة، حتى اشتهر أولا بـ«محدث الشام» ثم بـ«محدث العصر». ومن المعروف أن السلفية بشكل عام تستند تاريخيا إلى مدرسة «أهل الحديث» التي كانت تعظّم السنة النبوية كمثل أعلى، وكان ممثلها الأشهر أحمد بن حنبل، في مواجهة مدرسة «أهل الرأي» التي أخذت بالمنهج العقلي في قراءة النص وتفسيره، ما اعتبره «أهل الحديث» انحرافا يهدد الأمة ويسقط المسلمين في «محدثات الأمور». وبذلك انتهت السلفية إلى تعريف نفسها بكونها تمثل «الإسلام الصحيح الموافق للكتاب والسنة والمتبع للسلف الصالح»[2].

وهكذا، حين كانت سورية تنتقل بعد الاستقلال إلى الدولة الوطنية والى «التحديث» المستفز لرجال الدين التقليديين مع حكم القادة العسكريين مثل: حسني الزعيم وأديب الشيشكلي على نمط أحمد زوغو في ألبانيا، بدأ محمد ناصر الدين نشاطه الدعوي عام 1954 بحلقة أسبوعية لتدريس الحديث والكشف عن الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي أدت إلى «إسلام هجين» لاعلاقة له بـ«إسلام السلف الصالح». ونظرا لعلمه وحجته فقد توسَّعت حلقته باجتذاب المزيد من المترددين إليها، وأخذت أفكاره تشتهر في سورية

(1) ناصر الدين الألباني، حجاب المرأة المسلمة، الطبعة الثامنة، بيروت، المكتب الإسلامي، 1987. وللمزيد حول ما أحدثه صدور هذا الكتاب من دربكة في الهرمية الوهابية السعودية انظر: ستيفان لاكروا، «بين الثورة واللاسياسية: ناصر الدين الألباني وتأثيره على تشكل السلفية المعاصرة»، في رول ميير (محرر)، السلفية العالمية: الحركات السلفية المعاصرة في عالم متغير، ترجمة محمد محمود التوبة، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014، ص100-101.

(2) مروان شحادة، تحولات الخطاب السلفي.. الحركات السلفية – دراسة حالة (1990-2007)، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010، ص45-46.

وتمسّ مصالح رجال الدين التقليديين والمتصوفين الذين شنّوا عليه حملة مضادة تصفه بـ«الوهابي»، ثم أخذت تصف أتباعه بـ«الألبان»[1].

وكما هو الأمر مع مصطلح «الوهابية» الذي أطلق على أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703-1792) من الآخرين، على حين أن أتباعها لا يفضّلون هذا الاسم، فإن مصطلح «الألبان» أُطلق على أتباع الشيخ ناصر الدين من باب التشنيع وليس من باب التكريم، لأنه يشار بذلك إلى مجموعة مرتبطة بشخص وتنمّ عن حالة مزروعة من الخارج وليس عن جماعة أصيلة في بلاد الشام، بينما يرى أتباعها أن المؤسس كان يقتصر على دعوته إلى الكتاب والسنة[2].

وقد احتاج الأمر إلى سنوات عديدة، بعد أن تبلورت دعوة الشيخ ناصر الدين وانتشرت خارج سورية، حتى يتضح هذا اللبس بين «الوهابية» و«الألبانية». فقد كانت السلفية الوهابية قد أخذت تنتشر في المنطقة خلال عهد الملك فيصل (1964-1975)، وتأسّست الجامعة الإسلامية في المدينة كحاضنة أكاديمية تستقبل الطلاب من العالم الإسلامي، فدعت الشيخ ناصر الدين لتدريس علم الحديث فيها خلال الفترة 1961-1963، إلا أن وجوده هناك أثار أزمة قوية كشفت عن عدم التجانس في السلفية الوهابية الموجودة في عقر دارها. فقد كان الشيخ ناصر الدين «وهابيا» بدعوته إلى الاجتهاد على نمط الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي يعني عدم التقيد بمذهب واحد، لكنه بعلم الحديث الذي كان يدرّسه ويركّز فيه على التمييز بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الموضوعة والضعيفة، كان يقدّم صورة مختلفة عن الإسلام السلفي (الوهابي) لا تنسجم مع ما هو موجود في موطن

(1) في كتاب شحادة المذكور أعلاه يرد مصطلح «الدعوة الألبانية»، ويطلق على أتباع الشيخ مصلح «الألبانيين»، مما يشي بطابع إثني للدعوة واتباعها. وهو بهذا يعتمد على الكتاب الذي صدر مؤخرا عن مركز «المسبار» في دبي، وشارك فيه عدد من الباحثين المعروفين (حسن أبو هنية وزاهد جول وغيرهم): رماح الصحائف– السلفية الألبانية وخصومها، دبي، المسبار للدراسات والأبحاث، 2008.

(2) علي بن حسين بن عبد الحميد الحلبي، مسائل علمية في الدعوة والسياسة الشرعية، الكويت، مكتبة ابن القيم، 2001، ص56.

السلفية الوهابية التي احتكر فهمها وحراستها مجموعة من العلماء ينتمون إلى أسر معينة في نجد. وهكذا ظهر الإسلام السلفي في كتاب ناصر الدين «حجاب المرأة المسلمة»، الذي اعتمد فيه على الأحاديث الصحيحة فقط وانتهى فيه إلى حق النساء بعدم تغطية الوجه كاملا، بشكل يختلف مع السلفية الوهابية التي تركز على أحاديث معينة لتحكم بوجوب تغطية الوجه. وكان من الطبيعي أن ينتهي هذا الإحراج للمؤسسة الدينية القوية الذي كان يمثله ناصر الدين بالضغط على الجامعة الإسلامية لإنهاء عمله فيها[1].

وبعد إنهاء عمله في الجامعة عام 1963 عاد إلى دمشق ليسجن هناك عام 1967، وغادرها بعد إطلاق سراحه إلى عمّان وبقي فيها حتى وفاته في العام 1999، وهي الفترة التي شهدت وصول «السلفية الألبانية» إلى ذروتها، ثم انحدارها بحكم المتغيرات في المنطقة والعالم الإسلامي.

ففي هذه الفترة برزت بوضوح أسس الدعوة التي تركز على **التوحيد والاتباع والتزكية،** التي تهدف بمجموعها إلى تخليص الإسلام من الشوائب التي تراكمت عليه؛ نتيجة لانتشار الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وصولا إلى المجتمع الإسلامي ثم إلى الحكم الإسلامي.

ويأتي **التوحيد** في المرتبة الأولى، وهي تلتقي هنا مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مع أن أتباع الشيخ ناصر الدين يرون أنفسهم الفئة الوحيدة التي تركز على أصول التوحيد وقضاياه الكبيرة التي لا يجوز الإخلال بأي واحدة منها، ويصفون غيرهم بالجهل في فهم حقيقة التوحيد[2]. أما **الاتِّباع** فيُقصد به إفراد النبي بالاتباع تحقيقا لقوله «أشهد أن محمدا رسول الله»، وأن هذه الشهادة لا تكتمل إلا بالإيمان بأنه مبلّغ من الله بوحيين (الكتاب والسنة). ويرتبط بهذا الأساس الثاني دعوة الشيخ ناصر الدين إلى التمسك بالاتباع

---

(1) ستيفان لاكروا، «بين الثورة واللاسياسية: ناصر الدين الألباني وتأثيره على تشكيل السلفية المعاصرة»، فيمبير، السلفية العالمية، مرجع سبق ذكره، ص100-101.

(2) مروان شحادة، تحولات الخطاب السلفي، مرجع سبق ذكره، ص53.

وترك الابتداع، على اعتبار أن الخلل في الإسلام بدأ مع «أهل الرأي»، وأن الحل يبدأ مع اتباع «أهل الحديث» في مسائل الاعتقاد والسلوك. ومن هنا جاء موقف الشيخ ناصر الدين بعدم الالتزام بمذهب معيّن، بل بإيراد «ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم، كما هو مذهب المحدثين قديما وحديثا»، باعتباره «الطريق الأقوم الذي أمر به الله تعالى به المؤمنين، وبيّنه محمد سيد المرسلين، وهو الذي سلكه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم»[1]. وأما **التزكية** فتعتبرها الدعوة من المهمات التي من أجلها بُعث الرسول، بل هي غاية الرسالة وثمرتها، ويُقصد بها تطهير النفوس وتنقيتها من القبائح لتحقيق مجتمع العدل والإحسان، وهي تميّز الإسلام الحقيقي الذي يستحق معه المسلم الجنة باعتباره امتثالا حقيقيا لكلام الله وليس مجرد امتثال ظاهري[2].

لكن هذه الأسس الثلاثة لا تمثل كل الدعوة، بل تمهد بطبيعة الحال لتغيير المجتمع من مجتمع مسلم تشوبه البدع إلى مجتمع إسلامي يمهّد لحكم الله. ويقوم منهج التغيير على **التصفية** و**التربية** اللتين تميزان السلفية الألبانية. أما **التصفية** فيُقصد بها الكشف عن البدع التي لحقت بالإسلام وملاحقتها وتطهير المجتمع من أضرارها، انطلاقا من أن «نقض البدع المتراكمة عن الإسلام قد أصبح ضرورة لا مناص منها ولا غنى عنها لحياطته ولهداية الناس به». وبذلك يتحقق «الإصلاح» في المجتمع بمفهوم الألباني لأنه كما يقول: «أي إصلاح يجب أن يقوم به الدعاة إلى الإسلام والناشدون لإقامة دولة الإسلام بإخلاص... وذلك لا سبيل له إلا بدراسة الكتاب والسنة»[3]. وأما **التربية** فيوضحها الألباني بقوله: «يجب على أهل العلم أن يتولوا تربية النشء المسلم الجديد في ضوء ما ثبت في

(1) مروان شحادة، السلفية الألبانية: قراءة نقدية، في رماح الصحائف، مرجع سبق ذكره، ص122-123.
(2) المرجع السابق، ص123.
(3) محمد ناصر الدين الألباني، التصفية والتربية وحاجة المسلمين إليها، عمان، المكتبة الإسلامية، 2000، ص30-31.

الكتاب والسنة... وهذه التربية هي التي ستثمر لنا المجتمع الإسلامي الصافي، وبالتالي تقيم لنا دولة الإسلام»[1].

ومن الواضح هنا أن الهدف النهائي لـ«السلفية الألبانية» إقامة **«دولة الإسلام»**، لكن هذا لا يتم بوسطة العمل الحركي أو الجماعي أو الموجّه ضد نظام الحكم، بل إن هذه السلفية تتحاشى أو تسكت عن أي موقف صدامي للنظام القائم الذي قد يمثل «نظام الطاغوت». فخلال وجود الألباني في عمّان، كان الأردن قد شهد عام 1989 ما سُمّي «التحول إلى الديموقراطية» الذي شمل السماح بالأحزاب السياسية وعودة الحياة البرلمانية التي انخرطت فيها جماعة الإخوان المسلمين بعد أن تغير رأيها في الديموقراطية وممارستها[2]. ومع أن الألباني بقي على رأيه بالنسبة إلى الديموقراطية والانتخابات البرلمانية التي يعتبرها «مناقضة للشريعة الإسلامية والعقيدة لأنها -بحسب رأيه- نظام طاغوت وقد أُمرنا أن نكفر بالطاغوت، فالديموقراطية والإسلام نقيضان لا يجتمعان»، ولأنها «طريقة غربية من صنع اليهود والنصارى ولا يجوز لنا شرعا التشبّه بهم»، لذلك فقد حرّم المشاركة في الانتخابات البرلمانية التي تفضي إلى إرساء الديموقراطية[3]، إلا أنه لم يحرّض أتباعه على النظام الموجود، ولم يشجعهم على ممارسة السياسة بهذا المعنى، بل كان يقول لهم دوما: «من السياسة ترك السياسة»[4].

---

(1) المرجع السابق، ص77-78.

وحول نقد هذا المفهوم انظر: محمد أبو رمان، «نقد التصفية والتربية عند الألباني» في رماح الصحائف، مرجع سبق ذكره، ص81-86.

(2) مروان شحادة، تحولات الخطاب السلفي، مرجع سبق ذكره، ص53.

(3) محمد ناصر الدين الألباني، صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، الرياض، مكتبة المعارف، 1991، ص43-45.

(4) أبو عبيدة مشهور حسن آل سلمان، السياسة التي يريدها السلفيون، عمّان، الدار الأثرية، 2004، ص33.

وفي هذا السياق، ركزت «السلفية الألبانية» بعد وفاة مؤسسها على نشر الوعي بالحديث الصحيح والالتزام به، ونشر مؤلفات الشيخ الألباني وفتاواه التي تولاها «مركز الإمام الألباني للدراسات العلمية والمنهجية» في عمّان، والانشغال بتحقيق المؤلفات السلفية ونشرها حتى كادت «السلفية الألبانية» تتحول إلى «سلفية علمية». لكن هذه الذروة التي وصلتها «السلفية الألبانية» كانت تؤشر أيضا إلى بداية تراجع في استقطابها للمزيد من أتباع السلفية نظرا للمتغيرات الإقليمية والعالمية. ففي الوقت الذي كان فيه الألباني يسكت تماما عن الأنظمة القائمة، بدأت حركات الإسلام السياسي والجهادي تتحرك في المنطقة وتنتقد الشيخ الألباني على موقفه هذا، حتى إن أيمن الظواهري خصّه برسالة «الرد على شبهة خطيرة للشيخ الألباني بشأن السكوت عن الحكام المرتدين»، واستقطبت هذه الحركات الكثير من الشباب الساخط المتمرد والباحث عن التغيير تحت شعارات الجهاد وحكم الإسلام... إلخ.

إسهام ثلاثة ألبان من ثلاثة أجيال
في الفن السوري الحديث والمعاصر

رأينا كيف أن الجيل الأول من المهاجرين الألبان إلى دمشق كان متنوّعا بخلفيّته الاجتماعية والثقافية، إذ ساد من بينهم القادمون من الريف الكوسوفي الذين غلبت عليهم الأمية، باعتبار أن النظام اليوغوسلافي لم يعتبر الألبان أقلية قومية (مثل الألمان) لهم الحق في التعلّم بلغتهم كما تنصّ على ذلك معاهدة سان جرمان 1919، وإنما اعتبرهم جزءا من «الأقلية المسلمة»، وترك لهم المدارس الموجودة من العهد التركي، لذلك لم يحظوا بتعليم لا في مدارس ألبانية ولا في مدارس صربية. أما الأقلية المتعلّمة فقد كانت قد تخرّجت في المدارس العثمانية في كوسوفا وحصّلت ثقافة دينية وأدبية بالمعنى السائد هناك، كما هو الأمر مع الحافظ إسلام والشيخ حمدي بختيار. لكن وُجد أيضا في دمشق وضواحيها ألبان خدموا في الجيش العثماني، وبقوا في دمشق حيث برز أولادهم في الحياة المدنية بجوانبها الثقافية. وهكذا لدينا جيل جديد ممّن تشرّب العربية، وكانت له إسهامات ريادية في الشعر والقصة والرواية والصحافة والدراما الإذاعية والمسرح والسينما، مثل: مصطفى خلقي (1851-1916)، ومعروف الأرناؤوط (1890-1949)، وعلى خلقي (1911-1984)، وأنور الأرناؤوط (1911-1992)، وعلي الأرناؤوط (1924-1997)، وعبد القادر الأرناؤوط (1936-1992)، وغيرهم. وفي هذا السياق نود أن نتوقف هنا عند إسهام ثلاثة فنانين من ثلاثة أجيال في الفن السوري الحديث والمعاصر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ معظم الجيل الأول من المهاجرين كان قد استقرّ في الأحياء القديمة شمال دمشق، وبالتحديد في حيّ العمارة البرّانية الذي امتد خارج السور خلال العهدين المملوكي والعثماني، وصولاً إلى مقبرة الدحداح، والذي يحتضن الجوامع والمدارس القديمة في دمشق. ومع أنه بعد سنوات؛ أي في 1933، تجاوَز الجيل الأول

شارع بغداد الجديد (الذي شقّه الفرنسيون عام 1925 ليربط باب توما بساحة سبع بحرات)، ليقيموا في البساتين الممتدّة نواةَ حيٍّ مع جامع يحمل اسمهم إلى الآن (جامع الأرناؤوط)، إلّا أن الجيل الثاني الذي نشأ في جوار المنشآت التاريخية لدمشق بقي متعلّقا بها عِلْمًا (المدارس القديمة والمكتبة الظاهرية) وفنّيًا باستلهام تلك المنشآت في الرسم.

وفي ما يتعلّق بالفن السوري الحديث، تُربَط عادة بداياته بالمهندس والرسام المخضرم توفيق طارق (1875–1940) الذي درس الهندسة في باريس، وتأثر هناك كما يبدو بالفن الاستشراقي، فقد اشتهر بعد عودته إلى دمشق عام 1901 وافتتاح مرسمه الخاص، بوصفه رساما ارتبطت باسمه بداية الحركة الفنية الحديثة في دمشق وسورية. وقد تزامن مع ذلك تأسيس «المعهد الفرنسي للآثار والفنون» في دمشق عام 1922، الذي اتخذ من قصر العظم مقرا له، وقدِم إليه عدد من الفنانين الفرنسيين الذين أنجزوا العديد من اللوحات عن الطبيعية الدمشقية والحارات الشامية والمنشآت التاريخية. وقد تشجع توفيق طارق فأسّس عام 1930 «نادي الفنون الجميلة» في سوق ساروجة الغني بالحارات والمنشآت التاريخية، وأخذ يتردد عليه هواة الفن الحديث الذين أسّسوا لثقافة جديدة في المجتمع الدمشقي المنفتح؛ هي اقتناء اللوحات لتعليقها على الجدران[1].

أنور الأرناؤوط

كان الشاب أنور الأرناؤوط، الذي يسكن قرب «نادي الفنون الجميلة»، من المتردّدين على هذا النادي الذي أصبح يضم الجيل الأول من الرواد مثل: عبد الوهاب أبو السعود (1897–1951)، وميشيل كرشة (1900–1973)، اللذين درسا أيضا الفن في باريس، كما أصبح يرافق توفيق طارق في جولاته على الأماكن التي يستوحي منها لوحاته. وكان

(1) ليلى حماد، تاريخ تأسيس الجمعيات الفنية بدمشق في القرن العشرين منذ بداية ظهورها وحتى انعقاد المؤتمر العربي الأول للفنون الجميلة بدمشق عام 1971، منشور في موقع «مؤسسة أتاسي للفنون والثقافة»، تاريخ الدخول 24/ 2/ 2022.

أنور الأرناؤوط قد بدأت موهبته تلفت أساتذته في المدرسة الثانوية، كما أن والده الجنرال المتقاعد محمد علي باشا (1850-1945) كان له دور في تشجيعه وتوجيهه، بالإضافة إلى أستاذه بريتي وورولا معلّم الفن في المدرسة الإيطالية بدمشق[1].

انجذب أنور الأرناؤوط في لوحاته إلى البيئة المحلية التي عاش فيها، بما فيها من طبيعة ومنشآت تاريخية مع التركيز على الضوء، وكانت تحمل تأثره بالجيل المؤسس لـ«نادي الفنون الجميلة»، وتمكّن وهو في العشرين من أن يشارك في معرض «نادي يقظة المرأة الشامية» الذي أقيم في حزيران 1931، كما شارك بثقة في معرض «معهد اللاييك» بدمشق الذي أقيم عام 1944. وقد انضمّ بعد الجلاء الفرنسي للعمل في مديرية الآثار، حيث أصبح يشرف بحكم وظيفته على تنظيم المعرض السنوي للفنانين السوريين في المتحف الوطني الذي بقي يقام طيلة الفترة 1950-1962. وقد حظي هذا المعرض، الذي كان يشارك فيه بلوحاته باهتمام الدولة، كما تظهر صورة تمثل افتتاح رئيس الجمهورية، شكري القوتلي، للمعرض عام 1957 بصحبة منظم المعرض أنور علي الأرناؤوط.

وبعد التغيرات السياسية التي لحقت بسورية وتفرغه للرسم، أقام علي الأرناؤوط معرضا شخصيا له في المركز الثقافي العربي بدمشق عام 1973، كما أقام له «البيت الشامي» معرضا استعاديا عام 1987، وشمل مختارات من أعماله على مدى نصف قرن. وقد أخذت لوحات أنور الأرناؤوط مكانتها في المعرض الأول من نوعه الذي أقيم في شباط/ فبراير 2008 بمناسبة اختيار دمشق عاصمة للثقافة العربية، وضم لأول مرة مختارات من الفن السوري خلال قرن من الزمن[2]. وبالإضافة إلى هذه المعارض الداخلية، شارك أنور الأرناؤوط في المعارض الفنية السورية في الخارج، وحصل على ميدالية تقديرية في

(1) المرجع السابق.

(2)نور الدين الأعثر، دمشق تحيي الذاكرة التشكيلية، جريدة «الحياة» 5/ 2/ 2008. ومن الملفت هنا أن المقالة تصدرتها لوحة الأرناؤوط «باب السلام» (1958).

موسكو، وعلى ميداليتين في بينالي الإسكندرية في عامي 1955 و1959. وقد بقي علي الأرناؤوط حاضرا في الصحافة حتى ذكراه المئوية عام 2011[1]؛ أي حتى بداية الأحداث في سورية التي أعادت ما هو فني إلى الوراء.

(1) محمد م. الأرناؤوط، مئوية أنور علي أرناؤوط، جريدة «الحياة»، 1/ 3/ 2011.

أنور علي أرناؤوط، طاحونة عربين

(من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق)

أنور علي أرناؤوط، طريق في ضواحي دمشق

(من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق)

عبد القادر أرناؤوط

وخلال تألّق أنور أرناؤوط في الخمسينيات، برز الشاعر والرسام والأكاديمي عبد القادر أرناؤوط (1936-1992)، ليمثل مدرسة فنية أضافت إلى الفن السوري ملامح خاصة تميّزه حتى اليوم.

وُلد عبد القادر أرناؤوط في الحي الذي بناه الجيل الأول من المهاجرين الألبان شمال شارع بغداد قرب «جامع الأرناؤوط» في عائلة ذات تقاليد ثقافية من الموطن الأصلي (كوسوفا)، لكن لم تسمح ظروف العائلة له بالسفر لإكمال دراسته في الخارج بعد أن أنهى المدرسة الثانوية، فاضطر إلى العمل موظفا في وزارة الثقافة. كانت ميوله الأولى تمزج بين الشعر والرسم والتصميم، فقد بدأ كتابة الشعر بالشكل التقليدي ثم تحول إلى الشعر الحديث، وأصدر عام 1976 ديوانه «رماد على أرض باردة» الذي يعبّر عن عمق فلسفي وتجربة فردية أصيلة، لكن الرسم والتصميم والتعليم الجامعي شغلته في تلك السنوات التي أصبح فيها اسما معروفا فخسِره الشعر الذي كان يمكن أن يُبدع فيه أكثر[1].

خلال عمله في وزارة الثقافة، أصبح عبد القادر أرناؤوط اسما معروفا بما فيه الكفاية ليقيم معرضه الشخصي الأول في كانون الثاني/ يناير 1961، الذي كان يعبّر عن مرحلة الوجوه المعبرة بالتجريد والواقع، بالإضافة إلى بروزه في مجال التصميم الغرافيكي بإنتاج ملصقات وأغلفة كتب غير مسبوقة جذبت الانتباه إلى الأنشطة الثقافية المختلفة. ثم جاءت الفرصة في عام 1962 حين حصل على منحة من وزارة الثقافة لدراسة الزخرفة في أكاديمية الفنون الجميلة في روما، ليتخرّج فيها عام 1967 ويعود للعمل أستاذا في كلية الفنون الجميلة بدمشق بقسم الاتصال البصري. كما أوفد خلال الفترة 1971-1972 إلى مدرسة الفنون الزخرفية في باريس، ليعود إلى دمشق بزخم جديد للعمل في المجال الفني انعكس على المرحلة الثانية في فنه؛ أي استلهام البيئة المحلية وإمكانيات الحروف العربية للتعبير عن حداثة فنية جديدة.

---

(1) تُرجمت بعض قصائد ديوانه إلى الألبانية، ثم صدرت ضمن مختارات «شعر الألبان في سورية»:

Muhamed Mufaku,Prapa natës- Poezi e shqiptarëve të Sirisë, Prishtinë (Rilindja)1980,pp.48-53.

ومع أن عبد القادر أرناؤوط استمر حتى العام 1977 «ينظم» الشعر للتندر فقط (كما في قصيدته «مجلس الكلية»)، ليثبت أن بحور الشعر العربية تحتمل التعبير عن السخرية من الواقع، إلا أنه كان قد تحول كما وصفه أسعد عرابي: «من الشعر بالكلمة إلى الشعر بالخط واللون». ويعزو عُرابي هذا التطور إلى تأثره بالفنان الألماني بول كلي (P. Klee) (1879-1940)، الذي أصبح معروفا بعد أن زار تونس خلال العامين 1914-1915، واستلهم من بيئتها المحلية تأثره بالألوان والرقش العربي، حتى إنه خصّص أطروحة دراسته العليا عنه[1]. وخلال هذه المرحلة الجديدة فرّغ أيضا موهبته الشعرية في التصميم، حتى أصبح «التصميم شعرا بصريا» على حد تعبير ياسمين نشابة طعّان التي اعتبرته في كتابها الذي صدر مؤخرا «شاعرا شغوفا ورساما ومصمّما غرافيكيا»، بل «رائد التصميم الغرافيكي في سورية». وقد يبدو هذا واردا إذا أخذنا بعين الاعتبار عطاءه الذي يشمل أكثر من 600 ملصق، وحوالي 300 غلاف كتاب، وأكثر من مئة لوحة[2].

(1) أسعد عرابي، الفنان عبد القادر أرناؤوط: من الشعر بالكلمة إلى الشعر بالخط واللون، جريدة «الحياة»، 17/ 8/ 1992.

(2) ياسمين نشابة طعان، عبد القادر طعان، عبد القادر أرناؤوط: التصميم شعرا بصريا – رائد التصميم الغرافيكي في سورية، أمستردام، منشورات خط، 2017.

عبد القادر أرناؤوط، زيت على قماش 1961

(من موقع عبد القادر أرناؤوط الذي يشرف عليه ابنه سامي أرناؤوط)

عبد القادر أرناؤوط، زيت على قماش، حوالي العام 1980

(من موقع عبد القادر أرناؤوط الذي يشرف عليه ابنه سامي أرناؤوط)

من الملصقات وأغلفة الكتب التي صمّمها عبد القادر أرناؤوط

(من موقع عبد القادر أرناؤوط الذي يشرف عليه ابنه سامي أرناؤوط)

لكن مع هذا التوهج والعطاء، اختار عبد القادر الأرناؤوط أن يملأ عينه وروحه من القمر في أوسع توهج له على مدار العام (ليلة 15 آب 1992)، ليرحل في صباح اليوم التالي وهو في قمة العطاء الفني الذي تجلى في لوحاته المقتناة والمعروضة في أمكنة عديدة والأغلفة الكثيرة التي تُذكّر دوما باسمه، ومنها تصميه الجميل لغلاف «مختارات من الشعر الألباني المعاصر» الذي صدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام 1981.

زهير جلال الدين

وعلى حين أنّ عبد القادر الأرناؤوط، استلهم من المنشآت القديمة حوله الحروف العربية ليبدع لوحات تُصوّر جماليات الحرف العربي وإمكانياته الفّنية، نجد أن الفنان الثالث، زهير جلال الدين، تابع درب علي أنور الأرناؤوط في شغفه بالمنشآت التاريخية في دمشق، مع التركيز أيضاً على المنشآت والأماكن التي لها دلالتها في الذاكرة الجماعية لأفراد الجالية الألبانية في دمشق.

وُلد زهير جلال الدين عام 1955 أيضا في الحي الذي بناه الجيل الأول من المهاجرين الألبان قرب جامع عمر بن الخطاب الذي اشتهر أكثر باسم «جامع الأرناؤوط»، وهو الجامع الذي انطلق منه الشيخ ناصر الدين الألباني ثم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط. كان جلال الدين حفيد العالم والشاعر الحافظ إسلام بريشتينا، الذي كان مدرّساً في إحدى مدارس بريشتينا العثمانية، واضطرّ للهجرة إلى دمشق كما رأينا بسبب اندلاع الحرب البلقانية وما تخلّلها من مجازر.

وعلى عكس أقرانه الذين كانوا يذهبون غرباً إلى مدرسة «الإسعاف الخيري» خلف البرلمان السوري، كان الطفل زهير يذهب جنوباً ليقطع شارع بغداد ويعبُر حيّ العقيبة وجامع التوبة المملوكي المعروف وصولاً إلى جوار الجامع الأموي، حيث كانت تقع المدرسة الخاصة «سعادة الأبناء» قبالة ضريح صلاح الدين الأيوبي. وقد تعمّق هذا الشغف بدمشق القديمة ومنشآتها عندما انتقل إلى المدرسة الإعدادية «ابن الأثير» التي

كانت في قلب حيّ ساروجة المملوكي/ العثماني الذي عُرف لاحقاً بـ«إستانبول الصغيرة»[2].

هذه الجولة اليومية بين منشآت دمشق القديمة استقرّت في ذاكرة الطفل، خاصة عندما كان يرى السيّاح الأجانب يصوّرونها أو الفنانين يقومون برسمها، وهو ما حفّز فيه الاهتمام بالرسم خلال وجوده في المدرسة الإعدادية بتوجيه من معلّم التربية الفنية، وهي المرحلة التي بدأ فيها بحفظ لوحاته الأولى. واستمرّ الاهتمام بالرسم في المدرسة الثانوية على أمل الالتحاق بكلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق. لكن الالتحاق بها كانت دونه عراقيل الأولويات غير الفنية، ولم يفده بشيء وجود الفنان عبد القادر الأرناؤوط أستاذا في الكلية[3]، لذلك اكتفى بالالتحاق بدورة فنية بعد أن فشل عدّة مرات في عبور تلك العراقيل.

ومع استمراره في الرسم، توجَّه إلى العمل في الديكور لتدبير معيشته. وعندما قام الحراك الشعبي في دمشق للمطالبة بالديموقراطية، بقي يأمل خيراً حتى العام 2015 حين لجأ إلى الأردن، ومنها في العام 2017 إلى النمسا حيث يعيش الآن متفرّغاً للرسم. وبالنظر إلى مجموعته الفنية، يُلاحَظ أنّ زهير جلال الدين حمل معه ذاكرته الفردية والجماعية عن دمشق القديمة وأبرزَها في العديد من اللوحات التي أبدعها في الأردن والنمسا.

بالمقارنة مع الفنان الرائد أنور الأرناؤوط الذي ركّز على بعض منشآت دمشق القديمة، نجد أنّ جلال الدين تابعه في ذلك في العديد من اللوحات عن الجامع الأموي وجامع التوبة اللذين قضى سنوات طفولته في جوارهما، لكنه اهتم أيضاً بالحيّ الجديد (الديوانية) الذي استقرّ فيه أفراد الجالية الألبانية منذ ثلاثينيات القرن العشرين إلى سبعينياته، حين هُدم معظمه مع شقّ «شارع الثورة» الذي دمّر قسماً من دمشق القديمة أيضاً.

---

(2) زهير جلال الدين، من ذكرياتي، أوراق مخطوطة أُرسلت لي نسخة منها. وأنتهز الفرصة هنا لأشكر الرسام زهير جلال الدين على تزويده لي بهذه النسخة المخطوطة وسماحه بنشر بعض لوحاته في هذا الكتاب.

(3) ورد في الأوراق المذكورة أن د. عبد القادر الأرناؤوط قال له عندما راجعه حول المعايير غير الفنية في القبول إنه لولا مكانته الفنية لما بقي في الكلية.

وفي هذا السياق، نجد عدّة لوحات له تستعيد صورة هذا الحيّ الذي برز فيه الشيوخ والأدباء والرسّامون، والذي لم تحفظه لنا صورة فوتوغرافية عابرة. ومن هذه اللوحات واحدة عن «جامع الأرناؤوط» في هذا الحيّ الذي ارتبط بصعود المحدّثَين ناصر الدين الألباني وعبد القادر الأرناؤوط، ومنها واحدة عن باب بيت العائلة الذي أصبح الآن يطلّ على «الحداثة العمرانية» الجديدة بعد تدمير الأزقة الأولى من الحيّ[4].

ومن ناحية أُخرى، نجد في مجموعة زهير جلال الدين لوحات تُجسّد منشآت لها مكانتها في الذاكرة الجماعية لأفراد الجالية الألبانية. ومن هذه «مستشفى الغرباء» الذي أُسّس في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1899)، وأصبح «المستشفى الوطني» في العهد الفيصلي (1918–1920). لكنّه بقي بمسمّاه الأول شائعًا لدى الألبان؛ فقد كان هذا المستشفى يقدّم خدماته مجّانًا، وهو بذلك دخل في ذاكرة كل أسرة ألبانية إلى أن تحسّنت الأحوال لدى الجيلين الثاني والثالث وانتفت الحاجة إليه.

ومن هذا النوع لدينا أيضًا لوحة لمحطّة سكّة الحجاز التي دُشّنت عام 1908. فقد نزل في هذه المحطة بعض المهاجرين الألبان الذين شُرّدوا من أوطانهم، ومنهم أخواله لطفي وشوقي جمال، واشتغل فيها أو في المشغل الفني التابع لها بعض الألبان من الجيلين الأول والثاني، لذلك استقرّت أيضًا في الذاكرة الجماعية للألبان.

(4) انظر للمزيد مقالتنا: زهير جلال الدين.. ألوان من شام شريف، جريدة «العربي الجديد»، 12/ 1/ 2021.

زهير جلال الدين، جامع الأرناؤوط، 2011.

زهير جلال الدين، بيت العائلة، 2009.

إسهام ثلاثة أجيال في الأدب السوري الحديث

بالمقارنة مع الجيل الثاني الذي وُلد ونشأ واستقرّ في دمشق، كان الجيل الأول يمثل الثقافة العثمانية السائدة التي كانت تحرص في المدارس على تعلّم العربية باعتبارها لغة الدين والعلوم الدينية، واللغة الفارسية باعتبارها لغة الأدب الراقي. وبعبارة أخرى، كان تماسه مع العربية وأدبها سابقا لقدومه إلى إستانبول أو دمشق، كما أنّ معرفته باللغات والآداب الأخرى (الفارسية والتركية والألبانية والفرنسية بشكل خاص) أسهمت في إغناء تجربته الأدبية بعد وصوله واستقراره في دمشق، في فترة انتقالية مهمة بين ما هو تقليدي وما هو حديث في الأدب السوري، وبين ما هو عثماني وما هو قومي عربي أو وطني سوري. ومن هنا يمكن القول إن إسهام الألبان في الأدب السوري الحديث الذي ترافق مع بروز الكيانيّة السورية في القرن العشرين كان بارزا بالنسبة للعدد القليل للألبان الذين جاؤوا إلى دمشق وتزايدوا فيها خلال عدة عقود. وربما يلفت النظر هنا أن إسهام الألبان كان ملفتا للنظر، سواء في الشعر الذي يعتبر «ديوان العرب»، أو في الأجناس الأدبية الجديدة التي برزت في بدايات القرن العشرين كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة في سورية بحدودها التي استقرت عليها بعد 1920.

أولا: الشعر

كان الشعر السوري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يتّسم بالجمود، وطغيان النظم على الشعر في الأغراض التقليدية كالمديح والرثاء لمن هم في السلطة السياسية والروحية، وتأريخ الوقائع وغيرها، وليس بالتعبير عن المشاعر الوجدانية للأفراد وتطلّع المجتمع إلى ما هو أفضل، أو التجديد في اللغة الشعرية على نمط ما كان قد بدأ في لبنان ومصر المجاورتين. ويكفي أن نشير هنا إلى كتاب محمد كردعلي «الرحلة الأنورية

إلى الأصقاع الحجازية والشامية» (بيروت، 1916)، الذي نُشرت فيه عشرات القصائد التي دُبّجت في مدح أنور باشا وزير الحربية العثمانية، والتي توثق الحالة التي آل إليها «الشعر» في سورية خلال السنوات الأخيرة للحكم العثماني[5].

لكن في تلك السنوات، برزت ومضات شعرية جديدة في الشكل والمضمون مع جيل جديد كان نتاجا للحراك الثقافي العثماني في الربع الأخير للقرن التاسع عشر، وهو القرن المنفتح على أفكار التجديد في الأدب وفي المضمون الذي يعبّر عن التوق إلى الحرية والدولة الدستورية والتطورات الجديدة في دمشق، مع وصول جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم وإعلان الشريف حسين «الثورة العربية» في مكة عام 1916، وصولا إلى انسحاب الجيش العثماني ودخول الأمير فيصل دمشق وإعلانه «الحكومة العربية» في 5/ 10/ 1918[6]. من هذا الجيل لدينا في دمشق مصطفى خلقي (1850-1916)، الذي تنقّل في دراسته وعمله ما بين إستانبول وبيروت قبل أن يستقر في ضواحي دمشق، وأصبحت دارته موئلا لجلسات علمية وأدبية وموسيقية.

وُلد مصطفى خلقي لقائد عسكري (عثمان نوري) جاء مع محمد علي باشا من بلدة قولة إلى مصر، ومنها جاء مع حملة إبراهيم باشا إلى سورية عام 1831، فاستقر في دمشق بعد انسحاب قواته عام 1840. وقد تابع ابنه مصطفى طريق والده، فأنهى دراسته في المدرسة الإعدادية العسكرية في دمشق، ثم المدرسة الحربية في إستانبول حيث تعلم الفرنسية وعايش التطورات الفكرية والأدبية التي ميّزت إستانبول في الربع الأخير للقرن التاسع عشر، و«صاحب أشهر شعراء الأتراك وأدباءهم»، وبدأ في التعبير في شعره عن تبرّمه

(5) الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، تأليف محمد كرد علي، بيروت، المطبعة العلمية، 1916.

والكتاب كما جاء على غلافه: «صفحات ضمّت شمل ما تفرّق من سياحة رجل العثمانيين وبطل الإسلام والمسلمين صاحب الدولة أنور باشا.. وما قيل من التنويه بأفضاله على الملّة والدولة».

(6) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: من الحكومة إلى الدولة.. تجربة الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2020.

من الأوضاع في الدولة، فـ «أخذ الناس يتداولون شعره الثوري سرا وعلنا» مما أدى إلى إبعاد السلطات له إلى بيروت مديرا للمدرسة السلطانية. لكن هناك كان يعمل الشيخ محمد عبده خلال نفيه إلى بيروت (1886-1889)، وبقي على تواصل معه بالرسائل حتى وفاته. بعدها عينته السلطات على رأس قضاء دوما المجاور في دمشق، حيث أصبحت دارته تغصّ بكبار العلماء والأدباء ومنهم العلامة الطنطاوي الكبير (والد علي الطنطاوي)، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وعلّامة الشام الشيخ سليم البيطار. وقد بقي على نشاطه حتى كفّ بصره فأصبح يملي ما يريد أن يكتبه على الدكتور سعيد عودة الدوماني إلى أن توفي. وقد جمع أحد أولاده شيئا من شعره لنشره، وعندما عرض ذلك على الشاعر خير الدين الزركلي (1893 -1976) قال له: «إنّ أباك أكبر من أن يكون هذا أثره يا بني. لقد كان شاعر الترك وأديبهم الأوحد»[7].

وهكذا بالمقارنة مع القصائد الموزونة في مدح قادة جمعية الاتحاد والترقي (أنور باشا وجمال باشا) الواردة في كتاب محمد كردعلي «الرحلة الأنورية» التي لا يربطها بالشعر سوى بحوره، نجد نقلة نوعية في الشعور والتعبير بالقصيدة الطويلة التي عبّر فيها مصطفى خلقي عن مشاعر السوريين تجاه هؤلاء:

لا تسلْ عن حال أهل الاتحادْ ... إنهم في الأرض جرثوم الفسادْ
أهملوا الدستور والشرع معا ... واستبدلوا بنفاق في البلاد
يُظهرون الزهد إلا أنهم ... نهبوا الأموال والناسُ رقاد
أتلفوا الحرث مع النسل وقد ... أهلكوا الأرض كنسل من جراد
وكذا النوّاب كُلٌّ منهم ... يبتغي النفع وإنّ ضرّ البلاد

ويلاحظ هنا أن مصطفى خلقي لا يكتفي بنقد زعامة الاتحاد والترقي بعد أن وصلت بالقوة إلى الحكم واستأثرت به وكشفت عن واقع مغاير لما كان مأمولا بعد الفرحة التي

(7) أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، دمشق، 1952، ص225.

عمّت البلاد بالعودة إلى الحكم الدستوري، بل ينتقد أيضا نواب البلاد في مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني الجديد الذين لا يهمهم ضرر البلاد طالما أنهم ينتفعون من ذلك. وفي الواقع كان مصطفى خلقي مثل كبار الأدباء العثمانيين في وقته، مثل محمد عاكف (1873-1936)، ورضا توفيق (1869-1949)، وغيرهما من الذين أيّدوا في البداية جمعية الاتحاد والترقي ثم انتقدوها وتحولوا إلى المعارضة[8].

وفي الواقع لم يحظ مصطفى خلقي كشاعر مجدّد بما يستحقه بعد الاستقلال السوري الأول (1920) والثاني (1946)، وهو ما يرتبط أيضا بعدم نشر ديوانه الذي بقي مخطوطا لدى الأولاد والأحفاد[9]. لكن مع تطور الدراسات الأدبية في النصف الثاني للقرن الماضي نجد أن مصطفى خلقي أعيد له الاعتبار في كتاب د. إسكندر لوقا: «الحركة الأدبية في دمشق 1800-1918»، الذي صدر عام 1976 بعد أن نوقش كأطروحة دكتوراة في جامعة القديس يوسف اللبنانية. ففي هذا الكتاب المرجعي عن حالة الشعر في دمشق خلال القرن الأخير للحكم العثماني، يرد مصطفى خلقي ممثلا لـ «الاتجاه التقدمي» الذي: «وُلد خارج الخط الديني كردة فعل ضد تتريك العرب»[10]. وبناء على ذلك يعتبر د. لوقا أن شعر مصطفى خلقي وغيره في «الاتجاه التقدمي» فتح الطريق لظهور الشعر الوطني في سورية خلال العشرينيات[11]. وعلى الرغم من المضمون النقدي في قصائده التي يتناول فيها الأحوال السائدة خلال حكم حزب الاتحاد والترقي، ومنها مَن يستغلون الدين لمصالحهم والنيابة في البرلمان العثماني لمنافعهم، إلا أنه يمكن تلمّس ومضة رومانسية مبكرة لديه كما

(8) انظر على سبيل المثال حالة الشاعر محمد عاكف الأقرب إلى مصطفى خلقي في مقالتنا: محمد عاكف آرصوي: مئة عام على نشيد الاستقلال، جريدة «العربي الجديد»، 5/ 2/ 2021.

(9) خلال زيارة لي إلى كاليفورنيا عام 2016 التقيت صدفة بالدكتور محمد صالح، ابن الكاتب والممثل المسرحي أكرم خلقي (1903-1973)، ففاجأني بأنه يحتفظ بنسخة مخطوطة من ديوان جدّه ووعدني بإرسال نسخة منها، لكن لم يتحقق ذلك.

(10) د. إسكندر لوقا، الحركة الأدبية في دمشق 1800-1918، دمشق، 1976، ص107-108.

(11) المرجع السابق، ص108.

في قصيدة «شمعة» و«وحدة» وغيرها التي تُرجمت إلى الألبانية عام 1980 ضمن مختارات عن شعر الألبان في سورية[12].

ومع تطور الشعر السوري الذي أصبح له موقعه في خريطة الشعر العربي الحديث في النصف الثاني للقرن العشرين مع انفتاحه على الحداثة مع نزار قباني وأدونيس وأورخان ميسر وغيرهم، لدينا 3 شعراء من الجيل الثاني ينتمون إلى أسرة واحدة في الأصل: عبد القادر أرناؤوط وعائشة أرناؤوط وبركات لطيف.

كان عبد القادر أرناؤوط (1936-1991) من أبرز الأسماء التي برزت واشتهرت خارج سورية في مجال الفن التشكيلي الذي غطى على جانب مهم في تجربته الشعرية. وكان عبد القادر من أوائل من أكملوا تعليمهم الثانوي من الجيل الثاني، لكنه اضطر بسبب ظروف العائلة إلى القبول بوظيفة في وزارة الثقافة، التي أوفدته لاحقا إلى روما وباريس لدراسة الفنون الجميلة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، حيث عاد بدكتوراة من باريس عام 1975. ولا شك أن هذه الإقامة قد وسّعت كثيرا معرفته بالتيارات الجديدة في الفن والأدب بأوروبا، وأنضجت تجربته الفنية بعد عودته إلى سورية سواء في الشعر أو في الفن، فغدا اسما معروفا خارج سورية.

وفيما يتعلق بالشعر، فقد نشأ عبد القادر في أسرة مهتمة بالشعر، إذ كان أخوه الأكبر عبد اللطيف يترجم الشعر الألباني إلى العربية، بينما كانت أخته الصغرى عائشة تبدأ مبكرة تجربتها الشعرية. وعلى حين أن عبد القادر بدأ الشعر على الطريقة التقليدية بعد أن تعلّم بحور الشعر، وحاول أن يجدّد في المضمون، إلا أن تجربته نضجت خلال إقامته ما بين روما وباريس، وعاد إلى دمشق ليصدر عام 1976 ديوانه «رماد على أرض باردة»، الذي يمثل قطيعة مع الماضي سواء بالشكل أو المضمون. فقد انتقل عبد القادر في هذا الديوان إلى الشعر الحر الذي يعتمد على لوحات مكثفة ورؤية وجودية تعبّر عن نظرته الشاملة للعالم. ففي قصائده يمسّ بعض التابوهات كما في «الله وآدم»، ويتناول اضطهاد المرأة في

(12) Muhamed Mufaku, Prapa natës- Poezi e shqiptarëve në Siri, Prishtinë (Rilindja) 1980, f.16-17.

الشرق. على حين أنه في قصائده عن الحب مثل «الحب اليوم» و«مسمار صدئ» يتجاوز ما هو تقليدي ليعبر عن حالة الحب في المجتمع المعقد، بينما نجده في قصائده الأخرى مثل «القبر» و«التابوت» وغيرهما يعبّر عمّا آل إليه الإنسان في العالم المعاصر، حيث غدت الحرية بابا مغلقا «لا يعرف ما وراءه إلا من يكون داخله سجينا»[13]. وللأسف فإنّ الأضواء التي سُلّطت على تجربته الفنية ووفاته المبكرة عام 1991 حرمت الشعر السوري من تجربة واعدة.

أمّا عائشة أرناؤوط (1946) فتمثل تجربة جديدة بالنسبة لحالة التحرر في المجتمع الدمشقي في النصف الثاني للقرن العشرين، ومشاركة المرأة في الثقافة التي تعبّر عن الحداثة الجديدة. فقد كانت عائشة تمثل أوائل الفتيات في الحارة المتحلّقة حول «جامع الأرناؤوط»، من اللواتي أكملن تعليمهن واشتغلن في الوظائف المختلفة، ما كان يُعدّ قطيعة مع الطرف الآخر السلفي الذي كان ينظر شزرا إلى تعلّم الفتاة وخروجها إلى الحياة العامة «سافرة». وفي حالة عائشة أرناؤوط، كانت الحدود لا معنى لها لكونها أصبحت تكتب وتنشر الشعر وتشارك في المنتديات قبل أن تبلغ العشرين، بينما أسهمت دراستها في قسم اللغة الفرنسية وأدبها في جامعة دمشق في تعميق تجربتها الشعرية، خاصة بعد أن انتقلت إلى باريس واستقرت فيها منذ العام 1978، حيث تابعت دراستها العليا في جامعة السوربون[14].

وعلى الرغم من إقامتها في باريس إلا أن عائشة الأرناؤوط بقيت حاضرة في خريطة الشعر السوري والعربي، إذ إن أهم دواوينها صدرت في دمشق وبيروت والقاهرة، وشاركت في العديد من الندوات الشعرية العربية من المغرب إلى الأردن. وعلى حين أن ديوانها الأول «الحريق» صدر في بيروت (دار الكلمة) عام 1981، إلا أنه تضمن في الواقع

(13) عبد القادر أرناؤوط، رماد على أرض باردة، دمشق، 1976. وقد ترجمت كل هذه القصائد إلى الألبانية: Prapa natës, Mufaku, f.48-53.

(14) هناك معطيات مختلفة وأحيانا غير دقيقة في الشبكة العنكبوتية عن حياتها وأعمالها، لكن اعتمدتُ على ما قدّمته لي المؤلفة، وانتهز هنا الفرصة لشكرها على التعاون خلال تأليف هذا الكتاب.

ما أبدعته في دمشق خلال العامين 1976-1977، بينما تضمن ديوانها الثاني «على غمد ورقة تسقط»، الذي صدر في دمشق (اتحاد الكتاب العرب) عام 1986، قصائدها التي أبدعتها في دمشق خلال الفترة 1975-1977، وصدر ديوانها الثالث «الوطن المحرم» في القاهرة (دار الفكر) عام 1987، على حين أن ديوانها الثالث «حنين العناصر» صدر في دمشق (دار كنعان) عام 2003. وإلى جانب ذلك، تحوّلت عائشة أرناؤوط إلى الكتابة بالفرنسية، وأصدرت «مشروع قصيدة» (1979) و«ماء وورد» (2000 و2003) و«مقاطع مائية» (2003)، وترجمت دواوين شعرية عديدة من العربية إلى الفرنسية لعبد اللطيف اللعبي، واتيل عدنان، وعزمي مورلي، وغيرهم. ويلاحظ في ديوانها الأول «امتداد الحريق» أنه شمل الوطن وجواره (لبنان) ليتحول إلى «الوطن المخنوق» و«المعتقل الكبير». وهي تجد نفسها فيه: «كلما فتحت أجفاني، وجدت أجفانا أخرى مغلقة تغطّيها، لذلك لا تستغربوا إن سألتكم: ما لون الشمس ومتى سينتهي الليل؟»[15]. من هنا لا يُستغرب أن يكون «الحريق» الذي شمل الوطن قد امتدّ إلى لبنان المجاور، إذ لدينا في الديوان ثلاث قصائد عميقة الدلالة عن تلّ الزعتر (إلى تلّ الزعتر، إلى فاطمة، من تلّ الزعتر إلى...). ولذلك لا يُستغرب مع اندلاع المظاهرات المطالبة بالحرية والديموقراطية في دمشق عام 2011 أن تكون عائشة أرناؤوط في باريس أيضا منخرطة في المسيرات الداعمة لذلك، وفي الأنشطة التي ترعى اللاجئين السوريين الواصلين إلى فرنسا حتى الآن.

ويمثل بركات لطيف (1935) حالة أخرى بين الألبان في الشعر السوري المعاصر. كان بركات ابن عم عبد القادر وعائشة أرناؤوط، لكن الاهتمام بالتعليم فرَّق مؤقتا بين الحالتين، إذ إن بركات ورث مهنته (سائق قطار) عن والده عبد الرحمن الذي وُلد في قرية قرب بريشتينا وهاجر مع أسرته بعد حرب البلقان إلى دمشق، ليستخدم القطار راكبا ثم سائقا حتى تقاعده. ولكن ما افتقده بركات في طفولته عّوضه في شبابه، إذ أُرسل في بداية سبعينيات القرن العشرين في عدة دورات تدريبية إلى ألمانيا الشرقية، حيث تفتحت مداركه على عالم آخر وأصيب -كما يقول- بـ«عدوى القراءة» ومال أكثر باتجاه اليسار. وهكذا

(15) عائشة أرناؤوط، الحريق، بيروت، دار الكلمة، 1981، ص80 و87.

بعد عودته إلى دمشق انغمس في القراءة الأدبية وفق توجهات اليسار، واكتشف موهبته الشعرية، وبدأ نشر قصائده الأولى في الصحف خلال العام 1976، في حين أن وزارة الثقافة نشرت له عام 1979 مجموعته الأولى «أناشيد سائق القطار»[16].

وهكذا أصبح بركات لطيف منذ مجموعته الأولى يمثل «ظاهرة»، لكونه تحول من عامل أو سائق قاطرة إلى شاعر تمكَّن بلغة شاعرية من أن يعبّر عن الموت البطيء للعامل، وليس عن سعادته كما كانت الشعارات تروّج في تلك الفترة. وضمن الحماس لهذه «الظاهرة»، كتب الشاعر رياض الصالح الحسين في استعراض لتجربة بركات لطيف يقول: «إن شعره له طبيعة مختلفة عما يُطرح في واقعنا الثقافي»، ويمثل في ذلك حلمه في أن تتحول الحياة إلى شعر، وهو ما يراه نوعا من تأثير السوريالية التي تطمح إلى أن يتحقّق الفن في الحياة بشكل عام، وحتى في الحياة اليومية[17]. ومع هذا الحماس الذي قوبلت به مجموعته الأولى، استمرّ بركات لطيف في حضوره الشعري الجديد فأصدر ديوانه الثاني «أوراق الليمون» عام 1982 الذي ترك صداه حتى كتابة هذه السطور[18].

ثانيا: المسرح

في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بدأ المسرح أو «المرسح» يأخذ مكانه في الحياة الثقافية في بيروت ودمشق. وفي ما يتعلق بدمشق، يُعتبَر أبو خليل القباني رائد المسرح السوري، فقد قدَّم منذ العام 1871 موضوعات من التراث تجذب الحضور مثل: «أنس

(16) لقاء بركات لطيف مع جريدة «تشرين»، دمشق، 26/ 8/ 1979: بركات لطيف، أناشيد سائق القطار، دمشق، وزارة الثقافة، 1979.

(17) رياض الصالح الحسين، مع شاعر يستعير من أوراق الليمون خضرتها الدائمة، جريدة «تشرين»، دمشق، 7/ 7/ 1979.

(18) عبد الرزاق دحنون، رسائل بركات لطيف الحزينة إلى الأول من أيار، جريدة «العربي الجديد»، 1/ 5/ 2019.

وقد تُرجمت مختارات من قصائده إلى الألبانية أيضا:

Mufaku, Prapa natës, f.36-45.

الجليل» و«هارون الرشيد» وغيرها، لكن ردة فعل علماء دمشق المحافظين ومناشدتهم للسلطان عبد الحميد بغلق مسرح القباني دفعته للهجرة إلى مصر. لكن حتى مسرح القباني بعد عودته من مصر بقي للمتعة، يخلط التمثيل مع الغناء، ويجمع الموضوعات المستمدة من التراث مع تلك المقتبسة أو المعرّبة عن الفرنسية، إلى أن برز رائد المسرحية السورية معروف الأرناؤوط، بعد دخوله دمشق مع الأمير فيصل في تشرين الأول 1918 واستقراره فيها.

وكان معروف الأرناؤوط، كما رأينا في الفصل الرابع، قد بدأ نشاطه الأدبي بترجمة القصص والمسرحيات من الأدب الفرنسي، مع الاحتفاظ بميوله العثمانية التي عبّر عنها في مسرحية «الرجوع إلى أدرنة» التي صدرت في بيروت عام 1913. لكن هربه من الخدمة العسكرية في إستانبول والتحاقه بجيش الثورة العربية وبروزه في دمشق مؤسّسا لأولى الجرائد: «الاستقلال العربي» و«العلم العربي»، في العام 1918-1919 اللتين تعبّران عن نزعته الجديدة (القومية العربية)، مهّدت لتأليفه أول مسرحية سورية تتناول شخصية مستفزة في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، أي جمال باشا السفاح، ليثير ويوجه المشاعر العربية التي تحلم باستعادة المجد العربي. ومع الأسف فُقد نص المسرحية، لكن عروضها الكثيرة في مدن سورية وفلسطين خلال الفترة 1919-1920، وما كتبته الصحف آنذاك عنها، تعطي فكرة واضحة عن استثمارها بين الجيل الجديد (تلاميذ المدارس) لإثارة المشاعر العروبية، سواء بدور العرّاف في البداية الذي يتنبأ باستعادة العرب لمجدهم واستقلالهم، أو بإقحام التلاميذ بين فصول المسرحية لتقديم أناشيد بروح قومية عربية، كما رأينا في الفصل الرابع.

ومع انشغال معروف الأرناؤوط بالجريدة اليومية التي أسّسها (فتى العرب)، حرص على أن يكون فيها قسم للأدب ينشر فيه إبداعاته الجديدة في مجال الرواية التي سيصبح فيها رائدا في سورية. لكنه قبل أن يتفرغ للرواية نشر آخر مسرحية له عام 1929 بعنوان «أبو

عبد الله الصغير آخر ملوك العرب في الأندلس»[19]. في هذه المسرحية يظهر النفس القومي للمؤلف وهو يتحدث عن أمجاد العرب في الأندلس، وينتقد تخاذل آخر ملوك العرب في غرناطة؛ أبي عبد الله الصغير، في الدفاع عن المدينة. وفي الحقيقة أن معروف الأرناؤوط يعيد تركيب شخصية أبي عبد الله الصغير، لينتقد فيه إيمانه بالقدر نتيجة نبوءة بلغته بأنه سيكون آخر ملوك غرناطة. هكذا كان يردد أمام إصرار فرسان غرناطة على القتال: «ليس من قضاء الله مفر، ولا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. لقد كتب الله في لوح مقدوره أن أكون شقيا وأن أكون آخر الملوك يلقون سلاحهم بين يدي العدو. ليس ذنبي، ولكنه ذنب القدر»[20]، وهي العقلية التي استمرت في القيادة العربية حتى «نكسة» حزيران/ يونيو 1967 لتبررها بالقول السائر: «لا يعفي حذر من قدر».

إن هذا الدور الريادي لمعروف الأرناؤوط في المسرحية بالأدب السوري برز لاحقا مع تطور الدراسات الأدبية في سورية خلال النصف الثاني للقرن العشرين. فالناقد عدنان بن ذريل في كتابه المرجعي «الأدب المسرحي في سورية»، يقرّ بأن معروف الأرناؤوط أحرز نجاحات كبيرة بإقناع الجمهور أن المسرح يمكن أن يتّسع لكل الموضوعات الأدبية والفنية والتاريخية والاجتماعية والوطنية[21]، بينما يؤكد الناقد عادل أبو شنب في كتابه «بواكير التأليف المسرحي في سورية» أن معروف الأرناؤوط هو أوّل من كتب المسرحية بكل ما في الكلمة من معنى[22]. ومع أن أبو شنب يعتبر مسرحية «جمال باشا السفاح» التي عُرضت بنجاح خلال العامين 1919-1920 «نموذجا لولادة المسرحية السورية، وبالتحديد المسرحية السياسية في الأدب السوري»[23]، إلا أن ضياع نصها يجعل الناقد

(19) معروف الأرناؤوط، أبو عبد الله الصغير آخر ملوك العرب في الأندلس، حلب، المطبعة العلمية، 1929.

(20) المصدر السابق، ص23.

(21) عدنان بن ذريل، الأدب المسرحي في سورية، دمشق، د.ت، ص36.

(22) عادل أبو شنب، بواكير التأليف المسرحي في سورية، دمشق 1978، ص28.

(23) المرجع السابق، ص31-32.

الأكاديمي د. أحمد زياد محبك يركز على مسرحية «أبو عبد الله الصغير» ليقول عنها إنها تجمع «فضل النضج إلى فضل السبق» في الأدب المسرحي في سورية[24].

ثالثا: الرواية

بعد ترجماته الأدبية من الفرنسية ومسرحياته الثلاث، توجه معروف الأرناؤوط بقوة إلى الرواية لينشر أولا روايته «سيد قريش» عام 1929، التي أحدثت صدى كبيرا في سورية إلى حدّ انتخابه عضوا في المجمع العلمي العربي عام 1930. وقد رأينا في الفصل الرابع كيف أن معروف الأرناؤوط رأى في هذا الجنس الأدبي الجديد (الرواية) الذي يحظى بالاهتمام المتزايد خير وسيلة لتمرير أفكاره القومية العربية. ومع هذه الرواية التي كرّسته رائدا للرواية التاريخية في الأدب السوري[25]، استمر معروف الأرناؤوط في إصدار رواياته التالية فأصدر «عمر بن الخطاب» عام 1936. وكان من المفروض أن تَصدُر هذه الرواية في أربعة أجزاء، ذلك أن المجلد الأول تضمّن جزئين فقط (ليالي شاعر وفرسان سيد قريش)، وأعيد طبع هذا المجلد دون أن يصدر المجلد الثاني الموعود.

ويبدو من وصف الرواية الجديدة بأنها: «رواية اجتماعية تاريخية في أربعة أجزاء تصف حياة العرب الاجتماعية والسياسية، وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن محمد سيد قريش إلى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، أن معروف الأرناؤوط يتابع تحميل روايته الجديدة فكرة القومية العربية الذي بدأه مع «سيد قريش»، فيركز على وضع العرب تحت حكم الروم والفرس وتطلعهم للإسلام منقذا لهم من الحكم الأجنبي وسبيلا إلى وحدة العرب وحريتهم؛ أي أن الأمر لاحقا لم يعد «فتح» المسلمين لبلاد الشام والعراق، بل «تحرير» العرب لإخوتهم هناك ليتحدوا في دولة واحدة. لكن ما يؤخذ على الرواية أن

(24) أحمد زياد محبك، التاريخ والتأليف المسرحي في سورية (1945-1967)، «الموقف الأدبي»، ع126، دمشق، 1981، ص31.

(25) إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، ط2، بيروت، دار المناهل، 1987، ص164.

المجلد الأول خاض في وصف أوضاع العرب في بلاد الشام والعراق قبيل ظهور الإسلام، دون أن يظهر بطل الرواية المفترض (عمر بن الخطاب) الذي يحمل عنوان الرواية اسمه. ومع أن هذه الرواية أيضا حفلت في النهاية بالمصادر العربية والفرنسية التي استفاد منها المؤلف، إلا أن معروف الأرناؤوط حمَّلها روحه القومية الجديدة ليُسقطها على الحاضر.

ومع انتظار القرّاء للمجلد الثاني من هذه الرواية، فاجأهم معروف الأرناؤوط عام 1941 بإصدار المجلد الأول من روايته الجديدة «طارق بن زياد». وفي هذا المجلد، الذي يتألف من قسمين، نجد أن القسم الأول يغطي فتوحات شمال إفريقيا وبطله عقبة بن نافع، في حين أن القسم الثاني يتناول فتح الأندلس وبطله مغيث الرومي، أي أن البطل المفترض (طارق بن زياد) غائب في المجلد الأول كما هو الأمر مع رواية «عمر بن الخطاب». لكن هذه الرواية أيضا لا يفوت معروف الأرناؤوط أن يحمّلها رسالته بذكر أمجاد العرب في الأندلس.

وفي الوقت الذي كان فيه القرّاء ينتظرون صدور المجلد الثاني من الرواية ليروا فيها شخصية طارق بن زياد، فاجأهم معروف الأرناؤوط سنة 1942 بإصدار روايته الجديدة «فاطمة البتول»، التي صدرت كاملة في 34 فصلا تمتد على 376 صفحة. وتعتبر هذه الرواية محيرة؛ لأن الدولة الأموية أصبحت تُعتبر عند القوميين العرب نموذجا ملهما لمجد العرب الذي يجب استعادته، بينما يخوض معروف الأرناؤوط هنا في التمرد الذي قام به الحسين بن علي على من آل إليه الحكم في الدولة الأموية (يزيد بن معاوية)، ويُظهر ميله إلى طرف الحسين في الإهداء (إلى أرواح الأبطال من أبناء فاطمة البتول) مما يجعل هذه الرواية مختلفة عما سبقها[26].

(26) للمزيد عن روايات معروف الأرناؤوط انظر: عبد اللطيف الأرناؤوط، معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام، دمشق، المؤلف، 2001؛ نزار أباظة، معروف الأرناؤوط، دمشق، مجمع اللغة العربية بدمشق، 2018.

ومع تطور الرواية السورية في النصف الثاني للقرن العشرين، نجد إطلالة جديدة للشاعرة عائشة أرناؤوط في روايتها الأولى «أقودك إلى غيري» التي صدرت في دمشق عام 2006[27]. وفي الواقع لدينا هنا مزواجة أو مداخلة بين ما هو ذاتي (عائلي) وما هو عام (سوري وعربي وعالمي)، في رواية أقرب إلى السيرة الذاتية التي تبدأ في حي شعبي على أطراف دمشق، الذي هو الحي المتحلّق حول «جامع الأرناؤوط» في الديوانية. ففي ما هو ذاتي/ فردي، لدينا تجربة شابة مراهقة تنضج بسرعة بين خمسينيات وستينيات القرن العشرين المفعمة بالتطورات في سورية والمحيط العربي والعالم، وفي ما هو ذاتي/ عائلي، تحاول الشابة التعاطي مع مفهوم الحرية في أسرة تتمسك بالتعليم لأبنائها لكنها تختلف معهم حول مفهوم الحرية، لأن المجتمع من حولها يعادي هذا المفهوم، ويخالف بين الذكور والإناث في هذا المفهوم. وفي ما هو عام، كانت تلك فترة صعود أفكار وحركات وأنظمة التحرر في المنطقة والعالم وصولا إلى الثورة الطلابية في أوروبا (1968)، التي قادت إلى اتساع الخلاف بين الأجيال واختراق المحرمات والتأكيد على الحريات والحقوق الإنسانية. وفي اعتراف للمؤلفة تقول عن مغزى العنوان: «كنت متصورة أني أقود القارئ إلى ذاتي، لكن جدية العمل والإيحاءات التي أعطاني إياها قادتني إلى غيري، إلى شخصية ثانية مختلفة»[28]. وعلى الرغم من الاستقبال الجيد للرواية باعتبارها «شاهدا على مبدأ الانتصار الذاتي كمبدأ تاريخي وخطوة أولى في الرواية الحديثة»[29]، إلا أن عائشة أرناؤوط لم تستمر في هذا المسار الجديد بسبب انشغالها بتطورات الوضع في سورية بعد 2011.

(27) عائشة أرناؤوط، أقودك إلى غيري، دمشق، دار كنعان، 2006.

(28) هدى إبراهيم، عائشة أرناؤوط.. تقودها إلى غيرها، جريدة «القبس»، الكويت، 3/ 7/ 2006.

(29) أيمن الغزالي، عائشة أرناؤوط.. أقودك إلى غيري، جريدة «الثورة»، دمشق، 22/ 12/ 2006.

رابعا: القصّة

ظهرت القصة في الأدب السوري الحديث على يد الجيل التالي للمترجمين والمعرّبين من الأدب الفرنسي بشكل خاص، وبالتحديد على يد الجيل الثاني من الألبان في دمشق ممثلا بعلي خلقي (1910- 1984) ابن الشاعر مصطفى خلقي. لكن علي خلقي لم يحظ برعاية والده لكونه توفي في طفولته (1916)، فعاش ظروفا صعبة، إلا أنه واجه ذلك بمتابعة تعليمه في دمشق إلى أن تخرّج في دار المعلمين عام 1928 واشتغل في التعليم إلى أن تقاعد عام 1971. وبسبب ظروفه العائلية الصعبة واجه علي خلقي الحياة وحيدا في دمشق، حيث وجد في اليسار الصاعد ملاذا حاضنا ودافعا له للقراءة والكتابة، وانخرط في المظاهرات المعادية للانتداب الفرنسي وسُجن مرارا بسبب ذلك. وفي هذه الظروف جاءت مجموعته القصصية «ربيع وخريف» عام 1931 مفاجأة، لتكرسه لاحقا رائدا للقصة ورائدا للواقعية في الأدب السوري[30].

لم يعرف علي خلقي الحياة العائلية في بيت كانت له مكانته، بل عاش وخالط القاع الاجتماعي في دمشق، الذي كان ملهما لتوجّهه اليساري وإنتاجه الأدبي الجديد، وهو ما انعكس في مجموعته «ربيع وخريف» التي كشفت عن الوجه الآخر للمجتمع الدمشقي المحافظ. وفي الواقع، تكشف هذه القصص عن التغيرات الاجتماعية الكبيرة في المجتمع التي حدثت خلال العقد الأول للانتداب الفرنسي، وعن تأثيرها في تفسّخ القيم والعلاقات التقليدية، مما أبرز حالات سلبية تناولها علي خلقي بجرأة غير معهودة (نفاق بعض رجال الدين، والظلم الاجتماعي، والخيانة الزوجية... إلخ)، فأثارت هذه الجرأة بعض الأوساط المحافظة ضده وأدت إلى معاقبة رئيس تحرير للجريدة التي نشرت قصته «الضيف الثقيل»[31].

وهكذا في الوقت الذي رأى فيه د. شاكر مصطفى في كتابه: «القصة السورية حتى

(30) عادل أبو شنب، صفحات مجهولة من تاريخ القصة السورية، دمشق، 1974، ص53.
(31) المرجع السابق، ص67.

الحرب العالمية الثانية» أن علي خلقي بمجموعته «ربيع وخريف» قد بشّر بقاص من وزن موباسان أو تشيخوف، فإنه لم يستكمل مشروعه «بسبب حياته البوهيمية»[32]. كان علي خلقي يعيش ظروفا أصعب من السابق. صحيح أن القصة في سورية استكملت مسيرتها مع صدور «تاريخ جرح» لفؤاد الشايب عام 1944 و«بنت الساحرة» لعبد السلام العجيلي عام 1948، إلا أن الظروف السياسية في سورية خلال خمسينيات القرن الماضي شهدت تقلبات جديدة. فقد عاد علي خلقي إلى الكتابة، وأعدّ مجموعة قصصية جديدة. لكن تصاعد الحملة الجديدة ضد الشيوعية أوهمته بأنه ملاحق ويمكن أن يتعرض للاعتقال والتعذيب في أي لحظة. وهكذا في ليلة من الليالي سيطر عليه هذا الشعور عندما شعر بحركة ما، فأخذ مجموعته القصصية المخطوطة وألقاها في نار الموقد وبقي يتفرج عليها حتى احترقت تماماً[33].

ولكن مع تأسيس اتحاد الكتّاب العرب في دمشق عام 1969، أُعيد الاعتبار إلى علي خلقي خلال السبعينيات باعتباره رائدا للقصة في سورية، ونَعِم بسنوات من الاستقرار، فقد أعاد اتحاد الكتاب إصدار مجموعته «ربيع وخريف» عام 1980، كما تصدّرت قصتان من مجموعته (المرحومة والحاج منصور) أنطولوجيا القصة السورية (1931-1981) التي صدرت بالألبانية عام 1981 بمناسبة الذكرى الخمسين لصدور مجموعته «ربيع وخريف»[34].

---

(32) شاكر مصطفى، القصة القصيرة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، القاهرة، معهد الدراسات العليا- جامعة الدول العربية، 1957، ص60.

(33) أبو شنب، صفحات مجهولة، ص49-50.

وقد روى لي تفاصيل تلك الليلة وغيرها خلال زيارته إلى بريشتينا في آب 1978 خلال عدة جلسات على هامش مشاركته في ندوة بجامعة بريشتينا.

(34) Tregime siriane, zgjodhi dhe përktheu nga origjinali Muhamed Mufaku, Prishtinë (Rilindja), 1981.

دمشق مركزا لترجمة الأدب الألباني

عبد اللطيف الأرناؤوط

في الوقت الذي وصلت فيه الجالية الألبانية في مصر إلى ذروتها من حيث العدد والدور الاقتصادي والثقافي في أربعينيات القرن العشرين[35]، برز جانب جديد على صعيد التفاعل الثقافي؛ ألا وهو ترجمة الأدب الألباني إلى اللغة العربية على يد الرائد في هذا المجال: وهبي إسماعيلي (Vehbi Ismaili) (1919-1990). وكان إسماعيلي قد تخرج في المدرسة الإسلامية في تيرانا، وجاء القاهرة عام 1938 للدراسة في الأزهر، لكنْ جذبته الحياة الثقافية في القاهرة التي كانت في ذروتها في الصحافة الأدبية والمسرح، فأخذ يتابع ويشارك فيها من زاوية جديدة؛ ترجمة الأدب الألباني المعاصر إلى العربية، وترجمة الأدب العربي إلى الألبانية مع استلهام هذه التجربة في تأليف بعض المسرحيات. وقد تزامن تخرجه من الأزهر عام 1945 مع وصول الحزب الشيوعي إلى السلطة في بلاده، لذلك آثر البقاء في القاهرة إلى أن سنحت له فرصة الذهاب إلى الولايات المتحدة لتأسيس المركز الإسلامي في ديترويت[36].

وهكذا أخذ وهبي إسماعيل بخوض هذه التجربة في الترجمة بين اللغتين، ثم في الكتابة بالعربية والألبانية خلال الفترة 1945-1948، فبدأ نشر بعض القصص الألبانية لكبار الكتّاب الألبان آنذاك مثل: آرنست كوليتشي (Ernest Koliqi)، وكمال غورانياكو (Qemal Guraniku)، في كبريات المجلات المصرية الأدبية مثل: «الرسالة» و«الثقافة» و«الكتاب». وقد جمع بعض هذه القصص لاحقًا وأصدرها في كتاب «المهد الذهبي وقصص أخرى

(35) للمزيد حول هذه الجالية انظر كتابنا: الجالية الخفية.. فصول من تاريخ الألبان في مصر، القاهرة، دار الشروق، 2018.

(36) للمزيد حول وهبي إسماعيل انظر مقالتنا: وهبي إسماعيل رائد الترجمة بين الأدبين الألباني والعربي، جريدة «الحياة»، 9/ 10/ 2007.

من الأدب الألباني» الذي صدر في القاهرة خلال العام 1948 عن «لجنة البيان العربي»، وكتب مقدمة له حسن علواني، فأكّد أوجه التشابه بين الأدبين الألباني والعربي النابعة من البيئة المتشابهة عند الألبان والعرب. وبهذا يكون «المهد الذهبي» أول كتاب مترجم يُعرّف بالأدب الألباني المعاصر في اللغة العربية[37].

في تلك السنوات، كان أبناء الجيل الأول من المهاجرين الألبان في دمشق قد أخذوا يبرزون في الحياة العامة بعد أن أكملوا تعليمهم بالعربية، وأخذوا يشقّون طريقهم نحو معاهد التعليم والجامعات، ليبرز منهم الجيل الأول من المعلمين والمهندسين والمحامين والمترجمين والفنّانين. ومن هؤلاء كان الكاتب والمترجم المعروف عبد اللطيف الأرناؤوط، الذي جعل من دمشق مركزا للتعريف بالأدب الألباني في العالم العربي على مدى نصف قرن ونيف.

وُلد عبد اللطيف الأرناؤوط في دمشق عام 1931 في أسرة ألبانية هاجرت من كوسوفا بعد حرب البلقان (1912-1913)، لأب (حسين) كان مهتما بالعلم وحريصا على تعليم أولاده الذكور والبنات، مما جعل هذه الأسرة تتميز بثلاثة أسماء معروفة في الحياة الثقافية السورية في النصف الثاني للقرن العشرين: عبد اللطيف وعبد القادر وعائشة أرناؤوط. كان عبد اللطيف أول من أكمل المدرسة الثانوية من أولاد المهاجرين، والتحق بدار المعلمين ليعمل معلما ومديرا، ثم التحق بوزارة التربية ليعمل أمين تحرير مجلة «المعلم العربي» حتى سبعينيات القرن العشرين، حين انتقل إلى اتحاد الكتاب العرب أمينا لتحرير مجلة

(37) المهد الذهبي وقصص أخرى من الأدب الألباني، ترجمة وهبي إسماعيل حقي، القاهرة، لجنة البيان العربي، 1948.

وقد وصلت نسخة من المترجم إلى الأديب محمود تيمور، فكتب شاكر للمترجم وعبر عن كون المجموعة: «تجلو لنا في صدق ووضوح أغوار النفس الألبانية وحياة المجتمع»: مجلة «الرسالة» – البريد الأدبي، عدد 790، القاهرة، 28/ 8/ 1948.

«الموقف الأدبي» الفصلية، وأخيرا أمينا لتحرير مجلة «التراث الأدبي» حتى صيف 1997 حين تفرغ تماما للترجمة والكتابة[38].

التقط عبد اللطيف اللغة الألبانية المحكية في أسرته، لكنه استفاد من قدوم موجة المهاجرين السياسيين الذين جاؤوا دمشق خلال الفترة 1947-1949، ومن تأسيس أول جمعية للألبان في دمشق عام 1949، التي افتتح نائب رئيسها شوكت غاوجي صفا تعليميا للغة الألبانية الحديثة، ليتقن اللغة الأدبية التي أصبحت تأتيه نصوصها من الشتات الألباني ثم من كوسوفا وألبانيا لاحقا. وقد انعكس هذا، كما سنرى، في الترجمات الأولى ثم في الاختيارات اللاحقة.

وفي هذا السياق، يمكن أن نميّز البداية خلال العامين 1951-1952، التي اقتصرت على ترجمة قصيدتين، الأولى: «اليتيم» للشاعر الألباني للمعروف يورني ده رادا (Jeronim de Rada) (1814-1903) ونُشرت في مجلة «الينبوع» عام 1951[39]، والثانية: «تعزية» للشاعر الألباني وهبي رونا[40]، ونُشرت في جريدة «البلاد» خلال العام 1952[41]. وبعد هذه البداية جاءت الانطلاقة الأولى خلال الفترة 1960-1962، وركّز فيها على التعريف بالشعر الشعبي الألباني وشعر عهد النهضة القومية الألبانية (1850-1912)، الذي كان الأساس للشعر الألباني الحديث والمعاصر. وهكذا فقد نشر في كانون الثاني/ يناير 1960 ترجمة لثلاث قصائد: «على قبر المحارب» لكريستو كريسبي (K. Kristi)[42]، و«لحن

(38) للمزيد عنه انظر: محسنة الخطيب، عبد اللطيف الأرناؤوط.. أضواء على ثقافة متوازية، جريدة «العربي الجديد»، 10/ 3/ 2022.

(39) مجلة «الينبوع»، عدد 7-8، دمشق، 2/ 7/ 1950. وقد أُعيد نشر هذه القصيدة في جريدة «البلاد»، اللاذقية، 17/ 2/ 1953.

(40) لم نعثر على شاعر بهذا الاسم.

(41) جريدة «البلاد»، عدد 41، اللاذقية، 27/ 10/ 1952.

(42) جريدة «دمشق المساء»، عدد 2134، دمشق، 8/ 1/ 1960.

الحرية» لميخال غرامينو (Mihal Grameno)[43]، و«عجوز وعاشق» لفان نولي (Fan Noli)[44] (1882-1965). أما في شهر آذار/ مارس فقد نشر ترجمتين لقصيدتين: «مرحبا أيها السنونو» لكريستو كريسبي[45]، و«الدموع لن تفطر قلبك» للشاعر حسنيو[46] (H. Husniu)[47]، بينما نشر في نيسان/ أبريل قصيدة «العلم» للشاعر فان نولي[48]. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، نشر قصيدتين لشاعر النهضة القومية الألبانية نعيم فراشري (Naim Frashëri) (1846-1900) هما: قصيدة «أمل»[49] وقصيدة «جمال الماشية»[50].

أما في الشهر الأخير من عام 1961 فقد نشر قصيدة «ماذا؟» للشاعر الكوسوفي المعاصر لطيف بريشا (Latif Berisha)[51] (1934-1999)، أما في عام 1961، فقد نشر ترجمة لقصيدة «القمر» للشاعر الألباني المعاصر وهبي إسكندري (1927-) (VehbiSkenderi)[52]، وترجمة لقصيدة «الجمال» لنعيم فراشري[53]. ومن ناحية أخرى، تميزت هذه السنوات الثلاث باهتمام أكبر لعبد اللطيف الأرناؤوط بالشعر الشعبي الألباني، فقد نشر خلالها ترجمات لـ 42 قصيدة متنوعة[54].

---

(43) جريدة «دمشق المساء»، عدد 2146، دمشق، 22/ 1/ 1960.

(44) جريدة «دمشق المساء»، عدد 2152، دمشق، 29/ 1/ 1960.

(45) جريدة «الأخبار»، عدد 5241، دمشق، 15/ 3/ 1960.

(46) لم نعثر على شاعر بهذا الاسم.

(47) جريدة «الأخبار»، عدد 5247، دمشق، 23/ 3/ 1960.

(48) جريدة «الأخبار»، دمشق، 20/ 4/ 1960.

(49) جريدة «دمشق المساء»، عدد 2396، دمشق، 25/ 10/ 1960.

(50) جريدة «الأخبار»، عدد 5449، دمشق، 29/ 11/ 1960.

(51) جريدة «الأخبار»، عدد 5473، دمشق، 28/ 12/ 1960.

(52) جريدة «صوت العرب»، عدد 1993، دمشق، 20/ 1/ 1961.

(53) جريدة «صوت العرب»، عدد 2347، دمشق، 5/ 4/ 1962.

(54) طُبعت هذه القصائد في جريدة «صوت العرب» خلال العام 1961.

ويلاحظ خلال هذه الانطلاقة الزخمة أن عبد اللطيف كان حذرا في الاختيارات، بسبب الأوضاع السياسية في البلقان، فقد انقسم الألبان بين دولتين (ألبانيا ويوغوسلافيا) مختلفتين في السياسة وسلطة السياسة على الأدب، فجاءت معظم اختياراته من الشعر الشعبي الألباني وشعر النهضة القومية الألبانية اللذين لا يوجد تحفظ عليهما هنا أو هناك. لكن يلاحظ هنا أنه في هذه السنوات اكتفى عبد اللطيف الأرناؤوط بترجمة قصيدة واحدة لشاعر كوسوفي (لطيف بريشا)، وقصيدة واحدة لشاعر من ألبانيا (وهبي إسكندري). ومن المفارقة هنا، أن ترجمة عبد اللطيف لقصيدة إسكندري عام 1961 جاءت في وقت «متسامح» في ألبانيا قبل انطلاقة «الثورة الثقافية» (1967-1970) و«الكفاح ضد الليبرالية»، فانتهى الأمر بفصله من الحزب ومن العمل في دار النشر الحكومية وإرساله إلى ورشة لبناء أحد السدود ليعمل هناك حمّالا[55].

وربما كان هذا السبب في انقطاع عبد اللطيف الأرناؤوط عن الترجمة والنشر حوالي عشر سنوات. لكن في نهاية الستينيات جاءته فرصة لزيارة موطن أسرته (كوسوفا) الذي أصبح آنذاك (1968) إقليما يتمتّع بحكم ذاتي واسع في يوغوسلافيا الجمهورية. ويبدو أن هذه الزيارة وما تخلّلها من لقاءات مع شعراء كثيرين، والعودة إلى دمشق بمجموعات شعرية حديثة لأهم شعراء ألبانيا في ذلك الوقت كانت متاحة آنذاك في مكتبات بريشتينا، حفّزت عبد اللطيف على انطلاقة جديدة في سبعينيات القرن الماضي، فكانت أكبر من الأولى.

وهكذا نشر في عام 1971 ترجمة لقصيدتين للشاعر الكوسوفي يعقوب سرايا (Jakup Ceraja)[56] (1934-2001)، وترجمة لقصة للكاتب الكوسوفي رامز كلمندي (Ramiz Kelmendi) (1930-2017) بعنوان «الحمّال»[57]، بينما نشر خلال العام 1972 قصة

(55) Visar Zhiti. Kartela të realizmit të denuar, Tiranë

(56) جريدة «الثقافة الأسبوعية»، عدد 25، دمشق، 26/ 6/ 1971.

(57) مجلة «صوت المعلمين»، عدد 2، دمشق، تشرين الثاني 1971.

أخرى للكاتب دين محمدي (Din Mehmeti) (1932-2010) بعنوان «القميص الأحمر»[58]. أما في العام 1973 فترجم قصيدة أخرى للشاعر الألباني وهبي إسكندري بعنوان «مرثية لابن الشمس»[59]، وترجم عدة قصائد للشاعر الكوسوفي لطيف بريشا[60].

ويعكس العام 1974 تحولا واضحا نحو الاهتمام والتعريف بأهم كاتبين في ألبانيا في ذلك الوقت: إسماعيل كاداريه (1936) الذي أصبح نائب رئيس «الجبهة الديموقراطية» (الواجهة الشكلية للحزب الحاكم)، ودريترو أغولي (1931-2017) رئيس اتحاد الكتّاب في ألبانيا (1973-1992). ففي ذلك العام نشر عبد اللطيف الأرناؤوط القصيدة الطويلة لكاداريه «يوميات الجيل»[61]، بينما نشر لاحقا القصيدة الطويلة لأغولي بعنوان «الآباء»[62]، ليعود بعدها وينشر قصيدتين لكاداريه: «الشلالات» و«إفريقيا»[63]. وفي السنة نفسها نشر خمس قصائد لخمسة شعراء شباب من كوسوفا: «التطور» لمحمد بوبي (M. Bobi)، و«اليوم» لعمر روغوفا (Z. Rugova)، و«وصية» لمظلوم سانيا (M. Sanija)، و«نجم مريض» لأغيم بيتسي (A. Bici)، و«أنا..» لمظهر كوبي (M. Kupi)[64].

في تلك السنوات أصبح الطريق إلى ألبانيا وكوسوفا مفتوحا أمام عبد اللطيف الأرناؤوط، الذي كان يشارك كل سنة تقريبا في «الندوة الدولية للغة الألبانية وثقافتها للأجانب»، التي كانت تُعقَد في جامعة بريشتينا على مدى أسبوعين، وتتيح فرصة اللقاء مع الشعراء والكتاب وإجراء الحوارات. من هنا نجد في السنوات اللاحقة ترجمات عديدة للشعراء الذين كان يتعرف عليهم عبد اللطيف الأرناؤوط. وهكذا نشر عام 1977 «قصيدة

(58) مجلة «المرأة العربية»، عدد 47، دمشق، تموز 1972.
(59) مجلة «الشرطة»، عدد 90، دمشق، تموز 1972.
(60) مجلة «صوت المعلمين»، دمشق، أيار 1974.
(61) مجلة «صوت المعلمين»، دمشق، أيار 1974.
(62) مجلة «صوت المعلمين»، دمشق، أيار 1975.
(63) مجلة «صوت المعلمين»، عدد 12، دمشق، 1975.
(64) جريدة «الثقافة الأسبوعية»، عدد 30، دمشق، 24/ 7/ 1976.

مطـرزة بـالنورث للشـاعر الألبـاني فـاتوس عرابـي (Fatos Arapi)[65] (1930-2018)، وقصيدة طويلة لإبراهيم قدريو (Ibrahim Kadriu) (1945) بعنوان «شيء ما يحدث»، وست قصائد قصيرة للشاعر الكوسوفي عمر شكريلي (YmerShkreli)[66] (1945). ومن ناحية أخرى فقد اهتم عبد اللطيف الأرناؤوط في تلك السنة بنتاج الشاعرات الشابات اللواتي مثّلن الجيل الأول من الشعر النسوي مثل: ادي شكريو (Edi Shukriu) (1950)، وفلـورا بروفينـا (VloraBrovina) (1949)، وشـهرزاد شـكريلي ShehrezadeShkreli (1950) التي خصّها بترجمة لعشر قصائد لها[67].

في السنة الفارقة 1980، نشر عبد اللطيف الأرناؤوط ترجمة لعشر قصائد للشاعر الكوسوفي المعروف علي بودريميا (Ali Podrimja) في مجلة «المعرفة» السورية التي تصدرها وزارة الثقافة[68]. وكانت هذه السنة فارقة لأنه في ربيع 1981 اندلعت المظاهرات في كوسوفا للمطالبة بالمساواة مع بقية شعوب يوغوسلافيا، مما أدخل يوغوسلافيا في أزمات متتالية حتى انهيار ما بقي منها في العام 1999. وبسبب هذا الوضع لم يعد الطريق مفتوحا إلى بريشتينا، بل بقي مفتوحا إلى تيرانا، لذلك سنجد في السنوات اللاحقة الانطلاقة الكبرى لعبد اللطيف الأرناؤوط؛ التحول من ترجمة القصائد المتفرقة وبعض القصص إلى ترجمة الروايات التي عرّفت بأهم الكتاب في ألبانيا: إسماعيل كاداريه، ودريترو أغولي، وفاث كورشي (Vath Koreshi) (1936-2006) وغيرهم.

وهكذا بدأت هذه الانطلاقة الكبيرة عام 1981 مع صدور ترجمته لرواية إسماعيل كاداريه «جنرال الجيش الميت»، التي أشهرته خارج ألبانيا، وجعلته مرشحا لجائزة

(65) مجلة «الفرسان»، دمشق، آذار 1977.

(66) مجلة «البيان»، عدد 141، الكويت، كانون الأول 1977.

(67) جريدة «الثقافة الأسبوعية»، دمشق، 5/ 8/ 1978.

(68) مجلة «المعرفة»، عدد 217، دمشق، آذار 1980.

نوبل[69]. وكانت هذه الرواية قد صدرت عن وزارة الثقافة السورية التي أتاحت لها ولغيرها لاحقا الانتشار في سورية وخارجها. وعلى حين أصدر عبد اللطيف الأرناؤوط في العام التالي (1982) -استثناءً- ديوان شعر لكادريه بعنوان «حصان طروادة يلقى حتفه»[70]، فقد تابع لاحقا الخط الروائي بإصداره في العام 1986 ترجمة الرواية الأخرى المعروفة لكاداريه، «الحصن»[71]. ولا شك أن الفضل يعود إلى عبد اللطيف الأرناؤوط في تعريف القراء العرب بكاداريه، الذي كان يكتسح حدود ألبانيا الصغيرة نحو اللغات العالمية، لذلك نجد موجة كبيرة لترجمة كاداريه إلى العربية من الفرنسية والإنكليزية في السنوات التالية. وهكذا فقد صدرت روايته «من أعاد دورنتين» بترجمة أنطون أبو زيد عام 1989[72]، وصدرت في العام نفسه روايته «مدينة الحجر» بترجمة عفيف دمشقية، بينما صدرت في العام 1992 رواية «الوحش» بترجمة عفيف دمشقية[73]، ورواية «قصر الأحلام» بترجمة حياة الحويك[74].

صدرت هذه الروايات الأخيرة في الوقت الذي كان فيه ربيع أوروبا الشرق قد وصل إلى ألبانيا «آخر قلعة للستالينية في أوروبا»، التي دخلت في تحول ديموقراطي منذ نهاية العام 1990 وانتهى في 1992 بتسلّم «الحزب الديموقراطي» الحكم بعد أول انتخابات ديموقراطية حرة. وفي هذا السياق أثير موضوع إسماعيل كاداريه بسبب موقعه السابق في

(69) إسماعيل كاداريه، جنرال الجيش الميت، ترجمة: عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق، وزارة الثقافة، 1981.

صدرت هذه الرواية وغيرها بالاسم الذي اعتمده المترجم في البداية (إسماعيل كاداره) ثم تحوّل لاحقا نحو الاسم الشائع له: إسماعيل كاداريه

(70) إسماعيل كاداريه، حصان طروادة يلقى حتفه، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق، وزارة الثقافة، 1982.

(71) إسماعيل كاداريه، الحصن، ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط، دمشق، وزارة الثقافة، 1986.

(72) إسماعيل كاداريه، من أعاد دورنتين، ترجمة أنطوان أبو زيد، بيروت، دار الآداب، 1989.

(73) إسماعيل كاداريه، الوحش، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت، دار الآداب، 1992.

(74) إسماعيل كاداريه، قصر الأحلام، ترجمة حياة الحويك، بيروت، دار الآداب، 1992.

النظام الشمولي الحاكم ولجوئه في الدقائق الأخيرة إلى باريس، وانقسام المثقفين بين منددّ به ومؤيد له[75]. ومع أن حماس دور النشر اللبنانية لكاداريه انكمش فورا بعد عام 1992، إلا أن عبد اللطيف الأرناؤوط واصل مشروعه الكبير لترجمة أعمال كاداريه الذي كانت تربطه معه علاقة شخصية، بعد تقاعده في العام 1997 وتفرغه للترجمة والكتابة.

وهكذا فقد أصدر ثلاث روايات جديدة لكاداريه نشرتها وزارة الثقافة السورية تباعا: رواية «العرس» (2006)، ورواية «الملف H»، (2008)، ورواية «لجنة الاحتفال» (2009). ولأجل مزيد من التعريف بأعمال كاداريه، أصدر عبد اللطيف الأرناؤوط في دمشق عام 2011 كتابا بعنوان «إسماعيل كاداريه شاعرا روائيا- تأملات في أعماله المترجمة إلى العربية». ويلاحظ هنا أن المؤلف في هذا الكتاب أخذ بعين الاعتبار لأول مرة ما أثير من نقاش حول كاداريه بعد العام 1990 داخل ألبانيا وخارجها، لذلك قال في جملة لها مغزاها في المقدمة إنه: «يجب أن يُحكم على عظمة أدب إسماعيل كاداريه بعيدا عن مواقفه السياسية وتحولاته، فالسياسة تتبدّل والإنسان يتغيّر»[76].

ومع أهمية ما قدّمه عبد اللطيف الأرناؤوط من ريادة في تعريف القراء العرب بأهم روايات كاداريه، إذ انتقل بعد ذلك التعريف به إلى بيروت والقاهرة[77]، لا بد من الإشارة

---

(75) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: إسماعيل بين الأدب والسياسة، عمّان، دار أزمنة، 2005.

انتقل هذا النقاش أيضا إلى الجانب العربي بعد منح إسرائيل جائزة «أورشليم» لكاداريه وما ورد في كلمته عن التشابه بين الشعبين في «الكفاح في سبيل البقاء». انظر: يوسف القعيد، محنة روائي زار اسرائيل، جريدة «البيان» الإماراتية 2/ 3/ 2015.

(76) عبد اللطيف الأرناؤوط، إسماعيل كاداريه شاعرا روائيا: تأملات في أعماله المترجمة إلى العربية، دمشق، وزارة الثقافة، 2011، ص12.

(77) من المثير أن نذكر هنا أن سلسلة «روايات الهلال» أعادت عام 1993 نشر رواية «الحصن» التي ترجمها عبد اللطيف الأرناؤوط، لكن مع تغيير اسم المؤلف من إسماعيل كاداريه إلى إسماعيل قدري. كما أن الرواية التي شهرت كاداريه في العالم «جنرال الجيش الميت» وصدرت في دمشق عام 1981 مترجمة عن الألبانية بتوقيع عبد اللطيف الأرناؤوط، صدرت في القاهرة عام 2001 ضمن «روايات الهلال» مترجمة عن الإنكليزية بتوقيع عبد الحميد الجمال عام 2001. وخلال كتابة هذه السطور

هنا إلى الروايات الأخرى التي ترجمها الأرناؤوط لكاتبين معروفين من المجايلين لكاداريه: رواية «الرجل والمدفع» لدريترو أغولي (دمشق)، ورواية «ملحمة مدينة كوربين» (دمشق)، ورواية «عرس ساكو» (دمشق)، للكاتب فاث كُرشي (Vath Koreshi) الذي لم يكن معروفا من قبل لقرّاء العربية، ليجعل من دمشق بالفعل مركزا للتعريف بالأدب الألباني في العالم العربي.

أما في ما يتعلق بتجربة عبد اللطيف الأرناؤوط في ترجمة الأدب الألباني خلال نصف قرن ونيف، فيلاحظ أن ميله للعربية كان يعطي الأفضلية للغة التي يترجم إليها، لكي تكون الأعمال المترجمة للعربية مستساغة أكثر[78]. ولا يجب هذا أن يفاجئنا لأن الأرناؤوط عُرف في وقت مبكر بحرصه على اللغة العربية، حتى إن أول كتاب أصدره مع زميله خالد قوطرش في العام 1966 كان بعنوان «الأخطاء الشائعة في اللغة العربية». ومن الملفت للنظر هنا أن نجد مربيين من أصل ألباني وكردي يُظهران مثل هذه الحرص على اللغة العربية لتنقية ما لحق بها من أخطاء[79].

أصدرت مؤسسة أروقة في القاهرة رواية كاداريه «نيسان المكسور» مترجمة عن الإنكليزية بتوقيع رياض حمادي.

(78) للمزيد حول ذلك انظر ورقتنا: «إسماعيل كاداريه مترجما إلى العربية من ثلاث لغات» المقدّمة للمؤتمر الدولي الثالث للترجمة والمثاقفة، الدوحة، 12-13 ديسمبر 2016.

(79) في موقع «الكتب المهداة إلى الشيخ ناصر الدين الألباني» نجد نسخة موقعة من هذا الكتاب من قبل عبد اللطيف الأرناؤوط: تقدمة المؤلف إلى الأستاذ ناصر الدين الألباني، مع الاحترام والتقدير، 18/ 9/ 1966.

ذكريات

ذكريات الشيخ عبد الرحيم عابدين

رغم أن وجود الألبان في دمشق خلال القرن العشرين اتّسم على مدى ثلاثة أجيال ببروز شخصيات ذات باع في الكتابة والشهرة، إلا أنّ ما ينقصنا من كتابات هؤلاء الكثيرة هو ما يتعلق بذكرياتهم، سواء عن الموطن الأصلي وظروف الهجرة إلى دمشق، أو ظروف النشأة في دمشق بالنسبة لمن ولد ونشأ فيها.

وللأسف لدينا فقط ثلاثة استثناءات مع أوراق قليلة تتضمن مذكرات، لكن على قلّة الأوراق في كل حالة تتمتع هذه المذكرات بقيمة كبيرة؛ لأنها المصدر الوحيد المدوّن الذي يروي بأسلوب بسيط ومعبّر ظروف الهجرة من الموطن الأصلي إلى دمشق، وهي ظروف لم تكن سهلة بطبيعة الحال لأن الموجة الأولى من الهجرة انطلقت من حرب قائمة (حرب البلقان) غيّرت خريطة المنطقة، وانتهت إلى دمشق عشية حرب كبرى (الحرب العالمية الأولى) غيّرت نتائجها أيضا خريطة المنطقة، بينما جاءت الموجات الأخرى خلال عهد الحكومة العربية (1918-1920)، والانتداب الفرنسي على سورية (1920-1946).

ومن بين هذه الذكريات، تبدو لنا هذه الأوراق التي تركها الشيخ عبد الرحيم عابدين (1912-2007) مهمة بشكل خاص؛ لأنها توضح ظروف الهجرة في فترة اتّسمت بتغير الحكومات أو السلطات الحاكمة (العثمانية، البريطانية، العربية والفرنسية) التي كانت لها سياسات مختلفة تجاه المهاجرين الأوائل، ومن بينهم أسرة الشيخ عبد الرحيم. ومن ناحية أخرى، تمثّل هذه الأوراق مصدرا مهما للتعرف على ظروف التعليم بين أولاد المهاجرين على يد علماء ألبان من الجيل الأول، مثل الشيخ نوح نجاتي (1878-1958)، إذ تكشف أن الشيخ عبد الرحيم كان في حلقة واحدة مع ناصر الدين الألباني ابن الشيخ نوح نجاتي، لكن ظروف الحياة فرّقت بين الاثنين، إذ اضطر الشيخ عبد الرحيم إلى تعلّم مهنة صنع الأحذية قبل أن يتركها ويكتفي بتولي الإمامة والوعظ في أحد الجوامع، مع حضوره كشيخ شعبي بين الألبان في دمشق، بينما تعلّم الشيخ ناصر مهنة تصليح الساعات وواظب على

الاستفادة من المكتبة الظاهرية القريبة من المحل، ليبرز لاحقا في مجال الحديث والفقه والفتوى خارج المحيط الألباني الضيق مع حمله للقبه الجديد: الألباني.

من هنا تكمن قيمة هذه الأوراق في بساطتها وتعبيرها عن ظروف تكوين شيخ متوسط بين العلماء الكبار الذين جاؤوا من كوسوفا وألبانيا (الحافظ إسلام، ونوح نجاتي، وسليمان غاوجي)، والعلماء الكبار الذي نشؤوا في دمشق واشتهروا لاحقا في العالم العربي الإسلامي (الشيخ ناصر الدين الألباني، وعبد القادر الأرناؤوط، وشعيب الأرناؤوط)، ولذلك نشرناها أولا باللغة الإنكليزية عام 2021، ثم بالألبانية عام 2022، وتُنشر هنا للمرة الأولى بالعربية. وقد آثرنا الحفاظ على ما ورد في هذه الأوراق مع تدخّل في الحدّ الأدنى وتعريف ببعض أسماء الأشخاص والأماكن الواردة فيها.

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

قطعة تاريخ

حياة عبد الرحيم شعبان (وُلد عام 1912)

حين هاجر المرحوم والده زين العابدين شعبان (من) وطنه المعروف المنطقة الإسلامية قوصووا[80] عام 1914، وجاء مع أسرته بالشام بقصد إقامته طول حياته. والسكن كان[81] في غرف مسجد الفتح في حي القيمرية[82]، فيها كثير من المهاجرين. ومما

(80) قوصووا أو قوصوة بالعثمانية يقابلها الآن كوسوفا (Kosova) بالألبانية أو كوسوفو (Kosovo) بالصربية. ارتبط اسمها طويلا بسهل كوسوفا قرب بريشتينا الذي جرت فيه عام 1389 المعركة المعروفة بين الجيش العثماني بقيادة السلطان مراد، والتحالف البلقاني بقيادة الأمير الصربي لازار، ففتحت الطريق للتوسع العثماني في غرب البلقان، ثم برزت ككيان بعد أن أصبحت ولاية عثمانية بغالبية ألبانية خلال الفترة 1877-1912، إلى أن تقاسمتها صربيا والجبل الأسود بعد حرب البلقان (1912-1913)، ودخلت لاحقا ضمن يوغوسلافيا ثم وُضعت تحت الإدارة الدولية بعد حرب 1999، واستقلت في العام 2008.

(81) في الأصل: كانت.

يُشكر من أحياء تلك المنطقة مساعدتهم القيّمة لهؤلاء الذين تركوا ديارهم وأهلهم وعشيرتهم من طعام ولباس وغيرهما، «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»[83].

وبعد بضعة أشهر، جاء أمر من قِبَل الدولة العثمانية أنَّ كل الموجودين في سورية من المهاجرين بإخراجهم منها وسوقهم إلى مناطق تركيا: كمنطقة أضنة وبلدة كلس[84] وغيرهما، وأن لكل صاحب عائلة دارا للسكن وأرضا للزراعة على حساب الدولة. وفعلا، نال كل صاحب حق حقه مثلما خُصص له كما ذُكِرْ. وبعد فترة من الزمن جاءت أبواب الحرب للبشر من الخوف والجوع والأمراض بأشكالها، والموت والفوضى كقتل النفس طمعا بماله أو بغيره، كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] إلى آخر الآية من سورة البقرة[85].

ولا يخفى أن إقامتنا كانت في بلدة كلس، وأن أبي أرسلني في ذلك الوقت إلى مدرسة أميرية، إلا أن مديرها أبى وقال بالتركي: «بو كوشوك» بعد ما لاحظني، قال: هذا صغير. وبعد ذلك أرسلني أبي عند شيخ عالم هو جار لنا في الدار أصله من قوصووا اسمه المرحوم محمد ملا بلشينا -رحمه الله تعالى-، وكان يعلمني في بيته بمقدار ساعة مع توضيح بلغتنا الأرناؤوطية أوصاف الحروف المقطعة والهجائية القرآنية حرفا حرفا، مع

---

(82) من أقدم أحياء دمشق داخل السور، نسبة إلى الأمير الأيوبي ناصر الدين القيمري الذي بنى فيه المدرسة القيمرية كوقف قبل سنة 550هـ/ 1252م، وجدّدها في العام 1156هـ/ 1742م مع جامع لها متولي التكية السليمانية فتحي محمد، فأصبح المسجد يعرف باسم مسجد الفتح حتى نهاية الحكم العثماني، وتحول لاحقا إلى «معهد الفتح الإسلامي».

(83) القرآن الكريم، (هود: 115).

(84) بلدة على الحدود التركية السورية، كانت مركز لواء في ولاية حلب خلال الحكم العثماني، وبقيت تابعة لحلب خلال الحكومة العربية، لكن ترسيم الحدود خلال الانتداب الفرنسي وفق معاهدة 1921 مع تركيا الكمالية جعل البلدة في الجانب التركي وسهولها داخل الحدود السورية، بينما جعلت اتفاقية 1926 هذه السهول داخل تركيا.

(85) في الأصل وردت مشكّلة، القرآن الكريم (البقرة: 155-156).

حركاتها وسكونها ومدها وتركيب الكلمات وتطبيقها باللفظ، وبظرف ثمانية أشهر تقريبا بهذا المنهج وصلت إلى باب سورة «والذاريات».

وقد وفّقني الله تعالى بنظريات الشيخ المرحوم ملا محمّد -رحمه الله- حتى صرت أقرأ الكلمات القرآنية حيثما شئت وأنا (ابن) ثمانٍ أو أكثر. لكنني مع الأسف انقطعت عنه بسبب ابتعادنا بالنقل من المسكن إلى مسجد مهجور في آخر البلد، بعدما انهزمت الدولة العثمانية ودخلت دولة بريطانيا في تلك البلاد، وأخرجتنا من البيوت وسلّمتها لأصحابها المعروفين بالأرمن. وبعد ذلك عزم والدي المرحوم وغيره من المهاجرين بالرجوع إلى بلاد الشام لأنه كان أول هجرته (أي الوالد) من وطنه بنيّة إقامته في الشام المبارك حتى الموت، رحمه الله تعالى.

فلما أتوا، أي والدي والمهاجرين، من كلّس إلى بلدة حلب الشهباء، وكان السير؛ أي النقل، بالعربايات ذات الخيلين، ثم من حلب بالقطار على حساب دولة بريطانيا إلى دمشق المحروسة. وكان مسكنهم نفس مساكنهم الأولى؛ أي المساجد: منهم (من) سكن في المدرسة المهجورة المسمّاة عبد الله باشا نحو البزورية[86]، ومنهم من سكن في مدرسة البدرائية[87] ذات الغرف «فوقاني وتحتاني»، ومنهم في التكية السليمانية[88] نحو الشرق، وكانت تأتيهم المساعدات من أهل الخير التي لا تضيع عند الله عز وجل.

---

(86) في الأصل: المسمى. والبزورية من أقدم أسواق دمشق القديمة، ويمتد من قصر العظم حتى سوق مدحت باشا. عُرف في العهد المملوكي بسوق الدهيناتية (حيث تُصنع وتباع الدهون)، ثم سوق العطارين، وأخيرا سوق البزورية، وفيه منشآت مهمة مثل حمام نور الدين زنكي، وخان أسعد باشا، وخان أحمد باشا، وغيرها.

(87) من أقدم مدارس دمشق داخل السور، بناها كوقف له قاضي القضاة في بغداد عبد الله البدرائي وافتتحت في احتفال كبير سنة 655هـ/ 1257م، وأصبحت الحارة الموجودة فيها تُنسب إليها: حارة البدرائية.

(88) في الأصل: تكية سليمانية، التي بناها المعمار سنان عام 1555 بأمر من السلطان سليمان القانوني، وهي الثانية التي بُنيت في دمشق بعد التكية السليمية في جوار جامع الشيخ محي الدين في الصالحية، وكانت

ومنهم من كان عمله تكسير الأحجار بالأجرة تحت الشمس لمصلحة تعبيد الطرق[89]، ومنهم من عمله بتكسير الحطب لأصحابها بالأجرة، ومنهم كآذن في المدرسة أو في الدوائر الحكومية، أو كحارس. وهناك أعمال شاقة كالحفريات كانوا يتحملونها مع ضعف جسمهم عن قلّة غذائهم وهَمّ عيشتهم ضنكا لأنْ لا يضطروا لمدّ أيديهم للناس[90]. ومع ذلك كان أحدهم يوفر عن نفسه من الدرهم، بالنقص في شيء من قوتهم، ولباس يستر العورة ويمنع حرق الشمس وبرد الشتاء. وكانت غايتهم بالتوفير خروجهم من المساجد ومسكنهم في البيوت فهو الأفضل أو الأشرف. وبعد فترة قصيرة يسّر الله سبحانه وتعالى بكرمه وأفرج عنهم حتى استطاع أكثرهم الخروج من المساجد، وسكن كل واحد منهم مع أولاده بيتا نحو حكر السرايا في حارة الذهبية[91] وحكر النعنع[92] وغيرها بالأجرة شهريا. ومنهم من عمّر بالديوانية[93]. وأما والدي المرحوم فما بات في جامع البدرائية وقت دخوله في دمشق مع هؤلاء المهاجرين إلا ليلة واحدة، لأنه بحمد الله تعالى وشكره كان ميسورا بالدفع للإيجار، وأنه قد وجد وقتئذ بيتا للسكن معدّا للإيجار في حي الزينبية تجاه جامع

تضم مطبخا وغرفا لمبيت العابرين وقاعات طعام للفقراء. وقد بقيت تُستخدم لأجل هذا الغرض حتى عام 1950، حين تحولت إلى المتحف العسكري.

(89) في الأصل: تأبيد الطرق.

(90) في الأصل: لا يضطرون إلى تمديد.

(91) من أحياء دمشق القديمة التي امتدّت من حي العقيبة التاريخي باتجاه الشرق نحو جامع الأقصاب.

(92) حي مجاور لحكر السرايا، ويبدو أن المنطقة كانت وقفا ثم حكرا تُزرع بالنعنع إلى أن امتد التوسع العمراني إليها.

(93) كانت الديوانية تشمل البساتين التي تقع شمال مقبرة الدحداح، إلى أن فُتح شارع بغداد العريض عام 1925، وأخذت تظهر مقابل المقبرة المباني الجديدة مثل «معهد اللاييك»، والمقاهي مثل قهوة الشيخ ديب التي كانت تطل على البساتين المذكورة. ووراء المنطقة الممتدة من قهوة الشيخ ديب إلى «معهد اللاييك» برز حي الديوانية منذ عام 1933، الذي انقسم إلى «الديوانية البرانية» وراء قهوة الشيخ ديب، و«الديوانية الجوانية» وراء «معهد اللاييك»، وربط بينهما «جامع الأرناؤوط» في الوسط.

السادات[94] آخر عمارات البيوت بجنب بيت الخطيب المعروف بالرقيّ العالي والأخلاق السامية، الأستاذ المرحوم صلاح الدين الخطيب[95] -رحمه الله تعالى-، وهو معروف في قصر العدلي مدير كاتب العدل. وبعد السكن في البيت المذكور أرسلني والدي في مكتب[96] أهلي للشيخ الحافظ أحمد الداغستاني[97] -رحمه الله تعالى-، وإنه معروف في حي العصرونية قرب دار الحديث بعلمه وزهده وحسن أخلاقه. وقد تعلّمت بكرم الله تعالى عند المرحوم بمساعيه القراءة والكتابة وحسن الخط وزيادة تحسين تلاوة القرآن الكريم بفترة سنتين أو أكثر. وبعد ما تركت المكتب المذكور وانتقل والدي من حي الخطيب وسكن بيتاً في حي العمارة، حارة الذهبية، وكان قرب البيت معلم ماهر بصنعة الأحذية، وكان محلّه -رحمه الله تعالى- في سوق مدحت باشا (لطفي الصباغ)، وإن والدي أرسلني عنده. وبعد فترة سعى لي والدي بالزواج، وبعد مرور أربع سنين تقريبا صرت صانعاً صالحا بعملي. وبعد ذلك سعى لي والدي بمحلّ جنب محله، وكانت مهنته شبه بقالية. وبعدما انفصلتُ من عند المعلم -رحمه الله- صِرت حراً في عملي، اتجهت نحو طلب العلم عند الشيخ العالم نوح الساعاتي[98] -رحمه الله تعالى- في بيته مساء في حكر السرايا. وإنه معروف في حي العقيبة بعلمه وتقواه وزهده.

---

(94) جامع السادات أو جامع السادات الزينبية بُني خارج السور الشمالي لدمشق في العام 631هـ/ 1234، وسُمّي كذلك لإعادة دفن سبعة من أتباع الإمام علي بن أبي طالب فيه.

(95) مع فتح شارع بغداد عام 1925 نشأت حول هذا البيت جادة جديدة نُسبت إليه وأصبحت تُسمّى «جادة الخطيب».

(96) في الموطن الأصلي للمؤلف (الدولة العثمانية) كانت كلمة «مكتب» تعني مدرسة.

(97) الحافظ أحمد الداغستاني (1892-1967) عالم مشهور، ولدينا هناك في المكان نفسه «حي الداغستان» الذي نشأ مع وصول المهاجرين من داغستان بعد الاحتلال الروسي لها في الربع الثالث للقرن التاسع عشر.

(98) المقصود الشيخ نوح نجاتي (1878-1958)، والد الشيخ ناصر الدين الألباني، الذي هاجر إلى دمشق مع أولاده عام 1923.

وكان محلّه في حي العقيبة تجاه جامع التوبة. وكان -رحمه الله تعالى- يصلّي أحيانا في جامع التوبة[99] إماما نيابة عن الشيخ المقرئ المعروف بالعلم والزهد المرحوم عبد الوهاب دبس وزيت[100] -رحمه الله تعالى-. وإني بحمد الله تعالى وشكره قد أدركت في بيت الشيخ نوح رحمه الله تعالى مساء بمساعيه قراءة القرآن الكريم تلاوة بأحكام التجويد وشيئا يسيرا من علم الصرف والنحو، بعد ما كنت لا أميّز بين الاسم والحرف، وبين فعل المضارع والماضي. وعلّمنا الفقه الحنفي كمتن «مُنْيَةُ المصلّي»[101]، وغيرها كرسالة «معدل الصلاة» للإمام البَرْكَويّ صاحب كتاب «الطريقة المحمدية» -صلى الله تعالى عليه وسلم-. وكنا نجلس تجاه المرحوم الشيخ ثلاثة نفر كما هو مطلوب من كل تلميذ أن يكون تجاه أستاذه أديبا واعيا لإرشاداته. وأما أول النفر فهو ابن المرحوم الشيخ نوح -رحمه الله تعالى-، المرحوم محمد ناصر المعروف بعلم الحديث -رحمه الله تعالى-، والثاني المرحوم الشيخ حسين* -رحمه الله تعالى- أصله من قوصووا -رحمه الله-، والثالث الخادم الناقل عبد الرحيم شعبان**.

وبعد ما مرّت علينا ثلاث سنوات ونحن جلوس تجاه الشيخ المرحوم، في كل أسبوع أربعة أيام بالصيف صباحا وفي الشتاء مساء، دون التقطيع قطّ لا في العزائم ولا المناسبات، وكان -رحمه الله تعالى- لا يأخذ لقاء أتعابه بالتدريس شيئا من الأجور ولا بغيره

---

(99) من أقدم جوامع دمشق، بُني عام 632هـ ويمثل العمارة السائدة في العهد الأيوبي. ونظرا لمكانته فقد درّس فيه كبار العلماء عبر القرون، ولدينا في مدخل الجامع قائمة بأسماء من درّسوا فيه منذ تأسيسه.

(100) من علماء دمشق المعروفين، ولد في حي العقيبة عام 1286هـ وتعلّم القراءات واجتهد فيها حتى أصبح أحد أعلامها. درّس في المدرسة الكاملية برفقة شيخ القراء محمد سليم الحلواني إلى أن توفي في صفر 1345هـ.

(101) المقصود كتاب «منية المصلّي وغُنية المبتدي» لسديد الدين الكاشغري (توفي 1305م).

* الشيخ حسين رحمه الله تعالى هو والد الأستاذ المعروف عبد اللطيف حسين الأرناؤوط.

** ملاحظة: وإني لا أدري ممن طلب العلم غير ما ذكرته سوى بعض الطلبة يحضرون في بيت الشيخ نوح رحمه الله تعالى، وإني لا أدري أسماء هؤلاء الطلبة شيئا سوى إتيانهم عند الشيخ المذكور لطلبهم علم النجوم في ما يتعلق بالصيام والأعياد... إلخ.

كالعبادات وفي ما يتعلق بالجنائز، وكان قنوعا بعمل يده بتصليح الساعات -رحمه الله تعالى-. وفي المدة الأخيرة[102] اضطررتُ بالانفصال عن الدروس مع الأسف لكثرة تعبي في المحل بالأحذية، لأنّ العمل كان بيدي دون عامل عندي.

ومع ذلك كان رحمه الله تعالى يأتي عندي في المحل أحيانا، وكان يحبّ المناظر الجميلة خالية عن كثرة الازدحام، وأنا كنت أرافقه حيث شاء وأحيانا نذهب يوم الجمعة في منطقة دوما بالترين أي التّرَامْوَايْ، وبعد ما نصلّي هنالك الجمعة فنذهب مشي الأقدام من دوما إلى عين سخنة يقال (لها) فاسريا[103]. وكذا كان إيابنا قبل غياب الشمس بعدما نصلي المغرب بدوما نصل إلى الشام سالمين مسرورين، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفي عام 1943 عُيّنتُ مؤذنا بجامع البدرائية في حي العمارة الجوانية من مديرية الأوقاف بدمشق. وكان إمام جامع البدرائية العالم الفاضل الشيخ المرحوم حسن الشطّي[104] -رحمه الله تعالى-، وإنه كان وقتئذ مدير المدرسة الكلية الشرعية في حي العمارة الجوانية في زقاق النقيب. وكنت أصلي إماما نيابة عنه* في بعض الأوقات في أثناء دوامي لحفظ القرآن الكريم بالتجويد عند المقرئ الشيخ فائز الديرعطاني[105] -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. وبعد فترة من الزمن نصحني أحد القراء -رحمه الله تعالى- قال: قراءتك بأحكام التجويد جيدة إلا أن لهجة قراءتك لهجة العجم، وإذا قرأت عند الشيخ الحافظ المقرئ فائز الديرعطاني فإنه معيّن من مديرية الأوقاف خاصة للأئمة في مدرسة

---

(102) في الأصل: مدة الأخيرة.

(103) عين مياه معدنية كان زوار دوما يترددون إليها، لكنها نضبت ونُسيت مع الجفاف والتمدد العمراني.

(104) الشيخ حسين الشطي (1880-1962): كان عالما وقاضيا معروفا في الشام، وأصبح أول عميد لكلية الشريعة التي تأسّست عام 1942.

* ملاحظة: وإني أخطأت بالتعبير عُيّنتُ مؤذّنا إلخ، وإنما عُيّنتُ مؤذّنا إلخ بعد ما أنهيت، أي بعد ما ختمت القرآن نهائيا بأحكام التجويد عند المرحوم المقرئ فائز ديرعطاني رحمه الله تعالى.

(105) شيخ القراء فايز الديرعطاني (1894-1965) بقي أيضا فترة طويلة إماما لجامع التوبة.

الكاملية في حي البزورية، (و)الدوام صباحا من السابعة والنصف حتى الساعة التاسعة. وكان الجواب مني جزاك الله خيرا.

وبعد ذلك، (فعلت) كما أشار إليَّ الأخ الناصح* -رحمه الله تعالى-، بشوق وبرغبة دون تردد، وقد وفقني الله تعالى بكرمه أن أُعيد تلاوة القرآن الكريم مرة أخرى عند المقرئ الشيخ الفاضل المرحوم فائز الديرعطاني -رحمه الله تعالى-، وهو معروف بعلمه الواسع وحُسْن سلوكه الممتاز بوجوه القراءات القرآنية الكريمة وتلاوتها الحقيقية مما اقتبس -رحمه الله تعالى- بقلبه من نور القرآن الكريم من أستاذه شيخ القرّاء المرحوم الحلواني -رحمه الله تعالى-، الشهير في حي العقيبة وإمامها في جامع التوبة[106].

اللهم برحمتك افتح لنا وللمؤمنين والمؤمنات الذين سبقونا بالإيمان أبواب الجنة والغفران يوم تشيب فيه الولدان، وصلى الله وسلم على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وذريته.

الناقل التلميذ عبد الرحيم بن المرحوم زين العابدين شعبان الواقع عام 1421هـ في جمادى الآخرة، وعام 2000، 18 أيلول.

---

* الناصح المرحوم الأستاذ عبد الحميد كريّم المعروف صاحب المدرسة في حي العقيبة رحمه الله تعالى. عبد الحميد كريم (توفي 1976): كان مدرسا في المدرسة الكاملة وإمام جامع الشامية.

(106) الشيخ سليم الحلواني (1868-1944): ابن شيخ القراء في الشام أحمد الحلواني، وأخذ هذا اللقب عام 1889. كان مدرسا في المدرسة الكاملية وله حلقة علمية في جامع التوبة.

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قطعة تاريخ حياة عبد الرحيم شعبان . تولد ١٩٠١٢

حين هاجر المرحوم والده زين العابدين شعبان من

وطنه المعروف منطقة اسلامية : قوصوه عام ١٣

وانه جاء مع اسرته بالشام بقصد اقامته طول حياته

والسكن كانت في غرف مسجد التكية في الغيرية ......

مملوء فيها من المهاجرين ومما يشكر من احياء تلك المنطقة

بمساعدتهم الفعلية لهؤلاء الذين تركوا ديارهم حفظاً [illegible]

وعشيرتهم (من طعام ولباس وغيرهما . نسيت

(ان الله لا يضيع اجر المحسنين) ......

وان بعد بضعة اشهر جاء امر من قبل دولة العثمانية

ان كلا من الموجودين في سوريا من المهاجرين باخراجهم

منها وسوقهم الى مناطق تركيا : كمنطقة آضنه :

وبلدة : كلس : وغيرهما : وان لكل صاحب عائلة

دار للسكن وارض للزراعة على حساب الدولة :

وفعلا قد نال كل صاحب حق حقه مثلما خصص له كما ذكر

وبعد فترة من الزمن فقد فتحت ابواب الحرب للبشر من الخوف

والجوع والامراض بأشكالها . والموت والفوضى كقتل الناس

طمعاً بماله او بغيره كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ

وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ

قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . الى آخر الآية . سورة البقرة

الورقة الأولى لمذكرات عبد الرحيم عابدين

٧

(١)

وبعد فترة من الزمن نصحني احد القراء رحمه الله تعالى

الى ... قراءتك باحكام التجويد جيدة الان لكن قراءتك

... واذا قرأت عند الشيخ الحافظ المقرئ فائز الديرعطاني

فانه معين من مديرية الاوقاف خاصة للائمة :

في مدرسة الكاملية في حي البزورية : الدوام صباحا من السابعة

... حتى الساعة التاسعة :

وكان الجواب مني جزاك الله خيرا : ...

... كما اشار الي الاخ الناصح رحمه الله تعالى

و اني بشوق ورغبة دون تردد وقد وفقني الله تعالى بكرمه

ان اعيد تلاوة القرآن الكريم مرة اخرى .

عند المقرئ الشيخ الناضر المرحوم فائز الديرعطاني رحمه الله تعالى

وهو معروف بعلمه الواسع وحسن سلوكه الممتاز

بوجوه القراءات القرآنية الكريمة وتلاوتها الحقيقية

مما اقتبس رحمه الله تعالى : بقلبه من نور القرآن الكريم

من استاذه شيخ القراء المرحوم الحلواني رحمه الله تعالى

الشهير : في حي العقيبة واماما في جامع التوبة .

اللهم برحمتك افتح لنا وللمؤمنين والمؤمنات الذين

سبقونا بالايمان ابواب الجنة والغفران يوم تشيب فيه الولدان

وصلى الله وسلم على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله ...

المتنقل ... عبد الرحيم بن المرحوم زين العابدين شعبان

الواقع عام هـ/ ١٤٢١ في جمادى الآخرة وعام م/ ٢٠٠٢ ايلول/ ١٨

(١) الناصح الاخ ... الاستاذ عبد المجيد ... رحمه الله تعالى ... العقيبة

الورقة الأخيرة لمذكرات عبد الرحيم عابدين

ذكريات عبد الوهاب إسلام جلال الدين

(1917– 1980)

تنبع قيمة هذه الذكريات من كون كاتبها ابن عالم معروف في موطنه الأصلي (كوسوفا)، ألا وهو الحافظ إسلام بريشتينا (توفي 1929)، الذي كان فقيها وشاعرا يعمل في مدرسة معروفة في بريشتينا، إلى أن شنّت دول التحالف البلقاني (صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان) حربها على الدولة العثمانية في تشرين الأول/ أكتوبر 1912، واحتلت القوات الصربية كوسوفا الشرقية وفق الاتفاقات السرية التي كانت بين الدول المذكورة. ونظرا لما صاحب تلك الحرب من فظائع ضد المدنيين المسلمين، أشرنا إليها في السابق، فقد آثر الحافظ إسلام الهجرة إلى دمشق مع أسرته عام 1913. في الطريق إلى دمشق كانت كلّس محطة للألبان نظرا للوجود الألباني فيها، فقد كانت بعض الأسر ترتاح شهورا بعد هذا الطريق الطويل قبل مواصلة الطريق إلى دمشق. وقد ازداد عدد المجموعة (حوالي عشرة) التي قادها الحافظ إسلام إلى دمشق بعد أن رُزق بولدين في كلس: صاحب المذكرات عبد الوهاب وإبراهيم حقي.

وهكذا لدينا في هذه الذكريات معلومات قيمة عن الجيل الأول من «المهاجرين الألبان» الذين وصل معظمهم إلى دمشق واستقرّوا فيها خلال الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، وخلال الدولة الفيصلية (1918–1920)، ثم خلال العقد الأول للانتداب الفرنسي على سورية (1920–1930)، وعن تنقلّهم في أكثر من محلة إلى أن بنوا محلة صغيرة مع جامع حمل اسمهم (جامع الأرناؤوط). من بين هؤلاء الألبان المهاجرين الذين كانوا بغالبيتهم من الريف، كان لدينا ثلاثة علماء بمفهوم ذلك الزمان (الحافظ إسلام، والشيخ نوح نجاتي، والشيخ حمدي بختيار)، وكانت لهم مكانتهم وسط الجيل الأول من الألبان المهاجرين في دمشق، فقد تردّد عليهم واستفاد من علمهم الجيل الثاني الذي نشأ في

دمشق (الشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، والشيخ شعيب الأرناؤوط). كما بقيت للشيخ نجاتي والحافظ إسلام مكانتهما في موطنهما الأصلي، إذ نظم الحافظ إسلام قصائد لتُنشد في الاحتفال بالمولد النبوي وأرسلها إلى موطنه الأصلي.

من هنا تمثل هذه الذكريات للابن مرجعا مهما عنه وعن الوالد، واستمد بعضها من والدته وحيدة (1892-1980)، ولا نجدها في أي مصدر آخر، فهي تكشف مدى معاناة الحافظ إسلام في الوسط الجديد بعد أن كان يتمتع في بريشتينا بلقبين يوفران له الاحترام والعيش الكريم: الحافظ والمدرّس. فبعد الطريق الشاق تنقّل الحافظ إسلام ما بين حي المهاجرين ودمشق القديمة، واضطر إلى العمل في بناء المساكن لتدبير لقمة العيش. لكنه بقي مواظبا على علمه فاتحا بيته لمن يرغب في التعلّم من الشباب واستقبال مجايليه من الكبار، ومتوليا إمامة الجامع الصغير المجاور لمقبرة الدحداح، حيث دفن بعد وفاته عام 1929.

وفي الواقع تقدّم هذه الذكريات وصفا مؤثرا لمدى المعاناة التي عاشها الأولاد بعد وفاة الوالد ودور الوالدة وحيدة في تماسك العائلة، وكذلك دور الأقارب والمعارف في التضامن مع الأولاد إلى أن كبروا وشقّوا طريقهم في الحياة. وفي هذا السياق تكشف هذه المذكرات عن أمر مهم لا نجده في أي مصدر، ألا وهو مسارعة الجيل الأول من المهاجرين الألبان في مساعدة بعضهم البعض، حين قرروا عام 1933 بناء حارة لهم في منطقة زراعية (شمال شارع بغداد خلف مدرسة اللاييك) كانت تدعى الديوانية، حيث نشأت مع الزمن حارتان يربط بينهما «جامع الأرناؤوط»: الديوانية البرانية والديوانية الجوانية. وهكذا تساعد هذه المذكرات على استعادة الظروف الصعبة التي كان يتساعد فيها الجميع على بناء حائط وغرفة واحدة على الأقل تُسكَن قبل أن تقوم البلدية بهدمها.

ونظرا لأن معظم الديوانية الجوانية، بما في ذلك الجامع الخاص بها، هُدمت بسبب التحديث العمراني في نهاية ستينيات القرن الماضي؛ لأجل عقدة الطرق الجديدة مقابل جامع الإيمان، وانتقل سكّانها إلى أحياء أخرى في دمشق، توفّر لنا هذه المذكرات معطيات

عن أسماء الجيران في الزقاق الذي اكتمل بالبيوت التي بُنيت آنذاك، مما يساعد على رسم خريطة لبيوت السكان الأوائل الذي بنوا تلك الحارة.

تتكون تلك الورقة من تسع صفحات مكتوبة بخط مقروء، وتحتوي كل صفحة على 12 سطرا. وقد احتاج الأمر، كما هو متبع في هذه الحالة، إلى ضبط النص وتصحيح بعض المواضع، والتعريف بأسماء الأشخاص والمواضع التي ورد ذكرها هنا. ولا يسعني إلا أن أشكر حفيد الحافظ إسلام الأخ زهير جلال الدين، الذي حافظ مشكورا على تراث الجدّ، على تقدمة صورة من هذه المذكرات وتوضيح بعض الأمور عن أفراد الأسرة والأقارب.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله وصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين إلى يوم الدين. أمّا بعد، فقد كانت تعاودني فكرة بأن أكتب شيئًا من تاريخ حياتي منذ زمن لتكون ذكرى بما بَدَرَ منّي من تقصيرٍ في حقّ الله عزّ وجلّ، واستغفاراً وإنابةً إليه سبحانه وتعالى الغفور الرحيم الحليم الكريم، راجيًا عفوه وإحسانه ورحمته التي وسعت كل شيء، وسبحانك اللهم إنّي كنتُ من الظالمين وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

أقول أنا الفقير إليه -سبحانه وتعالى-، عبد الوهاب بن إسلام بن عبدالكريم جلال الدين المهاجر في سبيل الله من بلده بريشتينا من بلاد الأرناؤوط/ يوغوسلافيا[107] مع والدته وزوجته، والدتي وحيدة بنت أحمد، عليها وعلى والديّ الرحمة من الله عزّ وجلّ، بعد ما غُلبت الدولة العثمانية وأُلغيت الخلافة الإسلامية، ودخل الأعداء بلاد والدي وفُتن المسلمون هناك ووقع عليهم ظلم كبير، فبقي هناك من بقي، وهاجر من هاجر، ومنهم كان والدي وذويه ابن أخته محرّم بن عاكف[108]، وإسماعيل بن يوسف[109] ثم والدته من

(107) بريشتينة أو بريشتينا Prishtina ورد ذكرها كقرية لأول مرة في 1342م حين أصبحت ضمن مملكة صربيا بعد توسّعها، وبعد معركة كوسوفا المعروفة التي جرت في ضواحيها عام 1389 بدأ الوجود العثماني فيها ببناء أول جامع (جامع السوق) في نهاية القرن الرابع عشر ليصبح نواة لمدينة بطابع شرقي حتى عام 1912، حين ضُمّت إلى صربيا ثم إلى يوغوسلافيا في العام 1918. بعد تأسيس يوغوسلافيا التيتوية في 1945 أصبحت عام 1948 عاصمة لإقليم كوسوفا مع حكم ذاتي للألبان ضمن جمهورية صربيا، ثم عاصمة لجمهورية كوسوفا بعد استقلالها عن صربيا في العام 2008.

(108) محرّم عاكف ابن عائشة أخت الحافظ إسلام، من أوائل الألبان الذين اشتغلوا في وظائف حكومية، فقد اشتغل موظفا في قلعة دمشق خلال الانتداب الفرنسي، وبعد تقاعده اشتغل في العقارات إلى وفاته عام 1976.

أقربائنا، إلى بلاد المسلمين في تركيا حيث مكثوا فيها سنين في بلدة قرب سورية تُدعى كِلّس. وفيها وُلدَ أخوايَ، عبد الغني وإبراهيم حقّي، ثم انتقلوا إلى بلاد الشام، وكانت وجهة هجرتهم الأصلية، وحلّوا في مدينة حمص ثم انتقلوا منها إلى دمشق الشام حيث استقرّوا، ولا أدري تاريخ السنة التي هاجروا فيها. وكان مسكنهم في دمشق في حيّ يقال له المهاجرين نسبةً إلى كثرة سكّانه الذين هاجروا من الولايات العثمانية بعد انسحابهم منها[111]. وفي هذا الحي ولدّتُ وكان تاريخ ولادتي 1348 للهجرة بعد أخوات بنات ولِدن قبل أخويّ وبعدهم وتوفّين إلى رحمة الله عزّ وجلّ[112]، كذلك توفيت جدّتي أمّ والدي عليهما رحمة الله تعالى. وكان والدي رحمه الله عالماً متفقّهاً ويدعونه بالحافظ إسلام[113]، تقيّاً وَرِعاً ذا نفسٍ عفيفة كريمة مع فقره وحاجته؛ إذ نفد ما كان جلبه معه من مال مما آل إليه من بلده.

وكان يعمل أحياناً في بناء المساكن ليكسب قوته وقوت عياله ويأبى أن يمدّ يده لمن يجود عليه بصدقة، راضياً بما قسم الله له من الرزق شاكراً له أنعمه سبحانه وتعالى. وكانت

---

(109) قريب وحيدة زوجة الحافظ إسلام. اشتهر باسم إسماعيل بريشتينا أو الحاج إسماعيل، ترك حي الديوانية وسكن مع زوجته أباجيك مقابل محطة القطارات بالقدم، حيث تأسست في خمسينيات القرن الماضي نواة حارة للأرناؤوط. توفي عام 1967 دون أن يخلف ذرية.

(111) تأسّس حي المهاجرين على سفح جبل قاسيون مع قيام والي دمشق العثماني ناظم باشا بإسكان المهاجرين المسلمين القادمين من جزيرة كريت نتيجة للتوترات التي سادت في الجزيرة بين المسلمين والمسيحيين خلال الحرب العثمانية – اليونانية عام 1897، ثم انضم إليهم مهاجرون من الشركس والشيشان والألبان وغيرهم.

(112) توفيت عدة بنات للحافظ إسلام خلال هجرته من بريشتينا إلى بلاد الشام، بينما توفيت في حي المهاجرين ابنته عائشة ودفنت في مقبرة زين العابدين هناك.

(113) الحافظ لقب لكل من حفظ القرآن، وكان صاحبه يتمتع باحترام في المجتمع الألباني خلال الحكم العثماني حيث كان حفّاظ القرآن لهم مكانتهم:

Feti Mehdiu, Hafizët tanë gjatë historisë (shek. XVII-XX), Prishtinë (Shoqata e orientalistëve të Kosovës) 2010.

داره لا تخلو من الضيوف من إخوانه المهاجرين الذين كان لهم بمثابة المرشد وكذلك أهل الحي من سكانه العرب. وكان يحكم بلاد الشام وقتئذٍ الكفرة (الفرنسيون) بعد انسحاب الجيوش العثمانية من ولاية سورية كما كانت تدعى آنذاك. ثم مرض والدي المرض الذي لم يُشفَ منه وبقي يعاني منه مدةً، ثم أشار عليه إخوانه أن يسكن داخل دمشق، فانتقل من سكنه في حي المهاجرين الواقع على جبل قاسيون إلى حيّ يُقالُ له حيّ الزينبيّة[114]. وكانت بيوت هذا الحي ملاصقة لبساتين دمشق من ناحية الشمال التي تمتدّ وتتصل ببساتين الصالحية[115]. واستقرّ والدي في هذه الدار يعاني المرض، ووالدتي المسكينة الوفيّة المخلصة الصابرة على مُرِّ العيش تخدمه وتواسيه مدّة حياته، إلى أن وافاه الأجل المحتوم مهاجراً في سبيل الله محتسباً ودُفن في مقبرة الدحداح في دمشق[116]. ولا أدري كم عاش من العمر عليه رحمة الله ومغفرته ورضوانه، وجعل قبره روضةً من رياض الجنّة، وجمعنا معه يوم القيامة تحت ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وجزاه الله عنّا خير الجزاء إذ هاجر إلى بلاد الشام ووُلِدنا بها واستوطنّا أرضها الطاهرة.

وكانت سنّي إذ ذاك لا تتجاوز ثلاثة أعوام، لذلك لا أذكره. وقد حلّ بوالدتي التقيّة المخلصة حزنٌ عظيم على فقْدِهِ وعلينا، إذ كنّا صغاراً لا حيلة لنا. فقد كانت سنّ أخي عبد الغني لا تتجاوز ثلاثة عشر ربيعاً، وكذلك أخي إبراهيم حقّي الذي يصغره بعام واحد. وكان أخي الأكبر قد وَضَعَهُ والدي ليشتغل نجّاراً، بعد أن تعلّم القرآن الكريم والقراءة والكتابة في أحد بيوت العلم التي كانت تُدعى آنذاك بالمكتب أو الكتّاب، إذ لم تكن

(114) حي الزينبية يجاور جامع السادات الزينبية الذي بُني خارج السور الشمالي لدمشق في العام 631هـ/ 1234، وسمي كذلك لإعادة دفن سبعة من أتباع الإمام علي بن أبي طالب.

(115) المقصود بساتين حي الصالحية التي تمتد حتى سفح جبل قاسيون حيث بنى المهاجرون الألبان حارة لهم مع «جامع الأرناؤوط».

(116) من أقدم مقابر دمشق الإسلامية، كانت تُسمّى سابقا مقبرة الفراديس نسبة إلى باب الفراديس شمال دمشق باعتبارها خارج السور، ثم سُمّيت على اسم شيخ الإسلام أحمد أبي الدحداح الدمشقي، وأصبح حدّها الشمالي محصورا بشارع بغداد الذي فُتح عام 1925.

المدارس اللهمّ إلا مدارس قليلة تُعدّ بالأصابع لقلّتها، ولم يكن باستطاعة والدي -عليه رحمه الله- أن ينفق على تعليم أخويّ في ذلك العهد. وكان ابن أخت والدي محرّم شاباً قوياً يشتغل موظفاً في الحكومة، فتكفّل بنا ونقلنا إلى داره في حي الذهبية[117] في دمشق. وكانت داراً صغيرة بها غرفتان يقطنها مع زوجته حسيبة أمّي وأمّ أخي بالرضاعة عبد الحليم بن محرّم، فأخلى لنا (والدتي وإخوتي) غرفة وأبقى له غرفةً مع زوجته وولده، فسرّى بذلك العمل عن والدتي من الحزن قدراً كبيراً وشعرتْ أنها ليست غريبةً ولا وحيدةً. ودامتْ هذه الرعاية منه ومن زوجته أم عبد الحليم وحسين صادقة كريمة. وكان أصحاب والدي ممن هاجروا مثله لا ينقطعون عن الإحسان إلينا، وأذكر وأنا طفلٌ صغير عندما يرونني يمسحون على رأسي ويكرمونني بالنقود وغيرها. ولا أنسى مرةً عندما ظهر في فمي سنٌّ أعوج استفحل وصار بحيث لا بدّ من قلعه، فبادر أحد معارف والدي وكان يدعى الحاج[118] رجب -عليه رحمة الله ومغفرته- وأخذني إلى طبيب الأسنان وعالجني. وفي العودة إلى البيت اشترى لي حذاءً بدل القبقاب الذي كنت ألبسه، وقطعة قماش بدل الثوب البالي الذي كنت ألبسه، ثم شيئاً من الحلوى. وأوصلني إلى بيته لتقوم زوجته -عليها رحمة الله وبركاته- فتوصلني إلى داري لعند والدتي الحزينة سليماً معافى مكرّماً مُدخلاً السرور العظيم على قلبها المكلوم، فاللّهم أجزِه عنّا خير الجزاء واجمعنا معه تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلّا ظلّك.

وكان أخي الأكبر يشتغل نجّاراً كما ذكرتُ من قبل، وأخي الثاني حقّي اشتغل عند أُناسٍ كرام مؤمنين يعملون في صناعة تحليل[119] خيوط الحرير في الطريق الممتدّ من حيّ الذهبيّة الذي كنّا نقطنه جميعاً إلى الطريق المسمّى شارع بغداد الذي شقّه الفرنسيون المحتلّون

(117) حي الذهبية هو امتداد محلة العمارة التي بُنيت مقابل باب الفراديس، ويقع شرق مقبرة الدحداح.

(118) كان هناك بين الألبان رجب عثمان أو رجب طاهر، وليس من الواضح من المقصود.

(119) المقصود حلّ خيوط الحرير المتشابكة كما سيوضح المؤلف لاحقا. ويبدو أن هذه المنطقة كانت تشتهر بذلك لأن الحي المجاور باتجاه الشرق كان يسمى حي القزازين.

عبر بساتين دمشق من جهة الشمال[120]، وخلف هذا الطريق، طريق الذهبيّة، تقع مقبرة الدحداح التي دُفن فيها والدي -عليه رحمة الله ومغفرته-. وكانت هذه الصناعة تستلزم طريقًا طويلاً حيث تُنصب الأعمدة بصورةٍ متقاربة، ثم توضع عليها خيوط الحرير الطويلة ليُحلّلَ ما تشابك منها لكي يستقيم لفّهُ على محوره في المِنْسَج الذي يدعى «النّول»، ثم يُنسَج قماشًا حريراً فاخراً يلبسه كرام أهل دمشق وأغنياؤها، ويُسمّى الثوب منها الذي يغطّي الجسم من الكتفين إلى الكعبين الصّايَة. هذه كانت صنعة أخي حقّي، وكان معلّموه الشيخ عبده الزاهد التقي وأبو شاكر ممن عرفوا والدي في حيّ الذهبيّة الذي كان به مسجدٌ صغير تطوّع والدي لإمامته، فأحبّه أهل الحيّ[121]، وكان هذا قبل مرضه عندما كان في حيّ المهاجرين. وكان كثير من المهاجرين الأرناؤوط يسكنون هذا الحيّ والأحياء المجاورة له. أقول كان هؤلاء (معلّمو أخي) يُكرموننا ويعطون أخي أجرةً حسنة، وفي مواسم الخير كشهر رمضان والعيدين كانوا يجلبون لنا من سوق القماش خلف الجامع الأموي بدمشق كسوةً من القماش لوالدتي وإخوتي وربما الأحذية والنقود والحلويات، ويرسلون نساءهم إلينا في الأعياد وغيرها ويدعوننا لبيوتهم، فاللهم اغفر لهم وارحمهم واجزِهم عنّا خير الجزاء.

ثم بعد فترة من الزمن خَلَتْ دارٌ قريبة من دار كافِلنا الحاج محرّم الذي كان قد أدّى فريضة الحجّ فانتقلنا إليها، وكانت داراً تحوي غرفةً كبيرةً ومطبخًا وفسحةً سماويّة، وكان بها شجرة عنبٍ كبيرة تظلّل البيت، ومن جوارنا فيها عبد الحميد والحاج عابدين -عليهما

(120) بُني هذا الشارع العريض خلال الانتداب الفرنسي عام 1925 بين البساتين، لينطلق من مركز دمشق (ساحة السبع بحرات) نحو حي القصاع بشرق دمشق، وسُمّي بذلك لأنه كان الطريق إلى بغداد أيضا، وبنيت على جانبيه لاحقا العمارات التي وسعت من دمشق باتجاه الشمال والشرق.

(121) المقصود مسجد عبد الرحمن بن أبي بكر الذي يوجد ضريحه داخل المسجد، ويقع مقابل مقبرة الدحداح من جهة الشرق مباشرة، ولا يفصله عنها سوى الشارع الفرعي المؤدي إلى شارع بغداد.

رحمة الله وبركاته-[122]. وكانت والدتي التقيّة الصابرة المحتسبة تسدّدُ أجرة الدار كل شهر بما يبقى معها من نقود مما يشتغل أخوايّ به، وما يجود به علينا المُحسنون، فجزاهم الله خيرا. ومن هؤلاء صديق الوالد الذي اجتمع به في كِلّسْ التي مرّ ذكرها، الحاج كاظم وزوجته حميدة[123]، اللذان كانا يزورانا دائماً وينامان عندنا ويحسنان إلينا. ومنهم أبو عبد القادر وزوجته الحاجّة عزيزة[124] التي كانت تأخذ والدتي لدارها وأنا معها وتُحسنُ إليها بالمتاع والنقود والطعام، وكذلك عبد الرحمن أبو أيّوب وزوجته أم أيّوب وأولادها، وأخوها الطاهر التقي الحاج رامز، والحاج مصلح وزوجته فاطمة أمّ أولاده إخواننا وأصدقائنا حمدي أبو سليمان وأخوه يوسُف أبو عبد القادر[125] وكثيرٌ غيرهم، فاللّهم اغفر لهم وارحمهم واجزهم عنّا خير الجزاء وأدخلهم جنّتك التي وعدّت الصالحين من عبادك.

ومكثنا مدّة على هذه الحال إلى أن أقدمَ بعض المهاجرين الأرناؤوط، وكانوا يسمّون بعضهم بعضاً بهذا الاسم تيمّناً وأسوةً بالنبي -صلىّ الله عليه وسلّم- وأصحابه -عليهم رضوان الله ومغفرته-، على شراء قطعٍ من الأرض ليبنوا عليها دوراً يسكنونها[126]، فحدّثَ

---

(122) المقصود زين الدين عابدين والد الشيخ عبد الرحيم عابدين، الذي ترك مذكرات أيضا عن هجرته مع والده إلى دمشق تتضمن معطيات قيمة عن أوضاع المهاجرين في السنوات الأولى، وقد ترجمت أولا إلى الإنكليزية والألبانية وتنشر هنا في العربية لأول مرة:

Muhamed Mufaku, «Unpublished manuscript about the Albaniian *Hijr* from Ottoman Kosova to Syria as a result of the Balkan Wars 1912-1913», Studime Orientale 6, Prishtin; 2021, pp.99-115.

(123) لم نستطع التعرف عليه.

(124) المقصود صوقول عبدولي (Sokol Avdyli) والد الشيخ قدري أو عبد القادر الأرناؤوط وزوجته عزيزة ماجاري (Azize Maxharaj)، وهما جدّي وجدتي رحمها الله.

(125) هؤلاء من الجيل الأول للمهاجرين الألبان وأولادهم الذي سنخصّص لهم ملحقا.

(126) المقصود حي الأرناؤوط في بساتين الديوانية الذي بنى البيت الأول فيه جدّي صوقول. ونظرا لأن بناء البيت في منطقة زراعية كان يمثل مخالفة فقد جاءت شرطة البلدية، حسب ذكريات الوالدة حنيفة بلاكاي (Hanife Blakaj) (1923-1995)، لتهدمه. وعندما فهم صوقول بصعوبة ما تريده الشرطة قال لهم بعربية مكسرة إنهم جاؤوا مهاجرين هربا من الظلم، وإذا أرادوا أن يهدموه فليهدموه على رؤوسهم، ثم

الحاج محرّم -رحمه الله- والدتي بهذا الأمر. وكانت والدتي التقيّة الصّالحة تدّخرُ من النقود التي يجود به أهل البرّ والإحسان علينا بعد سدّ ما نحتاج إليه، فأخبرته أن معها قليلاً من المال، فاقترح عليها أن نشتري به قطعةً من الأرض ونعمّر بها غرفةً نأوي إليها ونرفع عن كاهلنا همّ سداد أجرة الدار، فكان اقتراح خيرٍ وبركة. واشترى لنا قطعة أرضٍ في المنطقة التي اشترى بها المهاجرون وسُمّيت فيما بعد الديوانيّة، وكذلك له بِجَنْبِنا. وكان يجاورنا فيها جلال الدّين والحاج مصطفى ومراد ومحرّم وأبو أيّوب وغيرهم[127]. وبعد شراء الأرض لم يبق مع والدتي من المال ما يكفي لبناء غرفةٍ على تلك الأرض، لكن الحاج محرّم -رحمه الله تعالى وجزاه عنّا كل خير وأسكنه فسيح جنّته مع الصدّيقين والشهداء والصالحين- بدأ العمل، فحفر أساس الغرفة وصنعوا ما كان يسمّى «البلوك»، وهو من الرمل والإسمنت، وبنى الجدار وجاء بما يلزم من الخشب للسقف، ثم هرع أهل الخير من المهاجرين الذين لهم خبرةٌ بأعمال النجارة، أذكر منهم الحاج لطفي[128] الذي كان ذا صلةٍ كبيرة بالوالد، ومحمود رجب الذي تزوّج عائشة التي أصبحت يتيمةً في مدينة كِلِّسْ وليس لها أحد، فآواها والدي إلى داره وعاشت معنا كفردٍ منّا[129]، ومحمّد أبو أحمد وفخري أبو فؤاد ابني الصالح التقي الحاج نوح من مهاجري إشقودرا في ألبانيا ووالد أستاذنا الشيخ ناصر، وأخانا وصديقنا الشيخ منير أبو عبدالله -عليه وعلى والده رحمة الله وبركاته-[130].

دخل البيت مع الأولاد وأقفل البيت. وبعد فترة من الحيرة عاد رجال الشرطة، فبقي البيت ثم بدأت البيوت الأخرى تبنى مساء الخميس ويوم الجمعة بطريقة الفزعة لتسكن فورا، حتى إذا جاء السبت يجد رجال الشرطة البيوت مسكونة، إذ لم يعد يُسمح بهدم البيت المسكون.

(127) هؤلاء أيضا من الجيل الأول للمهاجرين، انظر عنهم الملحق.

(128) الحاج لطفي جمال شقيق لطفي جمال مدير مدرسة الإسعاف الخيري ووالد الشيخ أمين لطفي، وزوّج ابنته جميلة لعبد الغني الابن الأكبر للحافظ إسلام.

(129) كان أبوها رام أو رمضان ديشيشكو، الذي مرض وتوفي في كلس قبل متابعة طريقه إلى دمشق.

(130) المقصود هنا الشيخ نوح نجاتي (1878-1958) الذي هاجر من ألبانيا مع أولاده إلى دمشق في 1922 احتجاجا على إصلاحات أحمد زوغو العلمانية في ألبانيا. ويرد هنا أسماء بعض أولاده الذين اشتغلوا في مجالات مختلفة وأشهرهم الشيخ ناصر الدين الألباني (1914-1999).

وفي ليلةٍ واحدة تمّ عمل السقف وكان الوقت صيفـًا، وفي الصباح انتقلنا من الدار التي كنّا نستأجرها في حي الذهبية مع متاعنا القليل البسيط إلى تلك الدار الجديدة ذات الغرفة الواحدة التي ذكرنا. وما حلّ المساء حتى كانت والدتي الصالحة الصابرة قد كَنَسَتْ أرض الغرفة الترابيّة ومدّت عليها ما كُنّا نملكه من فرشٍ بسيط، وعمدتْ إلى أكياسٍ من الخيش فعلّقتها على النوافذ كستائرَ حيث لا نوافذَ خشبية وكذلك باب الغرفة الذي لا بابَ له فعلّقتْ عليه كيسـًا من الخيش أيضـًا، ثم أوقدتْ المصباحَ النفطيّ (الكاز) وجاءتنا بالطعام الموجود فأكلنا ونِمنا على الفراشِ الذي مدّته على أرض الغرفة ولم تنم لأنّ الخوف كان يشغل قلبها علينا، حيث فناء الدار لا يزيد علوٍّ جداره على ذراعين، ثم لا باب له ليغلق وحولنا بساتين وجوارٌ قليلون. فلمّا أصبحنا ذهب أخواي إلى عملهما وبقيتُ مع والدتي التقيّة الصّالحة المؤمنة، وهكذا بَنَتْ لنا البيت الذي ترَعْرعْنا فيه وانْسترنا به، ولم يمضِ وقتٌ يسيرْ حتى جاء صديق الوالد الحاج لطفي، -وكان يعملُ نجّاراً-، بنافذتين وباب للغرفة الوحيدة وركّبهما ووضع الزجاج فَكَمُلتْ الغرفة بذلك، فجزاه الله عنّا كل خير.

ثم بعد مدّةٍ جاء كافِلنا الحاج محرّم، عليه رحمة الله وبركاته وأسكنه فسيح جنّاته وأمَدَّ الله في عمر زوجه أمّي الثانية في الرّضاعة ومُؤنسة والدتي في وِحشتها، وبنى داره بملاصقة دارنا، ووضَعَ لنا بابـًا لفناء الدار وفرشَ أرضَ الغرفة بالإسمنت وطَلى لنا جدرانها بالطين الأحمر الذي كان شائعـًا وقتها، وحفر لنا بئراً وركّبَ عليه مضخّةً، فصار لنا بذلك قصرٌ جميل، بنى الله له قصراً في جنّة الفردوس، وتمّتْ بذلك نعمة الله علينا. وسكنتْ جوارح والدتي وهدأ قلبها الحزين الكسير، وكانت سنّي إذّاك قد قاربتْ السابعة. وما ذكرتُه منه ما كانت تقصّهُ عليّ والدتي التقيّة الصّابرة المحتسبة، ومنه ما وعَيتُهُ وأدركتُه. ثم أشار على والدتي الرحيم الحاج محرّم أن أذهب مع ابنه عبد الحليم أخي من الرّضاعة إلى المكتب الذي كان شيخه الشيخ حمدي من المهاجرين من معارف الوالد[131]، وكان يُعلّمُ فيه القرآن

(131) الشيخ حمدي محمد بختيار: ولد عام 1893 في تيتوفا (Tetova) التي كانت ضمن ولاية كوسوفا العثمانية حتى العام 1912، وهي حاليا مركز اقتصادي وسياسي وجامعي للألبان في جمهورية مقدونيا

الكريم والقراءة والكتابة والحساب، فرحّب الشيخ بوالدتي وأكرمني، ولم يرْضَ أن يأخذ أجرة عنّي برغم فقره وقلّة ذات يده عليه رحمة الله وبركاته.

ومكثتُ نحواً من شهرٍ في المكتب المذكور. وذات يوم جمعة أتى إلى دارنا أحد معارف الوالد من مهاجري البوسنة في يوغوسلافيا، وهو أبو يوسُف عُزَيْرْ، وكان يشتغل في معمل سكّة حديد الحجاز في محطّة القدم في ضواحي دمشق. وأذكر يومها جيّداً؛ لقد أتى مع ابنه محمد وهو من أترابي، وكان ممتطياً حصاناً أبيض وكان مركوب أهل ذلك العهد؛ إذ لم تكن في دمشق إلّا سيارات تُعدّ بأصابع اليد، وطرقَ الباب فخرجتُ أنا فَبَشَّ في وجهي وقال أُدْعُ لي والدتك. فخرجت والدتي ووقفتْ خلف الباب حيث تسمعه، فسلّم عليها وعرّفها بنفسه وبلّغها سلام زوجته التي كانت ابنة أحد أصدقاء والدي ومن بلدته بريشتينا، وقال لها إنّه قد سجّل ابنه محمد ويوسُف وسجّلني معهم في المدرسة التجاريّة العلميّة[132]، وتعهّد بدفع نفقات التعليم إلى آخر مراحله، ودَلَّ والدتي التقيّة على داره خلف الجامع الأموي وأوصاها أن تأتي غداً صباحاً وتصحبني معها إلى داره؛ لكي أذهب مع أولاده إلى المدرسة وتبقى والدتي عنده في الدار مع زوجته إلى أن يحين وقت مجيئنا من المدرسة فتأخذني إلى دارنا وهكذا إلى أن أتعلّم الطريق. وفي اليوم التالي ذهبتُ مع والدتي الحنونة التقيّة التي كانت غسّلتني وألبستني أحسن ما عندي من ثيابٍ وكانتْ قديمة، وهي ثوبٌ من قماشٍ قطنيّ وكان يسمّى «القنباز» وحذاءً مُقطّعاً بالياً. ووصلنا قبل أن يذهب محمد وأخوه، وعندما طرقنا الباب فتحته لنا والدته ورحّبت بوالدتي وقبّلتني وأدخلتنا إلى الغرفة التي كانوا يأكلون فيها طعام الفطور، وأطعمونا معهم مما كانوا يأكلون، ثم حان وقت الذهاب إلى المدرسة وخرجنا مُوَدّعين من والدتي الحنونة التقيّة ووالدة محمد وأخيه.

الشمالية. هاجر بعد حرب البلقان، وتعلّم في دمشق على يد عدد من الشيوخ، ثم افتتح مكتبا كان يُعلّم فيه القرآن الكريم والكتابة والحساب لأولاد المهاجرين الألبان وغيرهم، واستمر بذلك في بيته مقابل جامع السنانية إلى أن توفي عام 1971.

(132) أنشأها عدد من تجار دمشق عام 1910 في حي الخضيرية بالشاغور، درس فيها عدد من المفكرين والسياسيين مثل علي الطنطاوي وخالد العظم وغيرهم.

وسلكنا الطريق إلى المدرسة من خلف الجامع الأموي إلى سوق البزوريّة إلى سوق مدحت باشا[134] ثم إلى حي الخضيريّة[135] حيث كانت تقع المدرسة، ودخلنا إليها وكانت غاصّةً بالتلاميذ الذين جعلوا ينظرون إلى الطالب الجديد الذي يرافق محمد ويوسُف اللذين أوصلاني إلى غرفة إدارة المدرسة. وكلّم محمد المدير عنّي وكان والده قد أنهى الأمر، فسألني المدير عن اسمي واسم والدي وطلب منّي أن أُحضِرَ له غداً تذكرة النفوس. ثم خرجتُ مع محمد من عنده إلى الباحة وكان بها بحرةٌ كبيرةٌ في وسطها ومقاعد منتشرة بأطرافها مما يلي الجدران والتلاميذ جماعاتٍ ووِحدانا، وكان بها دكّان فيها من السكاكر والطعام وغير ذلك، ثم قُرِع الجرس فاصْطفَّ التلاميذ كلّ صفٍّ بأفراده، ثم قرأ أحدهم عشراً من القرآن الكريم وأعقبه التلاميذ بقراءة صلوات ومديح النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلّم-، وسكتَ الجميع ثم صار الناظر كما كان يُدعى يُوجّه كلّ صفٍّ إلى صفّه حتى جاء دور صفّنا فوجّهنا إليه. وبدأ أول درسٍ من ذلك اليوم فقرأ الأستاذ وكان يُسمّى بالشيخ بهجة دفتر التفقد، ثم سألني عن اسمي فسجّله في الدفتر المذكور. وبدأ الدرس بتعليمنا حروف الهجاء ثم سورة الفاتحة من القرآن الكريم، ثم انتهى الوقت فخرجنا إلى الباحة مدّة وجيزة، ثم قُرِع الجرس واصْطفّ التلاميذ كما ذكرنا أول النهار ووجّه الناظر الصفوف إلى غُرفها، وهكذا أربعة دروس قبل الظهر. وعند الظّهر خرج التلاميذ من الصفوف إلى الباحة وغسلوا أيديهم ثم توجّهوا إلى مطعم المدرسة وكانت به مناضِدُ وضع التلاميذ عليها ما جلبوه من طعامٍ معهم في الصّباح وجلسوا على المقاعد يأكلون. أمّا أنا فلم أجلب معي طعاماً، فأخذني محمد وأخوه يوسُف إلى المطعم وجلسنا معاً نأكل من الطعام الذي جلبوه معهم إلى أن شبعنا ثم خرجنا إلى الباحة. وبعد فترة أذّن أحد التلاميذ الكبار لصلاة

(134) هو السوق المستقيم المعروف منذ العهد الروماني (Via Recta)، وسُمي بهذا على اسم والي دمشق مدحت باشا الذي وجّه بتنظيم السوق وتغطيته عام 1878.

(135) إحدى حارات حي الشاغور الجواني (داخل السوق). لها درب يقود إلى شارع مدحت باشا، وتُنسب إلى الولي قطب الدين الخضيري المدفون ضمن مسجد يحمل الاسم نفسه.

الظهر فدخل التلاميذ إلى المُصلّى بعد أن توضّؤوا، وأقيمت الصلاة وأَمَّنا أحد التلاميذ وصلّى معنا الأساتذة. ثم بعد الانتهاء من الصلاة خرجنا إلى الباحة ومنها توجّهنا إلى الصفوف درسين بعد الظهر وبعد ذلك الانصراف إلى المنزل. ولمّا عُدنا إلى منزل محمد كانت والدتي الحنونة التقيّة الصّابرة تنتظرني مع أم محمد المحسنة الكريمة، وقد أُثْلِج صدرها وقلبها الحزين برؤيتي، وقبّلْتُ يدها ويد أم محمد وكذلك فعل محمد وأخوه. ثم استأذنتْ والدتي بالانصراف فأذنتْ لها بعد إلحاح وتوجّهتُ مع والدتي إلى دارنا فوصلنا بعد العصر.

وفي اليوم الثاني أوصلتني كذلك، إلى بضعة أيام إلى أن تسجّل في المدرسة أحد أبناء جوارنا وكان أكبر منّي قليلاً ويعرف الطريق، فصِرنا من وقتها نذهبُ معًا ونعود كذلك، وهو أيوب بن عبد الرحمن، من معارف والدي المهاجرين، والدته جوهرة عليها رحمة الله ورضوانه[136]. وكانت دارهم التي بنوها مثلنا قريبةً من دارنا فاشتدّتْ أواصِرُ المودّة بين والدتي ووالدة أيّوب، وصارتْ تُمضي وقتًا عندها وكذلك أنا مع ولدها، وكانوا خيرَ جوارٍ لنا وخيرَ عَوْنٍ في كلّ أمورنا فجزاهم الله عنّا كلّ خير. وبقيتُ في تلك المدرسة سِتّ سنواتٍ حتى أتممتُ دراستي الابتدائية، فَرَحِمَ الله أبا يوسُفَ الذي أنفق على تعليمي كلّ هذه السنوات الطويلة راضيًا كريمًا لوجه الله عزّ وجلّ فقد كان سبب تعليمي وتنوير عقلي، فاللّهم أَجْزِهِ عنّا كل خير، وضاعف له الأجر، وأَسْكِنْه فسيح جنّاتك، واحفظ أولاده وذويه والشيخ بهجة والشيخ مراد وغيرهم. اللّهم اجزهم عنّا كل خير فقد قوّموا خُلُقي وهذّبوا روحي وزوّدوني خير زاد وهو زاد العلم والمعرفة، فاللّهم اغفر لهم.. اللّهم ارحمهم.

كان يوم أنهيتُ دراستي يصادف تاريخ 1361هـ، وكان قد مضى على اشتعال الحرب الكونية الثانية قرابة عامين[137]. وكان الفرنسيون قد انهزموا أمام أعدائهم الألمان واحتلّوا أرضهم ومستعمراتهم ومنها سورية التي عشنا فيها. وكان الكساد قد حلّ والبطالة قد

(136) المقصود عبد الرحمن يابوشا، نسبة إلى بلدة يابوشا، في شمال غرب كوسوفا.

(137) عام 1941؛ أي خلال الحرب العالمية الثانية.

انتشرتْ والحاجاتُ قد فُقِدتْ. وكان أخي الأكبر عبد الغني لا يزال يشتغل نجّاراً بأجرٍ لا يكاد يكفينا ضرورات الحياة، وكان عليه عبء إعالتنا، فحمل ذلك الهمّ بأمانة وإخلاص وبذل جهده صابراً على الفقر والقلّة. وأما أخي الثاني حقّي فقد ابتعد عنّا وانقطع ولم تكُن له أدنى مساهمة في إعالتنا سامحه الله. ثم حلَّ البلاء الكبير عندما هاجم الإنكليز، الذين كانوا يحتلّون فلسطين والأردن، سورية وتوغّلوا في الأرض حتى وصلوا إلى مشارفَ دمشق، وصاروا يقذفون التحصينات الفرنسية حول دمشق. واستغرق ذلك أياماً كانت من أحلك الأيام حيث لا أمْنَ ولا قُوتَ ولا شيء عندنا، وانقطع أخي المسكين عن العمل إلى أن دخل الإنكليز دمشق فاتحين وطردوا الفرنسيين منها إلّا من كان موالياً لهم، وتسلموا الحكم في سورية مع الإنكليز. وبعد فترة افتتح الإنكليز بعض الأعمال، واستقرّت الحال وعاد الأمن.

وفي ذلك الوقت جاء الفرج من عند الله عزّ وجلّ، فقد دعا أحد معارف أخي -مِمّن كانوا يعرفونه عندما كان يشتغل عند معلّمه النجّار- دعاه ليشتغل في شركة نقلٍ إنكليزية[138]، فاشتغل من حينها، وأعطوه أجراً حسناً لم نكن نحلم به. واستمرّ التحسّن في الأجر فانتعشت حياتنا فجزاه الله كل خيرٍ عنّا إذ كان السبب لذلك. وكنت قد اشتغلت عند معلّم يحترفُ خراطة المعادن في محلّة باب البريد[139] في دمشق، وهو من المهاجرين من معارف الوالد، واسمه محمد رجب طاهر[140]، فبقيتُ عنده قرابة أربع سنوات ابتدأتْ فيها معرفتي لتلك الحرفة، فجزاه الله عنّي كل خير.

---

(138) المقصود شركة نرن (Nairn) التي افتتحت عام 1923 أول خط سفر بالسيارات من دمشق إلى بغداد عبر الصحراء، وكانت تبني عرباتها الخشبية في ضاحية القابون شرق دمشق.

(139) من أحياء دمشق القديمة. يُنسب إلى باب البريد الذي كان الباب الغربي لمعبد جوبيتر في العهد الروماني، ويمتد الآن بين سوق الحميدية وسوق المسكية.

(140) محمد بن رجب طاهر، كان من أوائل أبناء المهاجرين الأوائل. توجه للعمل الحرفي وافتتح مخرطة قرب باب البريد، وتزوج عمتي أمينة دون أن ينجب منها، لكنه قتل في ظروف غامضة في ورشته عام 1990.

وفي هذه الأثناء كان أخي ووالدي ووليّ نعمتي قد صارت سنّهُ مناسبةً للزواج، فخطبتْ له والدتي الحنونة المخلصة التقيّة ابنة أحد المهاجرين، وهي ابنة حمزة فوزي -عليهما رحمة الله-، فعمّرنا غرفةً ثانية في البيت وتمّ الأمر ودخل السرور على قلب والدتي الحزين. لكن ذلك لم يطُلْ، فقد مكثتْ عند أخي بضعة أشهرٍ وأصيبتْ بمرضٍ عُضال ودخلتْ على أثره المستشفى وتوفّيت فيه، وكم كان حزن والدتي المسكينة على ذلك! ومضت فترة، ثم أشار على والدتي أقاربنا أن تُزوّج أخي ثانية ففعلت ذلك وخطبتْ له ابنة الحاج لطفي[141]، أحد أصدقاء والدي الذين لهم كثيرٌ من الأيادي البيضاء علينا، وتمّ الأمر ومكثتْ عند أخي قرابة عشرة أعوام أنجبت له خلالها أولاده: عبد السلام وأسامة الذي توفّي صغيراً، ثم عبد الهادي وزهير[142]. ولم تتم الحال على ما نريد، إذ حصل الخلاف بينهما ولم تُفلح كل الجهود لإعادة الوفاق وأُكْرِهَ أخي على فراقها وتفطّر قلب والدتي من الحزن والأسى. وكان الأولاد الذين بقوا عندنا في الدار صغاراً، فقامت والدتي على خدمتهم حتى كبروا وعجزتْ عن العمل والخدمة لنا ولهم.

وكنتُ قد اشتغلت عند معلّم آخر وبقيتُ عنده قرابة ثمانية أعوام، أتقنتُ تعلّم تلك الحرفة إلى حدٍّ، فجزاهم الله عنّي كل خير وأحسن إليهم وأعانني على ردّ بعض الجميل إليهم. ثم دعاني أخي للعمل عنده في الشركة التي مرّ ذكرها حيث كان يعمل، فاشتغلتُ معه فيها قرابة سبعة أعوام وصار دخلنا حسنًا، لكن فراق أخي لأمٍّ أولاده نغّصَ عيشنا وأصبحنا نعيش في يُسرٍ وهمٍّ وحزن. وقد أحجمتُ عن الزواج لما حدث لأخي المسكين وأولاده، وصار همّنا الوحيد أن نسهر على راحتهم وتعليمهم وسرورهم. أما والدتي المسكينة فقد

(141) سبقت الإشارة إلى الحاج لطفي في الهامش 18.

(142) ولد زهير في البيت الذي بُني عام 1933 على النحو الذي ذُكر، ودرس في مدارس دمشق القديمة مما أثار اهتمامه بالمنشآت القديمة المملوكية والعثمانية واتّجه إلى الرسم، وخلّد بعض جوانب «حارة الأرناؤوط» في الديوانية التي هدم معظم بيوتها نتيجة للتحديث العمراني منذ نهاية ستينيات القرن الماضي. للمزيد عنه انظر: محمد م. الأرناؤوط، زهير جلال الدين.. ألوان من ذاكرة «شام شريف»، العربي الجديد، 12/ 10/ 2021.

كانت ذات قلبٍ كبير رحيم، فبذلتْ من جهدها وراحتها وحنانها ما لا يُقّدر كي تُعوّض لهم بُعدهم عن والدتهم، وكنتُ أنا كذلك أكِنُّ لهم المحبّة الصادقة والعطف الكبير، وكنّا نتعزّى بوجودهم معنا يُؤنسون وحشتنا، وأرجو من الله أن أستطيع إدخال الفرح والسرور على قلوبهم الحزينة لما أصابهم وأصابنا معهم، وأرجو منهم أن يسامحوني على ما بَدَرَ منّي إليهم ويعفوا عن تقصيري نحوهم ويغفروا ذنبي ويعذروني ويتجاوزوا عنّي ويُقيلوا عثرتي ويستروا عورتي، ويبقوا مع بعضهم بعضا إخوةً متحابين متكاتفين متقاربين لا متباعدين، متعاونين على السرّاء والضرّاء، لا يؤاخذ بعضهم بعضا، يرحم كبيرُهم صغيرَهم ويُوقّرُ صغيرُهم كبيرَهم. وإذا حدث أن تفرّقت ديارهم وتباعدت فلْتبقَ قلوبهم وأرواحهم واصلةً متّصلة غير منقطعة، وليبرّوا والديهم ويحسنوا إليهما ويجتهدوا في إدخال السرور على قلبيهما وكسب دعائهما ورضاهما ولا يألوا جهداً في ذلك. وكذلك القرابةُ للوالد أخي المسكين التقّي الصّالح الصّابر على الابتلاء، وقرابة والدتهم، ويجتهدوا في طاعة ربّهم ويكونوا أهل خيرٍ وبرٍّ أينما حلّوا، وليحافظوا ويحرصوا على مُصاحبة الأتقياء الأبرار ولا يُسيؤوا لمن صنع لهم معرفًا ولو كان يسيراً ويسامحوا مَنْ أساء إليهم ويعفوا عنه، ولا يقصّروا في حقّ الله تعالى في ما أُوجَبَ عليهم من الطاعات وفعل الخيرات. ولْتكُنْ نفوسهم متواضعةً لإخوانهم عزيزةً في الحقّ، وأن يضُنّوا ببذل ماء وجوههم عند حاجتهم إلّا إلى الكرام من الناس فإنّه لا غنى للإنسان عن أخيه، وأن يُلبّوا من قَصَدَهم في حاجةٍ ولا يُخيّبوه، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يُوفّقهم ويُعينهم على طاعته ويُبارك لهم في ما يرزقهم ويجعله وفيراً حسنًا طيّبًا، ويبارك في حياتهم ويجعلها آمنة مطمئنّة ويرزقهم زوجاتٍ صالحات وذراري تقرّ بها أعينهم وقلوبهم فاللّهم آمين.

هذا وقد نشأتُ في كَنَفِ والدتي الحنونة المخلصة الصّالحة ورعاية أخي وتضحيته في سبيلنا، إلى أن صِرتُ شابًا أكسبُ شيئًا من معيشتي حتى صِرتُ كهلاً في الخمسين من عمري أشتغلُ في المحل الذي كنتُ افتتحته سنة 1379هـ/ 1959م، أحترفُ فيه المهنة التي نشأتُ عليها شاكراً لله على ما أنعم علينا به من رزقٍ راضيًا بما قسم قانعًا بما أعطى. وكنتُ

أعمل بمفردي وتُؤنسُ وِحشتي يوم يأتي أولاد أخي لعندي ويشتغلون معي، ثم نعود سويةً ليزداد أُنْسُنا بلقاء والدتي الحنونة التقيّة الصّابرة وقد نظّفتْ لنا الدار وطَهَتْ لنا الطعام وجلستْ تنتظر مجيئنا بفارغ الصبر. وعندما نجلس لتناول الطعام يتمّ سرورها، إذ ترانا حولها ضاحكين فرحين مسرورين بقربها. وعند الصّباح، عندما نتوجه إلى العمل أخي وأنا والأولاد إلى المدرسة، تودّعنا وتدعو لنا أن يحفظنا الله ويبارك لنا في رزقنا من الحلال الطيّب. وهكذا عشتُ بِكَنَفِها خيرَ أيام عمري وأحلاها، ولم يكن لي من همٍّ إلّا قُربها وعدم البُعدِ عنها والتماس رضاها وإدخال السرور على قلبها الحزين الكبير الرحيم. وكانت كلماتها الحلوة العذبة الطاهرة الصّادقة لا تغيبُ عن ذهني، تُنير لي طريقي في الحياة وتملأ قلبي بالأمل الكبير. وكنتُ أقابلُ ذلك بما أستطيع من برّها والإحسان إليها، ولا أستطيع إيفاء حقّها علينا مهما بذلنا من مودّةٍ نحوها، فحقّها أعظم من أن يُقابل وتقصيرنا كبير نحوها. وإنّا نرجو من الله أن يعفو عنّا ولا يؤاخذنا على ذلك. وكانت المسكينة التقيّة الصابرة تمرض أحيانًا فنشقى بذلك جميعًا ونبذل جهدنا للتخفيف عنها. وكان مرضها مرضَ المؤمنين الصّابرين الشاكرين الله على السرّاء والضرّاء، ثم يعاودها الشفاء من الله لقوّة يقينها وصبرها إلى أن كان مرضها الأخير الذي مكثتْ فيه قرابة شهرين لا تذوق طعامًا غير الشيء القليل من الماء والدواء، هكذا إلى أن جاء الأجل المحتوم لكلّ حيّ في هذه الحياة الدنيا، وكان ذلك عصرَ يوم الثلاثاء الموافق لعشرين جمادى الآخرة سنة سبع وتسعينَ وثلاث مئةٍ وألف من سني هجرة مَنْ لهُ العِزُّ والشرف، ففاضت روحها الطاهرة وصعدتْ إلى بارئها عزّ وجلّ راضية مرضيّة، فاللّهم إنّ هذا هو الحقّ من عندك، رضينا بما قسمتَ وقدّرتَ ولك الحمد في الأولى والآخرة وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وقُمنا بواجب الجنازة ودفنتُها أنا وأخي التقيّ الصّالح بأيدينا في مقبرة الدحداح قرب قبر الوالد في قبر زوجة الحاج محرّم السّابقة، فاللّهم اغفر لها واغسلها بالماء والثلج والبَرَدْ، ونقّها من الخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس، واجعل قبرها روضةً من رياض الجنّة، واجزها عنّا خير الجزاء، وأعنّا على برّها بعد موتها، واجمعنا بها وبوالدي وأقربائنا

وأصدقائنا يوم القيامة تحت لواء نبيّك المصطفى، تحت ظلّ عرشك وفي جنّاتك التي وُعِدَ المتّقون وَعدَ الحقّ، سبحانك ربّي اغفر لي ولوالديّ، ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا.

وقد عدنا إلى الدار وحدنا وشعرنا بالفراغ الكبير الذي كانت والدتي عليها رحمة الله وبركاته تشغله، ولم يكن عزاؤنا إلّا التسليم بأمر الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، فاللهم أنزل السكينة على قلوبنا، وارزقها أهلاً خيراً منّا، واخلفنا فيها، وهيّئ لنا من أمرنا رشداً، ربّنا وَسِعتْ رحمتك كل شيء ربّنا إنّك رؤوفٌ رحيم[143].

(143) بحسب رأي الحفيد زهير جلال الدين، كتبت هذه المذكرات حوالي العام 1978.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات
أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن
يضلل فلا هادي له وأشهد ان لا إله
إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
وصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله
وصحبه وإخوانه أجمعين الى
يوم الدين،

أما بعد فقد كانت تعاودني فكرة بأن
أكتب شيئاً من تاريخ حياتي منذ
زمن لتكون ذكرى بها بعد رمسي من
تقصير في حق الله عز وجل واستغفاراً

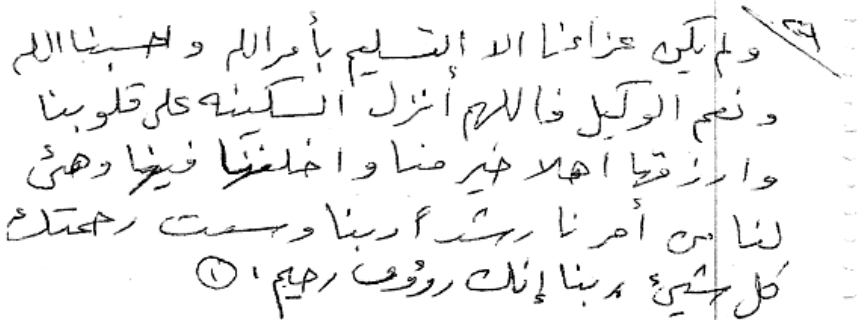

ولم يكن عزاؤنا الا التسليم بأمر الله وحسبنا الله
ونعم الوكيل فاللهم أنزل السكينة على قلوبنا
وارزقنا اهلا خيرا منا واخلفنا فيها وهيئ
لنا من أمرنا رشدا ربنا وسعت رحمتك
كل شيء ربنا إنك رؤوف رحيم. (1)

الورقة الأخيرة لمذكرات عبد السلام جلال الدين

ذكريات شوكت غاوجي

من تيرانا إلى دمشق (1937–2004)

ولدتُ في مدينة إشقودرا[144] عام 1918، وهي كبرى مدن ألبانيا، وتقع على حدود يوغوسلافيا[145]. كان والدي عالماً ومدرسا، وله مدرسة تعلم الدروس الدينية لطلاب العلم والشريعة. تخرّج في مدرسة والدي خطباء ومدرسون للمساجد ومعلّمون للديانة. كنت صغيراً، وأول ولد من أولاده، وكنت أرافق والدي وألازمه في المدرسة حيث تعلّمت قراءة القرآن وحفظت بعض السور. وكان من العادة في البلاد أن يُختَم القرآن في أغلب المساجد خلال شهر الصيام، شهر رمضان. كنت أنا أيضاً أقرأ مع نهاية كل جزء من القرآن صفحة من القرآن.

كان والدي خطيباً ومدرساً، وكان أيضاً محارباً ضد الصرب ويوغوسلافيا الحالية. وكانت لوالدي رغبة بالهجرة إلى البلاد الإسلامية، وقد سافر وهو شاب لأداء فريضة الحج.

وكانت لوالدي رغبة البقاء في المدينة المنورة، كان ذلك وهو طالب علم، لكن إرادة الله فوق كل إرادة، فعاد إلى البلاد وذلك قبل الزواج. ولما كنت، كما ذكرت، أول أولاده كنت أرافقه على الدوام. وكان لوالدي كما ذكرت رغبة الهجرة إلى بلاد الشام.

---

(144) إشقودرا أو شكودرا (Shkodra) من أقدم المدن في ألبانيا. تقع في أقصى الشمال في جوار بحيرة شكودرا وقلعة «الرصافة» (سميت على اسم الرصافة السورية) التي نمت في جوارها. أصبحت عاصمة للدولة الأليرية في عهد الملك غنت (181–168 ق. م). بعد الحكم الروماني أصبحت عاصمة للدولة الصربية (زيتا) وغيرها إلى أن فتحها العثمانيون سنة 1478م وجعلوها مركزا لولاية تحمل اسمها:

Akademia e shkencave e Shqiperise, Fjalori enciklopedik shqiptar, Tirane 1985, p.1017.

(145) هذا في السابق، أما الآن فهي تقع على حدود جمهورية الجبل الأسود التي استقلت عن يوغوسلافيا السابقة.

وفي عام 1925 قرّر والدي السفر والهجرة إلى بلاد الشام، وكان لوالدي أخ يعيش معه. وعزم والدي على السفر لكنَّ أخاه عارضه، ومع ذلك رافقه إلى دمشق. كان والدهما مدرساً وخطيباً قلّ أمثاله، ليس في إشقودرا بلده ولكن في ألبانيا كلها. وبطلب من الحكومة الألبانية بعد وصوله إلى دمشق طلبت السلطات الفرنسية مغادرة والدي لسورية، وعاد مع أخيه والعائلة كلها إلى ألبانيا من جديد بعد أن قضى في سورية ثلاثة أشهر. وكان والدي عزم على الهجرة وباع قسما من الأملاك ومنزله، وعاد ليبدأ حياته من جديد في ألبانيا، لكن بقي كل أمله الهجرة.

وكان والدي قد سافر مراراً لأداء فريضة الحج، وفي عام 1936[146] قرر الذهاب إلى الحج وطلب مني مرافقته، فوافقت على السفر معه. وكان من العادة أن يغادر الحجّاج البلاد بعد نهاية شهر الصيام. جهز والدي جواز سفر له وأيضاً جواز سفر لي. وجاء موعد السفر وغادرنا مدينة إشقودرا إلى مدينة دورازو[147]، وهي كبرى المدن البحرية التي منها تنطلق البواخر إلى أنحاء العالم.

ركبنا إحدى البواخر الإيطالية من المرفأ الألباني إلى إيطاليا ومنها إلى الإسكندرية. وبعد رحلة دامت أسبوعا وصلنا إلى الإسكندرية بمصر. أقمنا ليلة فيها ثم انطلقنا إلى القاهرة. كانت لوالدي رغبة بالتحاقي بجامعة الأزهر، كبرى مدن العلم والشريعة في العالم. وحينما وصلنا إلى القاهرة، وكان يرافقه حجاج أيضاً من ألبانيا فيهم علماء وخطباء، طلب

(146) تثبت التأشيرات الموجودة على جواز الوالد المحفوظ لديه أنه استحصل جواز السفر في نهاية 1936 وخرج من ألبانيا في 11/ 1/ 1937، وأخذ في القاهرة التأشيرة السعودية للسفر إلى جدة في 19/ 1/ 1937، وبقي في الحجاز حوالي شهرين، إذ إنه استحصل على التأشيرة المصرية في جدة بتاريخ 7/ 3/ 1937.

(147) دورازو أو دورس (Durres): من أقدم مدن ألبانيا، والميناء الرئيس لها على البحر الأدرياتيكي، والمركز الصناعي الثاني في البلاد:

Akademia e Shkencave e Shqiperise, Fjalori enciklopedik shqiptar, vol.1, Tirane 2008, pp.549-550.

من مسؤول لدى جامعة الأزهر زيارة شيخ الأزهر، وكان ذلك في عهد الشيخ المراغي[148]. وفي اليوم الثاني من زيارة جامع الأزهر طلب مقابلة رئيس جامعة الأزهر ومديرها فضيلة الشيخ محمد المراغي، وقرّر فضيلته مقابلة الوفد الألباني القاصد أداء فريضة الحج لبيت الله الحرام. وبعد مقابلته طلب والدي من فضيلته قبولي كطالب علم في جامعة الأزهر (قسم الغرباء). وكان هناك طلاب من جميع أنحاء العالم، من ألمانيا ومن اليابان ومن رومانيا ومن يوغوسلافيا ومن تركيا، فقد كان لدى جامعة الأزهر مقر لأجل الطلاب الأجانب خارج الأزهر، وكانت أيضاً هناك أماكن لإقامة الطلاب داخل جامعة الأزهر. وتابع والدي طريقه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وبدأت أتعلم اللغة العربية. وكان لدى الأزهر مدرسون خاصون للأجانب. وبدأنا دراسة العربية، ومضت فترة الحج وعاد والدي إلى ألبانيا، واخترت قراراً بالبقاء في مصر لطلب العلم في جامعة الأزهر.

وبعد أن مضت فترة التعليم وبدأت عطلة الصيف، طلبت من والدي العودة إلى البلاد لزيارة والدتي وإخوتي. وفعلاً غادرت القاهرة إلى الإسكندرية ومنها إلى إيطاليا، وبعد ذلك إلى ألبانيا. كنت خلال وجودي في القاهرة أتعلم قراءة القرآن وتجويده، ولما وصلت إلى البلاد جاء الأقارب والأصدقاء، وجاء أيضا كثيرون من العلماء ومنهم سماحة المفتي لزيارة والدي مهنئاً لقبولي طالبا في الأزهر. كان موعد قراءة مولد الرسول الأعظم، وكانت وزارة الأوقاف قررت إقامته في مكان خارج الجامع في ساحة كبيرة للاحتفال[149]. وكانت مدينة إشقودرا أكثر مدن ألبانيا إسلاماً، وكان يقال لها «المدينة المنورة الألبانية»، فقد كان أهل هذه المدينة متمسكين بالإسلام أكثر من المدن الأخرى في ألبانيا. وجاء موعد إقامة مولد الرسول الأعظم، وطلب سماحته من والدي أن يشاركه في هذه الحفلة العظيمة ومعه

(148) الشيخ محمد المراغي (1881-1945): شغل منصب شيخ الأزهر من عام 1928 إلى استقالته في عام 1930، ثم من العام 1935 إلى وفاته في العام 1945.

(149) للألبان، كما هو الأمر لدى المسلمين في البلقان، تقاليد عريقة في الاحتفال بالمولد النبوي. للمزيد انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الحروف العربية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1983، ص128-130.

ولده القادم من جامعة الأزهر. وطلب مني سماحته افتتاح حفلة المولد بآيات من الذكر الحكيم، وقبل والدي. وجاء موعد المولد وذهبنا أنا ووالدي إلى مكان الاحتفال، وكان في مكان خارج المسجد في ساحة كبيرة. وقد بلغ عدد المجتمعين لسماع مولد الرسول الأعظم أكثر من خمسة عشر ألفا. بدأ الاحتفال بقراءة ما تيسر من الذكر الحكيم، وكنت أقلّد في قراءتي الشيخ رفعت المقرئ المعروف في مصر وجميع أنحاء العالم الإسلامي. وبعد نهاية الاحتفال دعانا سماحته لزيارة دار الإفتاء والأوقاف، وفي الحفلة شكر والدي لقبول الدعوة وشكرني أيضاً لتلاوة القرآن وافتتاح حفلة مولد الرسول الأعظم.

وبعد أيام جاء موعد العودة إلى مصر لمتابعة الدراسة في جامعة الأزهر. كان لوالدي على الدوام رغبة الهجرة إلى بلاد الشام، وتقدم بطلب السفر هو مع باقي الأهل. لكن وزارة الداخلية رفضت طلب والدي، وذلك بناء على طلب سماحة المفتي لعدم موافقة سفر والدي خارج البلاد. وبعد مدة تقدم والدي بطلب السماح له بالسفر والهجرة إلى البلاد العربية. وبعد أن راجع أكثر من مسؤول وافقت السلطات على منح جواز سفر له مع العائلة على أن يسافر دون إبلاغ أحد من أصدقائه وأهل البلدة، وأن يسافر في الليل. ووافق والدي على طلب وزارة الداخلية وحصل على جواز سفر جماعي له ولأخيه، وغادر مدينة إشقودرا ليلاً دون أن يعلم أهلها بمغادرة إمام المسجد وخطيب البلد. غادر إلى الميناء الألباني دورازو ومنه إلى القاهرة قاصداً دمشق بالذات. وكانت الباخرة تمر على إيطاليا ومنها إلى بيروت لبنان، ومنها إلى دمشق الشام. وصلت الباخرة إلى بيروت وأمضى ثلاثة أيام ثم اتجه إلى دمشق حيث كان يرغب في البقاء إلى نهاية الحياة[150].

وكان والدي كما ذكرنا عالماً، ولما علم بعض العلماء جاؤوا لزيارته في مقر إقامته في الديوانية[151] حيث اشترى أرضا لبناء مسكن له ولأخيه. وفي موعد صلاة المغرب طلب

(150) تبرز التأشيرات الموجودة على جواز الوالد أنه دخل مرفأ بيروت بتاريخ 22/ 6/ 1937.

(151) كانت الديوانية عبارة عن بساتين مقابل مقبرة الدحداح في شارع بغداد حتى ثلاثينيات القرن العشرين. وقد بنى جدّي صوقول عبدولي أول مسكن فيها حوالي العام 1935، وهو ما تحوّل إلى نواة

سماحة المفتي[152] من والدي أن يصلي بهم صلاة المغرب. وكان والدي حافظاً للقرآن وقراءته جيدة جداً، وبعد أداء صلاة المغرب قال لوالدي سماحة المفتي الأسطواني وعبد الحكيم المنير[153]: «لماذا لا تصلي في أحد المساجد في دمشق؟». وقال سماحته: «يا أستاذ، في العمارة[154] يوجد مسجد شاغر، ما رأيك في أن تصلي إماماً في هذا المسجد؟». ووافق والدي أن يصلي إماماً في مسجد العمارة في دمشق.

أما أنا فتابعت دراسة العلوم الشرعية في جامعة الأزهر، ووالدي يقيم في دمشق مع أخيه. وكان أخي وهبي راغباً في متابعة الدراسة، فطلب والدي تقديم طلب القبول لأخي، وتم قبوله وغادر دمشق إلى القاهرة حيث تابع الدراسة في جامع الأزهر. وجاء مع أخي أحد الأقارب إلى القاهرة لمتابعة العلوم الشرعية.

مضت مدة لم أشاهد والدي خلالها، وكان ذلك عام 1939 عام بدء الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء ومحور برلين وروما، إذ هاجمت القوات الإيطالية بلادي ألبانيا عام 1939. وبعد مقاومته القوات الإيطالية التي جاءت بمئة طائرة حربية وبسبعين بارجة، احتلت البلاد وغادر الملك البلاد. ونحن الطلاب في جامعة الأزهر والجالية الألبانية في مصر قمنا بمظاهرات ضد إيطاليا[155]. وبعد مرور فترة من الزمن على الاحتلال الإيطالي

لمحلة جديدة للألبان الذين جاؤوا آنذاك من كوسوفا ومن ألبانيا، ثم استقرَّ فيها بعض اللاجئين الفلسطينيين بعد العام 1948. وقد استكملت هذه المحلة ما تحتاجه عام 1948 حين بني فيها «جامع الأرناؤوط» الذي لا يزال يحمل هذا الاسم في المحلة التي انكمشت الآن نتيجة للتطور العمراني في نهاية القرن العشرين.

(152) المقصود الشيخ محمد شكري الأسطواني (1873-1955) الذي كان مفتيا للشام خلال الفترة (1940-1953).

(153) الشيخ عبد الحكيم المنير (1904-1993) فقيه شافعي عمل مدرسا وخطيبا في الجامع الأموي وتولى أمانة الفتوى آنذاك.

(154) العمارة من أحياء دمشق المملوكية، بنيت شمال باب الفراديس وامتدت حتى مقبرة الدحداح.

(155) كان الهجوم الإيطالي على ألبانيا في 7 نيسان 1939 مؤشرا بالغ الدلالة لتفاقم الوضع الدولي لأنه كان اعتداء على دولة مجاورة عضو في عصبة الأمم منذ 1920، لذلك كان صمت العصبة على الاحتلال

لألبانيا، جاء أحد المسؤولين من السفارة الإيطالية لزيارة الطلاب في مقر إقامتهم، وطلب من الطلاب وأنا منهم مراجعة السفارة حيث كانت تُقام حفلة. ذهب كثير من الألبان المقيمين في مصر، وذهب بعض الطلاب، وبعد أيام جاء أحد المسؤولين من السفارة وطلب من كل طالب مراجعة السفارة وذلك لتسلم مساعدة مالية؛ فقد قررت الحكومة الإيطالية تقديم مساعدة مالية لكل طالب. كنت أنا الوحيد الذي لم أراجع السفارة ولم أتقبل مساعدة من السفارة الإيطالية وحكومتها التي احتلت بلادي، وبقيت أنا وأخي الوحيدين اللذين لم يقبلا تلك المساعدة من عدو احتل بلادي رغم الحاجة إلى ذلك.

وبعد أيام جاء أحد ضباط الإنكليز لزيارة الطلاب الألبان ومعرفة عددهم. وبعد أيام جاء ضابط آخر يعرض علينا الالتحاق بالقوات البريطانية لتدريب الطلاب وذلك أملاً بإنزال في ألبانيا. لم يقبل أحد من الطلاب، وكنت الوحيد الذي قبلت مع شخصين آخرين الذهاب إلى المعسكرات البريطانية في مصر الجديدة. وبدأنا التمارين وذلك لنتمكن مستقبلاً من النزول بالمظلات في ألبانيا. استمررنا أكثر من شهر في التمارين، أما الآخرون فقد قبلوا الالتحاق بالقوات البريطانية لكن لا لأجل إنزالهم في ألبانيا. ومضت أيام ونحن نتمرن، ولما كنت أنا الوحيد الذين استمررت في التمارين طلب مني القائد البريطاني البقاء في المدرسة إلى أن يحدد الوقت المناسب.

وبعد شهور استسلمت إيطاليا للحلفاء[156]، وقاربت نهاية الحرب بين الحلفاء ومحور برلين روما. وكنت قد نلت شهادة من جامعة الأزهر، وكان والدي يقيم في دمشق فطلب مني العودة إلى سورية، وكان ذلك عام 1946. لكن لم يكن لدي ما يثبت بأن والدي يقيم في سورية وأنه يحمل الجنسية السورية. وكانت السفارة اللبنانية قد فتحت أبوابها (في

مؤشرا حاسما على فشلها، بينما لم يكسر هذا الصمت سوى المظاهرات المنددة بهذا الاحتلال التي انطلقت في الجزائر والقاهرة ودمشق. للمزيد عن أسباب هذا الاحتلال ودلالته انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة: تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2007، ص81-85.

(156) استسلمت إيطاليا للحلفاء في 8 أيلول 1943، لذلك فقد بادرت ألمانيا إلى إرسال قواتها إلى ألبانيا لتحل محل القوات الإيطالية التي كانت تحتل ألبانيا.

القاهرة) وراجعت طالباً منها منحي وثيقة سفر للعودة إلى سورية. وفعلاً قبلت السفارة اللبنانية مشكورة منحي وثيقة سفر لبنانية لعودتي إلى دمشق، ثم وصلت إلى دمشق عن طريق البر قادماً من مصر إلى بورسعيد ومنها إلى حيفا ومنها إلى دمشق بواسطة القطارات[157].

وصلت إلى دمشق وأنا لا أعرف أحدا ولا أعرف مكان إقامة أهلي، لكن كان لديّ عنوان المنزل. وصلت إلى منزل أهلي في حي الديوانية قرب شارع بغداد، وكان اللقاء والشوق لفراقي عنهم سنوات. وبعد أيام كنت أبحث عن وظيفة في الدولة، وتقدمت بموجب الشهادة التي حصلت عليها من جامعة الأزهر لدى وزارة التربية والتعليم. وكان الأستاذ مظهر العظمة مفتشا في (وزارة) المعارف، وتعرفت على الأستاذ عن طريق والدي. بعد أيام طلب مني مقابلته ليبلغني الموافقة بتعييني مدرساً، لكن أين؟ في الجزيرة![158]. لم أقبل التعيين ولم أبلغ قرار تعييني في الجزيرة.

كنت أيام الطفولة وأنا في المدرسة خلال عطلة الصيف أتعلّم الخياطة، وكان لي رغبة في هذه الصنعة، فقررت فتح محل قريب من المنزل في حي القزازين[159]. وبحثت عن محل حتى وجدت واحدا مناسبا لهذه الصنعة، وبدأت العمل فيها. والحمد لله لقد فتح لي الباري وقَدِم لديّ كثيرون من حي المنطقة الذين يحتاجون لخياطة البنطلون والتصليح أحياناً. وبعد مرور فترة بدأ سكان الحي يعرفونني واستمررت سنة تقريباً.

---

(157) كان النظام الملكي في مصر لا يزال يعترف بالملك أحمد زوغو والسفارة الألبانية التي تمثله في القاهرة، ولم يعترف آنذاك بالنظام الشيوعي الجديد في عام 1945. لذلك فإن جواز السفر الألباني الذي حصله شوكت غاوجي في القاهرة عام 1945 لم يكن مقبولا في لبنان وسورية على اعتبار أن ألبانيا كانت قد تحولت إلى جمهورية مع وصول الحزب الشيوعي إلى الحكم. ومن هنا فقد طلب من السفارة اللبنانية وثيقة سفر توصله إلى دمشق.

(158) المقصود الجزيرة الفراتية، التي تقع في أقصى شمال شرق سورية.

(159) حي يواجه الديوانية على الطرف الآخر من شارع بغداد، سكنت فيه بعض العائلات الألبانية الوافدة من كوسوفا وألبانيا في النصف الأول للقرن العشرين.

وكنت خلال عملي أبحث عن وظيفة في الدولة. وعلمت بأن مكتب الحبوب لديه مسابقة، وتقدمت والحمد لله نجحت في هذه المسابقة. وكانت هذه الوظيفة مؤقتة موسمية. وبدأت البحث عن وظيفة أخرى في الدولة. وعلمت بأن مديرية البريد والهاتف لديها مسابقة، وتقدمت إليها، وبحمد الله نجحت وقُبلت موظفا في البريد. عملت فترة من الزمن في كوة بيع الطوابع ثم في السجلات، وبعد ذلك نقلت إلى مديرية المحاسبة في دائرة البريد والهاتف.

كان ذلك عام 1947، حين جاءت لوالدي رسالة من سماحة المفتي[160]، وهو زميل والدي، وذلك من إيطاليا يشكو ظروف الألبان الذين غادروا البلاد بعد أن احتلت القوات الشيوعية للبلاد، ويطلب من والدي مساعدتهم لإبعادهم من إيطاليا خوفاً من تسليمهم إلى ألبانيا الشيوعية ليحاكموا فيها[161]. قال لي والدي: اقرأ هذه الرسالة التي وصلت لي من سماحة المفتي المقيم في المعسكرات الإيطالية. قرأتها أكثر من مرة وقلت لوالدي: ماذا تريد العمل، وكيف يمكن تقديم مساعدة لهم؟ قال لي والدي: إنني أترك لك هذا الموضوع لعلك تجد من يتعاون في سبيل مساعدتهم.

كان ذلك عام 1947، وكانت لدينا جمعية خيرية وكنت نائب رئيس هذه الجمعية. وبدأت تعليم اللغة الألبانية في مقر الجمعية، وطلبت من أعضاء الجمعية المساعدة للعمل في سبيل مساعدة اللاجئين الموجودين في المعسكرات الإيطالية الذين فروا من النظام الشيوعي في ألبانيا. ولكن للأسف لم يقبل أحد من الأعضاء التعاون بهذا الموضوع ولهذا

---

(160) المقصود مفتي شكودرا صالح مفتيا (S. Myftia) (1891–1978) الذي كان قد لجأ إلى إيطاليا في نهاية العام 1944 وأصبح من رموز المعارضة الجديدة للحكم الشيوعي في ألبانيا.

(161) بعد نهاية الحرب الأهلية في ألبانيا بين اليمين واليسار (1942–1944) التي انتهت بوصول الحزب الشيوعي إلى الحكم في نهاية 1944، اعتقلت السلطات الجديدة الآلاف من أحزاب اليمين وقواته المسلحة وقدمتهم إلى المحاكمة باعتبارهم «أعداء الشعب»، كما حاكمت غيابيا الكثير ممن لجؤوا إلى إيطاليا.

العمل الإنساني، بل إن أعضاء الجمعية طلبوا مني عدم الاستمرار في تعليم اللغة الألبانية في مقر الجمعية[162].

قررت العمل لوحدي، وتقدمت بطلب إلى رئيس مجلس الوزراء، وكان ذلك في عهد السيد جميل مردم بك، وعلمت بأن والدته من أصل ألباني[163]، لذلك طلبت زيارتها أيضاً. وبعد مقابلتي سيادة جميل مردم بك، وبعد أن شرحت وضع اللاجئين الموجودين في المعسكرات الإيطالية، طلب مني سيادته تقديم طلب. وفي اليوم الثاني تقدمت بطلب للموافقة على إيواء اللاجئين الفارين بدينهم من الحكم الشيوعي، وأحالت رئاسة مجلس الوزراء طلبي إلى وزارة الخارجية لمنح فيزا دخول اللاجئين إلى سورية.

كان لا بد لي من تأمين أماكن لهم للإقامة. طلبت مقابلة فخامة رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وبعد مقابلتي طلب مني تقديم قائمة بعدد القادمين وأصدر أمراً إلى وزارة الأوقاف، وكان ذلك في عهد الدكتور جميل الدهان. وبفضل الله وموافقة وزارة الأوقاف استأجرت ثلاثة فنادق في جوزة الحدباء[164] بالإضافة إلى الغرف الموجودة في تكية السلطان سليمان حيث الآن المتحف الحربي. وبفضل مساعدة بعض الجمعيات تمكّنا من تقديم مساعدات لهؤلاء اللاجئين حتى عام 1948م وبداية عام 1949م.

---

(162) تأسست هذه الجمعية باسم «الجمعية الخيرية لمواساة فقراء الأرناؤوط» في 10 آذار 1946، وانتخبت الهيئة الإدارية التي ضمت الحاج شوقي جمال رئيسا وشوكت غاوجي نائبا للرئيس والشيخ ناصر الدين الألباني أمينا للصندوق.

(163) شاع في الربع الثاني للقرن العشرين، حين كانت الأسرة في ذروة وجودها الاقتصادي والسياسي والثقافي، أن أسرة مردم بك من أصل ألباني تنتسب إلى الوزير لالا مصطفى باشا الذي كان على رأس ولاية الشام في النصف الثاني للقرن السادس عشر: محمد أديب تقي الدين الحصني، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، ج1، دمشق، 1928، ص891-892. لكن الصحيح أن لالا مصطفى باشا كان بوسنوياً.

(164) من أحياء دمشق المجاورة لسوق ساروجة (إستانبول الصغرى) حيث تم شق «شارع الثورة» في نهاية القرن العشرين.

في عام 1949، جاء وفد برئاسة المفتي صالح مفتيا[165]، وكان الوفد يتألف من السيد علي كلسيرا[166]، والدكتور كمال[167]، والسيد أرنست كوليتشي[168]، ووهبي فراشري[169]. وقمنا بزيارة فخامة الرئيس شكري القوتلي الذي اهتم بالموضوع وقال لنا أن نتصل برئيس مجلس الوزراء محسن البرازي آنذاك. وذهبنا عند السيد رئيس مجلس الوزراء وتكلمنا معه، فقال لنا إنه مهتم بالموضوع، وتقدم بطلب منحة 3 ملايين ليرة سورية لإيواء اللاجئين على نهر الخابور في الجزيرة لبناء مساكن لهم ومنحهم أراض زراعية. وعاد الوفد إلى

(165) في 1947 انتقل المفتي صالح من إيطاليا إلى الإسكندرية لينضم إلى الفريق العامل مع الملك زوغو، وشارك في إعادة تأسيس حزب «الشرعية» المؤيد لزوغو فانتخب رئيسا للجنته المركزية وبقي يشغل هذا المنصب إلى وفاته عام 1978.

(166) علي كلسيرا (Ali Kelcyra) (1891-1961): من الشخصيات الألبانية المعروفة في القرن العشرين. درس القانون في إستانبول وروما وشارك في مؤتمر «لوشنيا» (1920) الذي أرسى ألبانيا الحديثة، وانتخب نائبا للبرلمان الألباني خلال الفترة 1921-1924، وشارك خلال الحرب العالمية الثانية «الجبهة القومية» لتواجه بالفكر والسلاح الحزب الشيوعي الذي تشكل آنذاك. بعد خسارة «الجبهة القومية» في الحرب الأهلية غادر إلى روما وعمل هناك مع المنظمات السياسية للاجئين الألبان إلى أن توفي في عام 1961:

Fjalori Enciklopedik shqiptar 2, Tirane 2008, pp.1152-1153.

(167) يتذكّر عنه شوكت الآن أنه كان الطبيب الخاص للملك أحمد زوغو، وأن أباه كان صديقا للضابط السوري توفيق دوخي.

(168) أرنست كوليتشي (E. Koliqi) (1903-1975): من أشهر كتّاب ألبانيا في القرن العشرين. درس الأدب في إيطاليا وكان من رواد القصة الألبانية الحديثة. عُيّن وزيرا للتعليم خلال الحكم الإيطالي (1939-1941)، وغادر ألبانيا إلى تيرانا عام 1943 ليتولى قسم اللغة الألبانية وأدبها في جامعة روما (معهد الدراسات الألبانية منذ 1957) حتى وفاته عام 1975. للمزيد عنه انظر مقالتنا: مئوية أرنست كوليتشي في العالم الألباني، جريدة الحياة، 2/ 7/ 2003.

(169) وهبي فراشري: ابن رئيس الوزراء الألباني الأسبق ورئيس مجلس الدولة مهدي فراشري، كان نائب وزير الخارجية في خريف 1944 حين اضطر إلى ترك تيرانا والتوجه إلى فيينا لينضم إلى اللاجئين الألبان في الخارج.

الإسكندرية، عند جلالة ملك ألبانيا. وبعد أيام أُبلغت بأنه لا يمكن تنفيذ ما وعدنا به لكثرة قدوم اللاجئين من فلسطين.

وحينذاك أخبرتنا وزارة الأوقاف أنها لا تستطيع الاستمرار في تقديم مساعدات بسبب التزاماتها الجديدة إزاء اللاجئين الفلسطينيين، مما دفعني لإبلاغ جلالة ملك ألبانيا المقيم في الإسكندرية. ودعاني جلالته للذهاب إلى الإسكندرية لشرح وضع اللاجئين. سافرت إلى الإسكندرية حيث يقيم جلالته وقابلته فشكرني على المساعدات التي قدمتها للاجئين الألبان. وقلتُ لجلالته ما حصل معي بأن الحكومة السورية لا يمكنها تنفيذ المنحة. فقال لي: إننا سوف نتصل بهيئة اللاجئين في جنيف. وقد قلّدني في حفل بمقر إقامته «وسام إسكندر بك»، وهو أعلى وسام لألبانيا، وقال لي إن هذا الوسام له رتبة كولونيل في الجيش الألباني، وأعطاني ظرفا فيه راتب لثلاثة أشهر وقال: لولا الظروف التي تمر لكان من الواجب الاستمرار في تقديم تلك المساعدة شهرياً. وفي حفلة العشاء حضر جلالة ملك مصر والسودان، الملك فاروق، وبعد نهاية العشاء حدثني جلالته عن الملك فاروق بأنه طائش، وسوف يفقد هذا العرش إذا استمر في حياته كما هو سائر دون مبالاة لأن الشعب المصري شعب ذكي، لكن الملك للأسف لا يفكر بعيدا. وبعد نهاية العشاء ودعتُ جلالة الملك، وفي اليوم الثاني عدت إلى دمشق.

ولم تمض أيام حتى جاء وفد من ثلاثة أشخاص من منظمة اللاجئين ومقرها في جنيف[170]، وقرّرت هذه الجمعية تقديم مساعدة للاجئين، وطلبت من رئيس اللجنة الألبانية تقديم قائمة بأسماء اللاجئين وأعمارهم، وقررت تقديم مساعدة مالية لكل لاجئ قدرها 7. 5 ليرة لبنانية مع تأمين طبيب ومشفى لمعالجتهم. وكان المقصود المستشفى الإيطالي. وبعد أيام تعيّن أيضاً المستشفى الفرنسي لمعالجتهم. واستمرت هذه المساعدة

(170) تأسست «المنظمة الدولية للاجئين» (IRO) عام 1947، وقد حلّت محلها «المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين» (UNHCR) التي تأسست في 14/ 12/ 1950، ولا تزال تتخذ من جنيف مقرا لها.

ثلاثة أشهر. وجاء بعد ذلك أحد المسؤولين في جنيف ومعه ثلاثة أعضاء كل واحد منهم من دولة: من كندا ومن أستراليا ومن الأرجنتين ومن البرازيل، يعرضون السفر إلى بلادهم لعدد من اللاجئين الذين سُجلت أسماء كل واحد منهم لتأمين المساعدة اللازمة لهم. وبعد أيام جاءت لجنة لتسفيرهم إلى البلدان الآتية أسماؤها: أستراليا وكندا والأرجنتين والبرازيل. وفعلاً سافر القسم الأكبر ولم يبق إلا نفر قليل ينتظرون السفر إلى أمريكا. ولما سافر الباقي من اللاجئين إلى أمريكا أرسلوا في طلبي للهجرة إلى هناك، وأرسلوا لي بطاقة السفر ذهابا وإيابا لدراسة الوضع هناك، لكني أرسلت لهم بطاقة الطائرة شاكراً هذه المساعدة وأبلغتهم بأنني لا أريد السفر وأولادي صغار.

كنت لا أزال أُعلّم أولاد الأرناؤوط اللغة، وطلبت من الحكومة الألبانية إرسال كتب لتعليم اللغة، وقدمت لي مشكورة كل المساعدة. وكانت الحكومة الألبانية قدمت لنا كتبا ومجلات وجرائد يومية عن ألبانيا. وكانت جامعة برشتينا (الكوسوفية) قررت هي أيضاً تقديم مساعدة للطلاب الألبان في كل عام، وخُصّصت لنا وللطلاب الذين يتابعون دورات اللغة الألبانية في منزلي الخاص. وقد منحتني كوسوفا دعوة لزيارة الجامعة في برشتينا وإجراء دورة للغة لمدة خمسة عشر يوماً مع الإقامة على نفقة جامعة برشتينا. وفي الحقيقة كانت هذه المنحة جيدة جداً، وساعدت كثيرا من الطلاب وشجعتهم على الاستمرار في تعلم اللغة الألبانية.

في ربيع 1957 جاء وفد من ألبانيا لزيارة سورية، وكان أحدهم فاضل باتشرامي[171]، وهو قريب لي. ذهبت معهم إلى البرلمان حيث استقبلنا نائب حموي كان بطربوش مائل

(171) فاضل باتشرامي (1922-2008): ولد في شكودرا، واشتهر بمسرحياته في الأدب الألباني الحديث. انضم للحزب الشيوعي مبكرا وشارك في الحرب وبرز بعد 1945 في مناصب حزبية وثقافية (عضوا في البرلمان ووزير الثقافة... إلخ). حكم عليه بالسجن 25 سنة عام 1973 بتهمة «الانحراف الأيديولوجي»، وأطلق سراحه عام 1991 مع التحول الديموقراطي في ألبانيا. للمزيد عنه انظر مقالتنا: دراما فاضل باتشرامي، جريدة «الحياة»، 2/ 5/ 2006.

على الدوام، ودعانا إلى الغداء. دعوته أيضا إلى الغداء في بيتي. وبعد أن أمضى الوفد ليلتين في سورية غادر إلى ألبانيا.

وفي صيف 1957 جاءني أحد الألبان من وزارة التجارة برسالة، وأنا في دائرة الهاتف. وكانت الرسالة مرسلة من قريبي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألباني، فاضل باتشرامي، يطلب مني تقديم مساعدة لحاملي الكتاب لدى مديرية معرض دمشق الدولي. ولما تسلمت الرسالة ذهبت مع القادم من ألبانيا إلى مديرية المعرض وأبلغتهم بأن ألبانيا ترغب في الاشتراك في معرض دمشق الدولي. وما كان من مدير المعرض صديقي إلا أن طلب الموظف المسؤول عن الأجنحة وخصّص لألبانيا جناحا بحسب الطلب، وكان أول جناح بحسب الأحرف الأبجدية. وبدأ مدير الجناح مع المهندس والعمال لبناء الجناح في معرض دمشق الدولي. ولما كانت المعروضات القادمة عن طريق البحر وصلت عن طريق بيروت، كان لا بد من الذهاب إلى بيروت لتسلمها من جمارك لبنان. وكان مدير الجناح لا يعرف سوى اللغة الألبانية والروسية، فطلب مني مرافقته إلى لبنان لتسلم المعروضات. وسافرت مع مدير الجناح، وحين وصلنا إلى الحدود اللبنانية عند المصنع رفضت السلطات اللبنانية السماح له بدخول لبنان لعدم وجود فيزا في جواز سفره. كان موعد افتتاح المعرض قد قارب، فطلبت من مدير الجناح تسليم الأوراق لي لأجل تسلم المعروضات وإرسالها إلى معرض دمشق الدولي. وافق مدير الجناح وسلّمني البوالص لأجل تسلم المعروضات من دائرة الجمارك اللبنانية. وفعلاً تم ذلك وشحنت المعروضات في سيارة إلى معرض دمشق الدولي لأجل الجناح الألباني. تابعت طريق عودتي من بيروت إلى دمشق ووصلت قبل وصول الشحنة. وحينما وصلت وجاء الكشّاف مدير الجمارك تسلمت حسب الأصول الصناديق التي كانت المعروضات فيها. وكان موعد افتتاح المعرض قد قارب، وجهزنا المعروضات بحسب الأصول في الأماكن المخصصة لكل نوع من أنواع المعروضات.

جاء موعد افتتاح المعرض، وكان رئيس الجمهورية يقوم بالافتتاح. وكان جناح ألبانيا أول جناح، وجاء وقت الافتتاح، وكنت أنا مع مدير الجناح نترقب قدوم رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي. كنت أعرفه وقابلته مراراً، وحينما شاهدني قال لي: أجدك في جناح ألبانيا؟ قلت نعم يا فخامة الرئيس، جئت لأساعدهم. قال لي: خيراً فعلت. وطلب مني شرحا عن المعروضات في الجناح[172]. لم يصدق مدير الجناح ما شاهد وحديثي مع فخامة الرئيس. قال لي بعد أن ذهب فخامته: نحن نشكرك أولاً وثانيًا ولولاك لما كان لألبانيا جناح وبفضلك تمّ هذا الجناح. وفي المساء طلب مني مدير الجناح مرافقته إلى دائرة البرق لأنه يريد إرسال برقية إلى بلاده، وأرسل البرقية وقال لي: الفضل لك في وجود جناح لألبانيا في هذا العام. وبعد نهاية المعرض وقبل سفره إلى بلاده تمنى أن تسمح الأيام بأن يراني في ألبانيا.

سافر مدير الجناح وعدت إلى عملي في دائرة الهاتف. وبعد عشرة أيام جاءت لي برقية من السفارة الألبانية في القاهرة، ومضمون البرقية أن «ألبانيا تدعوك لزيارتها لمدة أسبوعين والنفقات تتحملها الحكومة الألبانية منذ القدوم على أن تكون في القاهرة في 23/ 11/ 1957». أرسلت لهم جواب البرقية بالموافقة، وقبل مغادرتي دمشق ذهبت عند الأخ إبراهيم الأسطواني المسؤول لدى وزارة الخارجية، الذي تعرفت عليه منذ سنوات، وهو يعلم بأنني كنت المسؤول الأول الذي ساعد اللاجئين الألبان المحكومين لدى بلادهم بالإعدام. قال لي: هل ترغب في السفر؟ فقلت: نعم. قال لي: أنت الآن سوري الجنسية، وإذا تأخرت عن موعد عودتك سوف نطلب من الحكومة الألبانية بيان مصير المواطن السوري فلان.

(172) في بداية العام 1958 صدر في تيرانا العدد الأول من مجلة «ألبانيا الجديدة» باللغة العربية، وقد تضمن في الصفحات الأولى صورة كبيرة للرئيس القوتلي وهو يفتتح الجناح الألباني ويستمع إلى شرح عن معروضات الجناح، والى جواره شوكت غاوجي. انظر ملحق الصور في نهاية الكتاب.

وهكذا سافرت إلى القاهرة، ووجدتهم في مطار القاهرة ينتظرون وصولي، ومن المطار ذهبت مع المسؤول من السفارة إلى فندق الكونتيننتال في القاهرة. وفي الصباح جاء أحد المسؤولين من السفارة وطلب مني جواز السفر للحصول على فيزا دخول إلى يوغوسلافيا. وفعلاً سلّمت جواز السفر لموظف السفارة الألبانية في القاهرة، وفي اليوم الثاني جاء بجواز السفر ومعه فيزا دخول الجمهورية اليوغوسلافية. وفي اليوم الثاني غادرت القاهرة قاصداً بلغراد، وأقمت فيها يومين. كان في انتظاري في المطار سفير ألبانيا في يوغوسلافيا، وبعد قضاء يومين في بلغراد غادرت إلى تيرانا عاصمة ألبانيا، ووجدت بانتظاري في المطار مراسلي الإذاعة والمسؤولين لاستقبال القادمين لحضور الاحتفالات بمناسبة تحرير البلاد من الاحتلال الإيطالي والألماني. وبعد المقابلة التلفزيونية انطلقنا من المطار إلى فندق دايتي، وهو الفندق الكبير والوحيد في البلاد الذي بني أيام الاحتلال الإيطالي لألبانيا.

وفي اليوم الثاني جاءت سيارة صباحًا عند الساعة العاشرة ليقول لي أحد المرافقين بأن السيد أنور خوجا ينتظرك لمقابلته. وفعلاً في الوقت المحدد وصلت بالسيارة إلى مقر إقامته، واستقبلني السيد رامز عليا[173] وذكّرني بأيام الطفولة خلال المدرسة الابتدائية في مدينة إشقودرا، وقادني إلى غرفة رئيس الدولة أنور خوجا[174]. وحينما دخلت قام

(173) رامز عليا (Ramiz Alia): ولد في شكودرا في 18/ 10/ 1925، والتحق بالمدرسة الثانوية في تيرانا حيث انضم إلى الحزب الشيوعي في عام 1943. عمل أولا في صفوف الشبيبة، وأصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب عام 1948 ووزيرا للتعليم والثقافة خلال الفترة (1955-1958). صعد بسرعة بعد تصفية الرجل الثاني في الدولة (محمد شيخو) في نهاية العام 1981 ليصبح في العام 1982 رئيس مجلس الرئاسة، وليتولى رئاسة الحزب بعد موت أنور خوجا عام 1985. أصبح رئيسا لألبانيا خلال عهد الانتقال من النظام الشمولي إلى النظام الديموقراطي 1991-1992:

Fjalori enciklpedik shqiptar 1, pp.53-54.

(174) أنور خوجا (Enver Hoxha) (1908-1985): ولد في مدينة جيروكاسترا بجنوب ألبانيا وتخرج من الليسيه الفرنسية عام 1930. ذهب إلى فرنسا ليتابع دراسته في العلوم بجامعة مونبلييه وانضم بعد عودته إلى الحركة الشيوعية الصاعدة، وشارك في تأسيس الحزب الشيوعي الألباني عام 1941. انتخب

وصافحني وقال لي: أهلاً وسهلا في وطنك. جلست معه، وفي حديثه شكرني أولا على الخدمة التي قدمتها لجناح ألبانيا في معرض دمشق الدولي، ثم قال لي: إننا حاربنا العدو الخارجي والعدو الداخلي ودفعنا الثمن غاليا، وقد وجدنا البلاد خرابا من ضربات العدو، وكل شيء بنيناه من العدم، ونحن الشيوعيين لا نؤمن بالأديان، لكن تركنا كل واحد على دينه ما لم يتدخل في أمور الدولة. وقبل نهاية الحديث قال لي كلمة حفظتها وهي: «إذا أردت شيئًا من بلادك ولم يقدموه لك كاتبني مباشرة». وهكذا انتهت مقابلتي معه.

وفي اليوم الثاني بدأت الاحتفالات بعرض عسكري في مدينة تيرانا. وفي المساء حضرنا احتفالا مسرحيا في الأوبرا في تيرانا. وفي اليوم الثاني غادرنا تيرانا إلى مدينة فلورا[175]، وهي المدينة التي رفعت العلم الألباني لأول مرة في ألبانيا على يد الزعيم إسماعيل كمالي[176] واعترفت الدول باستقلال ألبانيا في عام 1912[177]. أقيمت

عام 1943 سكرتيرا عاما للحزب، وبعد وصول الحزب إلى الحكم أصبح في العام 1945 رئيسا للحكومة حتى سنة 1954 حين تفرغ للحزب إلى أن توفي سنة 1985:

Fjalori enciklopedik shqiptar 2, pp.957-958.

(175) مدينة فلورا (Vlora): من المدن القديمة في ألبانيا والميناء الثاني لها في الجنوب بعد دورس. يعود تأسيسها إلى القرن الرابع ق.م، وارتبط مصيرها بقلعة كانينا المجاورة. بعد الاحتلال الروماني لها احتلها النورمان وأخيرا البنادقة إلى أن فتحها العثمانيون في وقت مبكر (1425)، وكانت بذلك أول ميناء لهم على البحر الأدرياتيكي:

Fjalori enciklopedik shqiptar, pp.1169-1170.

(176) إسماعيل كمال (I.Qemali): ينحدر من أسرة عريقة قدمت شخصيات معروفة خلال الحكم العثماني. عمل فترة بمعية الوالي المصلح مدحت باشا، وكان طيلة عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) أقرب إلى المعارضة. رأس في العام 1908 حزب «الأحرار» المعارض لجمعية «الاتحاد والترقي»، واتهم بالمشاركة في «الثورة المضادة» سنة 1909، مما دفعه إلى مغادرة إستانبول والعمل مع الحركة القومية الألبانية الساعية إلى الاستقلال الذاتي. بعد إعلان الاستقلال في 28/ 11/ 1912 انتُخب رئيسا لأول حكومة ألبانية. للمزيد عنه انظر دراستنا: مذكرات إسماعيل كمال عن «الثورة المضادة» في إستانبول، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 7-8، تونس، 1993، ص11-28.

الاحتفالات طيلة النهار وحتى منتصف الليل، وبعد نهاية الاحتفالات عدنا إلى تيرانا لقضاء ليلة، ثم قمنا برحلة خارج تيرانا إلى مقر ومنزل إسكندر بك الذي حارب في سبيل تحرير البلاد عشرين سنة ضد الحكم التركي حتى تحررت[178]. وزرنا بعد ذلك مقبرته في مدينة ليش[179] وبقربه مسجد بُني أيام الأتراك[180] ثم عدنا إلى تيرانا.

وفي اليوم الثاني بدأنا زيارة المدن الألبانية، فزرنا مدينة كورتشا[181] وبعد ذلك جيروكاسترا[182] التي فيها مسقط رأس الرئيس أنور خوجا. زرت منزله

---

(177) مع اندلاع الحرب البلقانية في تشرين الأول 1912، احتلت قوات التحالف البلقاني (صربيا والجبل الأسود واليونان) معظم ألبانيا. ومع أن الزعماء الألبان توجهوا إلى مدينة فلورا وأعلنوا فيها الاستقلال عن الدولة العثمانية في 28/ 11/ 1912، إلا أن مصير هذا الاستقلال بقي معلقا إلى أن اجتمعت الدول الأوروبية الكبرى في «مؤتمر لندن» في 17/ 12/ 1912، وأعلنت اعترافها باستقلال ألبانيا. للمزيد انظر كتابنا: تجربة ألبانيا في القرن العشرين، ص41-43.

(178) للمزيد عن هذه الشخصية انظر مقالتنا: إسكندر بك الألباني، مجلة «العربي»، عدد 292، الكويت 1983، ص140-145.

(179) مدينة ليجا (Lezha) من أقدم مدن ألبانيا، وهي تطل من بعد 12 كم على الساحل الأدرياتيكي. اشتهرت قبل الميلاد كمركز للأليريين إلى أن سقطت بيد القوات الرومانية سنة 168 ق. م. في القرون الوسطى كانت مركزا إقطاعيا ألبانيا واختارها إسكندر بك ليعلن فيها تأسيس «عصبة ليجا» لمقاومة الحكم العثماني. توفي إسكندر بك ودُفن فيها سنة 1468م وانضمت بعد عشر سنوات إلى ألبانيا العثمانية:

Fjalori enciklopedik shqiptar 2, pp.1483-1485.

(180) المقصود «جامع السليمية» نسبة إلى السلطان سليم الثالث (1789-1807) الذي بني في عهده على ما بقي من كاتدرائية القديس نيقولا التي تعود إلى القرن الخامس عشر، والتي دفن فيها إسكندر بك. وقد تعرض الجامع إلى أضرار نتيجة للعوامل الطبيعية في مطلع القرن السابع عشر، وبقي مهجورا إلى أن بني من جديد في عهد السلطان سليم الثالث. وقد تعرض الجامع إلى أضرار كبيرة نتيجة لهزة أرضية في عام 1979، لذلك فإن السلطات الألبانية قد بنت في موقعه ضريحا كبيرا لإسكندر بك في العام 1983:

Machiel Kiel, Ottoman Architecture in Albania 1385-1912, Istanbul (IRCICA) 1990, pp.191-193.

(181) كورتشا (Korca): من المدن الرئيسة في ألبانيا الجنوبية. كانت قرية حتى الفتح العثماني، وتحولت إلى مدينة بفضل النواة العمرانية الجديدة (جامع وسوق وحمام) التي بناها القائد إلياس بك بعد عودته من فتح القسطنطينية سنة 1453م. وقد ازدهرت لاحقا كمركز إداري وحرفي:

الذي ولد فيه، وهو الآن متحف[183]، ثم عدنا إلى إلباسان[184]، وهي مدينة تشبه دمشق بمبانيها الكبيرة والحنفيات في الشوارع. وتكثر في هذه المدينة الحمضيات وخاصة الكلمنتينا، وفيها يوجد مصنع للموبيليا ومصنع للحديد، وزرنا أيضاً معمل النسيج. وعدنا إلى تيرانا وذلك لنبدأ في اليوم التالي رحلتنا إلى منطقة مات[185]، حيث يقام سدٌّ عظيم ومولّد للكهرباء، وهي طريق إشقودرا. وتابعنا الطريق إلى مدينة إشقودرا مسقط رأسي، وهناك زرنا معمل الورق ومعمل الأسلاك والكوابل، كما زرنا أيضاً القلعة المشهورة التي

Fjalori enciklopedik shqiptar 2, pp.1279-1281.

(182) جيروكاسترا (Gjirokastra): من أقدم المدن في ألبانيا الجنوبية التي لا تزال تحتفظ بطرازها العمراني المميز وقلعتها التاريخية الكبيرة التي كانت مركزا للحكم الألباني الإقطاعي، ثم أصبحت مركزا للوالي الألباني علي باشا الذي حاول أن يستقل عن الدولة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر:

Fjalori enciklopedik shqiptar 1, pp.846-850.

(183) بعد انهيار الحكم الشمولي في ألبانيا خلال العامين 1990-1991 دمّرت تماثيل أنور خوجا في الميادين العامة، وتعرض بيت/ متحف أنور خوجا عام 1997 إلى أضرار كبيرة نتيجة لانفجار شحنة متفجرة وضعت هناك. لذلك قامت السلطات الألبانية الجديدة بترميم هذا البيت وتحويله في عام 2005 إلى «متحف التقاليد الشعبية».

(184) إلباسان (Elbasan): من مدن ألبانيا الرئيسية التي تربط ألبانيا الشمالية (الغيغ) بألبانيا الجنوبية (التوسك). ورد ذكرها كمركز تجاري عسكري خلال الحكم البيزنطي، إلا أن اسمها الحالي يرتبط بالقلعة الكبيرة التي بناها السلطان العثماني محمد الفاتح في عام 1466 والتي نمت في جوارها البلدة الجديدة كمركز حرفي معروف:

Fjalori enciklopedik shqiptar 1, pp.585-587.

(185) سميت المنطقة نسبة إلى نهر ماتي (Mati) في ألبانيا الوسطى الذي يصبّ في البحر الأدرياتيكي. وجدت فيها ثقافة أليرية قديمة من العصر البرونزي، واشتهرت حتى منتصف القرن العشرين بمحافظتها على التقاليد الألبانية في العيش المشترك (العائلات الممتدة) والفولكلور الخاص بها:

Fjalori enciklopedik shqiptar, vol.2, pp.1654-1655.

تقـع في مـدخل مدينـة إشـقودرا. وبقـرب القلعـة جـامع يشـبه جـامع السـلطان سـليم في دمشق[186].

إن إشقودرا مشهورة بالمساجد، وكانوا يقولون عنها: «إستانبول الصغيرة». وعـاد الوفـد وبقيـت أنـا يـومين في مسـقط رأسـي مـع سـيارة خاصـة. وبعـد إقـامتي ومشـاهدة الأقـارب والأصدقاء عدت إلى تيرانا. وقمنا أيضـاً بزيارة معمل السجاد في تيرانـا والمتحـف الحربـي وجامعة تيرانا التي تشتمل على كل الكليات. وفي حفل الوداع الأخير، أقامت الدولـة حفلـة للوفود القادمة من إيطاليا وألمانيـا وأمريكـا وفرنسـا ومصـر وروسـيا، وكنـت الوحيـد الـذي يمثـل الجالية الألبانية في سورية، بصفتي المسـؤول عن الجاليـة ومدرّس اللغة الألبانية في سورية.

عدت من تيرانا إلى القاهرة ومنها إلى دمشق. وقد تأخرت كثيراً عن الوظيفة وصدر قرار بتسريحي، لكن سيرتي الطيبة في دائرة الهاتف ألغت قرار التسريح. وهكـذا بـدأت الرسـائل تردني من عدد من الأشخاص في ألبانيا، وبـدأت تصـل إلـي المجـلات والصـحف الألبانيـة. وفي ليلة وأنا في المنزل جاء أحد رجال الأمن يطلب مني مراجعة دائـرة الأمـن. وفي الصـباح ذهبت وقابلت المسؤول الذي طلب مقابلتي وقـال لـي: أنـت السـيد شـوكت؟ قلـت: نعـم. طلب مني الهوية وبعد ذلك بـدأ يسـألني عـن المـورد، أي الراتـب الـذي أتقاضـاه مـن دائـرة الهاتف فأخبرته، فقال لي: هذا هو الراتب؟ قلت: نعم. قال: كم مرة ذهبت إلى ألبانيا؟ قلت له: مرة واحدة، ويمكن أن تتأكد من جـواز سـفري الموجـود لـدى مديريـة الجـوازات. قـال لي: لا بل ذهبت أكثر من مرة. أجبته: قلت لك الحقيقـة. قـال لـي: أنـت ذهبـت إلـى ألبانيـا، وهناك طلبوا منك العمل لإعادة الألبان الموجودين في سورية إلى ألبانيا لقاء راتب تتقاضاه

(186) المقصـود هنـا «جـامع الرصـاص» الـذي بنـاه في (1773-1774) والـي شـكودرا محمـد باشـا بوشاتلي على نمط جوامع السلاطين، ليثبت مكانته شبه المستقلة. لذلك بقي حتى نهاية الحكـم العثمـاني لألبانيا عام 1912 الجامع الأكبر والأجمل:

Kiel, Ottoman Architecture, p.231.

شهرياً من الحكومة الألبانية. قلت: هذا غير صحيح. نعم أنا ذهبت إلى ألبانيا، وهي بلادي التي ولدت فيها. ثم قال لي وبصوت جهوري: أنت تتعامل مع ألبانيا الشيوعية لأجل إعادة الأرناؤوط ولنا أدلة على ذلك. قلت: أولاً الأرناؤوط الموجودون في سورية والمولودون فيها هم ليسوا من ألبانيا بل هم من كوسوفا[187]. ثم قال لي: أنت الآن سوري، ولكن خلال لحظات يمكن سحب الجنسية السورية. قلت: إذا كنت مذنبا فالدولة يمكن أن تعمل كل شيء. قال لي: اذهب الآن ولا تغادر دمشق.

وهكذا أكثر من مرة طلبت مني دائرة الأمن مراجعتها. كان ذلك في عهد عبد الحميد السراج[188]. وفي يوم بعد خروجي من الدائرة قصدت منزل فخامة رئيس الجمهورية السورية السابق فخامة شكري بك القوتلي، وكنت أعرفه حق المعرفة. ذهبت إلى منزله في شارع أبو رمانة بالقرب من السفارة الأردنية، حيث كان يقيم فخامته وهو المواطن الأول بعد أن توحدت سورية ومصر[189]. طرقت الباب وفتح الباب شخص لا أعرفه وقال لي: ماذا تريد؟ قلت: أريد مقابلة فخامة الرئيس. قال لي: من أنت؟ أخبرته باسمي، ودخل عند فخامته وأخبره وبعد لحظات قال لي الحاجب: فخامته يستقبلك. دخلت ورحب بي وقال:

---

(187) في الحقيقة، معظم الألبان الذين وفدوا إلى دمشق في النصف الأول للقرن العشرين كانوا من كوسوفا لأسباب تتعلق بالاضطهاد الذي لحق بهم بعد الاحتلال الصربي لبلادهم سنة 1912، بينما لم يأت من ألبانيا سوى بعض الأسر المعروفة من مدينة شكودرا التي كانت مركزا معارضا لأحمد زوغو وسياسته العلمانية.

(188) عبد الحميد السراج (1925): برز في الحياة العسكرية السياسية السورية بعد اغتيال العقيد عدنان المالكي في عام 1955 وتعيينه خلفا له في رئاسة الاستخبارات العسكرية، ولعب دورا مهما مع بعض الضباط في التقارب مع مصر وصولا إلى الوحدة معها. خلال عهد الوحدة (1958-1961) تولى منصب وزير الداخلية في الإقليم الشمالي، ثم رئيس المجلس التنفيذي إلى أن استقال في آب 1961 نتيجة لخلافاته مع المشير عبد الحكيم عامر: غسان زكريا، السلطان الأحمر، لندن أرادوس، 1991.

(189) بعد إعلان الوحدة بين مصر وسورية سنة 1958 وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة)، مُنح الرئيس السوري شكري القوتلي بعد تنازله عن الرئاسة اللقب الفخري «المواطن العربي الأول».

أهلاً وسهلاً. وكان وقت الغداء وأمر أن أجلس وأتغدى معه. قلت: يا فخامة الرئيس إني جئت إلى فخامتكم لأمر يهمني. وشرحت له الموضوع. قال لي: اجلس. جلست وأخذ الهاتف وهو يطلب وزير الداخلية عبد الحميد السراج، وبعد قليل قال فخامته: يا عبد الحميد لقد أرسلت للسيد شوكت وهو الألباني الأصل في طلبه، إن هذا الشخص أعرفه حق المعرفة والرجاء عدم السؤال عنه غيري، وأنا المسؤول عنه.

ومنذ تلك اللحظة لم يسأل أحد عني، ومضت الأيام. وقد عرفت لاحقا أن الذي قام بمثل هذا العمل هو إبراهيم الأرناؤوط الذي كان يعمل في المخابرات[190]. وقد قام بجمع بعض الإمضاءات من بعض أصدقاء الأرناؤوط. وقد علمت بعد ذلك من شخص قال لي بأن إبراهيم، وهو يعمل مخبرا، جاء عنده وقال له: الآن جاء الوقت المناسب لأن نخرج شوكت من سورية. قال له هذا الشخص: ولماذا تقوم أنت بهذا العمل؟ قال له: السيد شوكت جاء حديثاً إلى سورية، ونحن من مواليد سورية وهو يتعرّف على الوزراء ويقوم بتمثيل اللاجئين الألبان الفارين من الشيوعية. ولم تمض أيام حتى اعتُقل هذا المخبر في الجامع الأموي وحُكم بالإعدام، ولكن لم ينفّذ حكمه[191]. وبعد أيام سُمح لي بالذهاب في البلاد وخارج البلاد.

مرت الأيام وجاء ألكسندر نجل الملك أحمد زوغو إلى سورية وطلب مني مقابلته، وذهبت إلى فندق سمير أميس حيث كان يقيم. طلب مني الذهاب لزيارة فخامة شكري القوتلي. وفعلاً ذهبنا أنا وجلالته لزيارته في منزله في شارع أبو رمانة بالقرب من السفارة الأردنية وأصرّ فخامته أن نتغدى في منزله مع جلالته.

---

(190) في ذلك الحين عرف باسم المكتب الثاني.

(191) المقصود هنا التجمّع الذي جرى في الجامع الأموي ضد نظام الحكم الجديد سنة 1964. وقد حكم عليه آنذاك بالسجن عشر سنوات بتهمة المشاركة في أنشطة معادية للدولة، لكن أفرج عنه في حزيران 1967 مع غيره من المعتقلين السياسيين. وقد جرّب أولا أن يعمل في تحقيق كتب التراث كأخيه الشيخ شعيب الأرناؤوط فاشتغل فترة مع الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، ثم اتجه للعمل في الفندقة فاشتغل في فندق الشام بدمشق وفندق الشام بتدمر إلى أن توفي في العام 2000.

في عام 1980 جاء أحد الأشخاص من لندن واسمه السيد عباس[192] ،وطلب مقابلتي في فندق شيراتون بدمشق. قال لي بعد مقابلتي: إنك تعرف حق المعرفة ولك صداقة مع ألكسندر نجل ملك ألبانيا الراحل؟ قلت: نعم، وما هو المطلوب؟ قال لي: إني أريد مقابلته، وقالو لي إنك تستطيع تأمين مقابلة لي. قلت: لماذا؟ قال: لأمر يهمه ويهم بلاده أيضا.

في اليوم التالي اتصلت مع جلالته وقال لي في اليوم كذا سوف أكون في أبوظبي وأنتظرك. قابلت جلالة الملك في أبوظبي وسألني عن الشخص. قلت إنه في لندن واسمه عباس وإنه مستعد لتقديم المساعدة في سبيل تحرير البلاد بالسلاح والأشخاص. قال لي جلالته: أين جوازك؟ قلت له: موجود. أخذه وأعطاه للسكرتير فأعطاني إياه لاحقا مع فيزا لباريس. أخذ رقم عباس وطلب مقابلته هناك. قابلناه هناك أنا والملك. قال للملك إنه لديه إمكانيات لتقديم المساعدة وهو مقيم في لندن، وله شركة بترولية كبيرة هناك، وطلب زيارتنا إلى لندن.

سافرنا إلى لندن مع جلالته وأقمنا في فندق. جاء الشخص وأقام حفلة غداء، وبعد الغداء ذهبنا إلى مكتبه للزيارة، إلا أن الوقت كان ضيقا فأجّلناها إلى الغد. ذهبنا في اليوم التالي فقال لجلالته: إنني كنت محكوما بالإعدام من قبل عبد الناصر ونجوت بأعجوبة من المخابرات الناصرية، وغادرت الإسكندرية إلى اليونان ثم إلى لندن. إني على استعداد لأن أقدم كل الإمكانيات المادية والعسكرية لتحرير البلاد من الشيوعية وذلك مقابل الحصول على الخريطة العسكرية لإسرائيل الموجودة في أمريكا. قال له جلالته إن هذا صعب. ومع ذلك سافر جلالته إلى أمريكا حيث بقي ثلاثة أيام وبعد رجوعه قال له إن ذلك من المستحيل.

عدت إلى دمشق وذهب الملك إلى جنوب إفريقيا. وكان الملك قد غادر الإسكندرية إلى إسبانيا أولا. وبعد أن توفي والده أعلن نفسه «ملك الألبان» ودعاني لحضور حفل تتويجه وأرسل لي جواز سفر ألباني طبعه في المنفى، وهو موجود لديّ حتى الآن. وبعد أن

(192) لا يتذكر الآن شوكت الاسم الكامل له.

سافر من إسبانيا إلى جوهانسبرغ ظلّ يراسلني في كل المناسبات إلى أن قرر العودة إلى ألبانيا.

وحينما قرّر العودة طلب مني زيارته ولبّيت الطلب. غادرت دمشق إلى إستانبول، ولما رأى سفير ألبانيا اسمي في جواز السفر عرفني وقال لي: إني أعرفك منذ زمان، وكنت أرسل لك الرسائل والكتب والمجلات، ولذلك لا حاجة لك للفيزا. طلبت منه إرسال فاكس للملك ليستقبلوني في المطار.

غادرت إستانبول إلى تيرانا جوا. من المطار أخذت السيارة إلى مقر الملك ليكا. سألوني: من أين أنت؟ قلت: أنا مدعو من الملك لزيارته وأنا صديقه. أخذوني للفندق، وفي اليوم التالي جاء شخص من عند الملك وقال لي: إن جلالته ينتظرك. ذهبت إلى مقرّ الملك. كان يعجّ بالوافدين لزيارته، وحينما وصلت قال لي شخص: الملك ينتظرك. قابلته شخصيا وشاهدت أن صحته متدهورة جدا فسألته لماذا؟ قال لي: يا سيد شوكت، الوضع ليس كما يجب. لقد عدت إلى وطني على أمل، ولكن لا أدري إلى متى[193].

بقيت ليلتين في الفندق، وفي اليوم الثالث طلبت من الموظف أن يأخذ لي فيزا لدخول تركيا. ذهب معي إلى السفارة ودخل وأعطاني الفيزا. عدت إلى إستانبول ومنها إلى دمشق.

وبعد عام تقريبا كنت مدعوا إلى سيمينار اللغة الألبانية وثقافتها الذي تقيمه جامعة بريشتينا. ومضى وقت السيمينار وكانت لديّ رغبة في زيارة الملك وقلت لشخص إنني أرغب في زيارة ألبانيا. ذهبنا معا إلى السفارة الألبانية فمنحتني كتاب السفير للسماح لي بدخول ألبانيا.

---

(193) في عام 1997 جرت انتخابات برلمانية جديدة في ألبانيا مع استفتاء على اختيار النظام الجمهوري أو الملكي، ففاز الحزب الاشتراكي. وقد تحدث ليكا عن تزوير كبير لإرادة الناخبين. وقد التقيته آنذاك في عمّان التي كان يتردد إليها من حين لآخر نظرا للعلاقة بين الأسرتين الملكيتين، وقد كان محبطا للغاية. وقد أجرى معه وقتها الصديق إسماعيل أبو البندورة أول لقاء صحفي مع جريدة عربية:
الملك ليكا: خلاص ألبانيا بعودة النظام الملكي، جريدة «العرب اليوم»، عمّان، 10/ 8/ 1997.

سافرت من كوسوفا بسيارة خاصة إلى إشقودرا. أمضيت ليلة في أحد الفنادق، وفي اليوم التالي سافرنا إلى تيرانا حيث كنت أريد مقابلة جلالته. قالوا لي إن جلالته يقيم في منطقة خارج تيرانا في بيت كبير. ذهبت إلى قصر الملك وطرقت الباب وقلت أريد أن أقابل الملك. كان هو في الباحة فقال لي: أهلا وسهلا. لقد جئت في الوقت المناسب، هناك أصدقاء كثر جاؤوا لزيارتي. وبعد أن جلس قلت لجلالته كلمتين: في منزلك تأتيك طيور من أنحاء العالم لا تعرف أسماءهم لكن تعرف قلوبهم، وفي منزلك يزورك كثير من الناس تعرف قلوبهم ولا تعرف أسماءهم.

بقيت لآخر الحفل لأنني كنت أنتظر السيارة التي أتت بي. وعندما جاءت عدت من تيرانا إلى كوسوفا ومن كوسوفا إلى دمشق، وكان هذا لقائي الأخير بالملك ليكا بن الملك أحمد زوغو، ملك ألبانيا السابق.

والسلام.

شوكت سليمان غاوجي

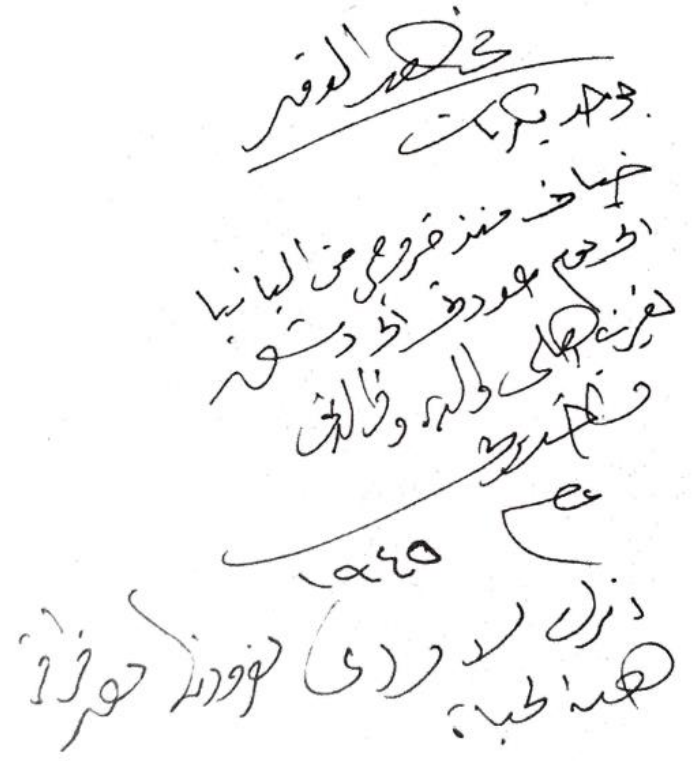

الورقة الأولى لمذكرات شوكت غاوجي

ألبوم صور

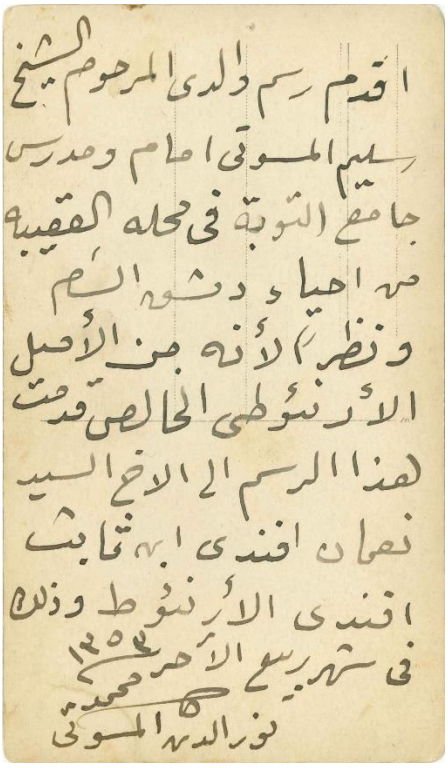

(1) الشيخ سليم المسوتي (1832-1906)

إهداء من ابنه نور الدين إلى نعمان بن ثابت فريزاي (1900-1983)

(من مجموعة يحيى نعمان ثابت فريزاي)

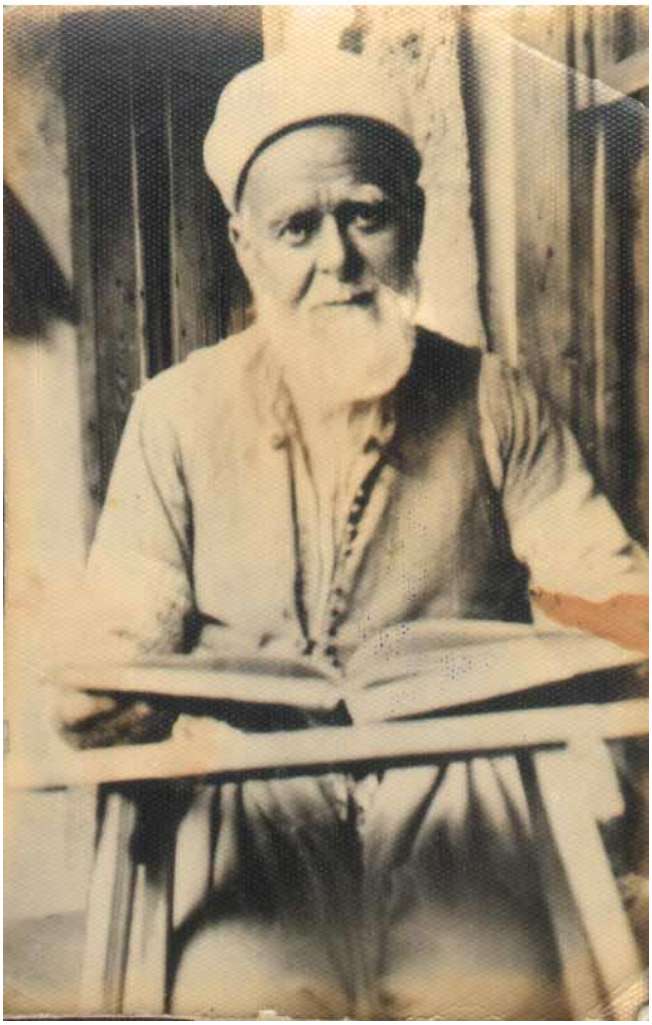

(2) ثابت نعمان فريزاي (1860–1950)

(من مجموعة عائشة أرناؤوط)

(3) من الجيل الأول الذي نشأ في دمشق:
نعمان بن ثابت فريزاي وحمدي ويوسف، ابنا أخيه مصلح
في عشرينيات القرن العشرين
(من مجموعة يحيى نعمان ثابت فريزاي)

(4) نعمان ثابت فريزاي مع بندقيته في ثلاثينيات القرن العشرين

(من مجموعة يحيى نعمان ثابت فريزاي)

(5) شوكت غاوجي نائب رئيس الجمعية الألبانية التي تأسست عام 1946 باللباس الشعبي الألباني (من المجموعة الشخصية للمؤلف)

(6) الشيخ حمدي بختيار عام 1949

مدرسا في المدرسة السعدية الإسلامية

(تقدمة من ابنته مسرورة)

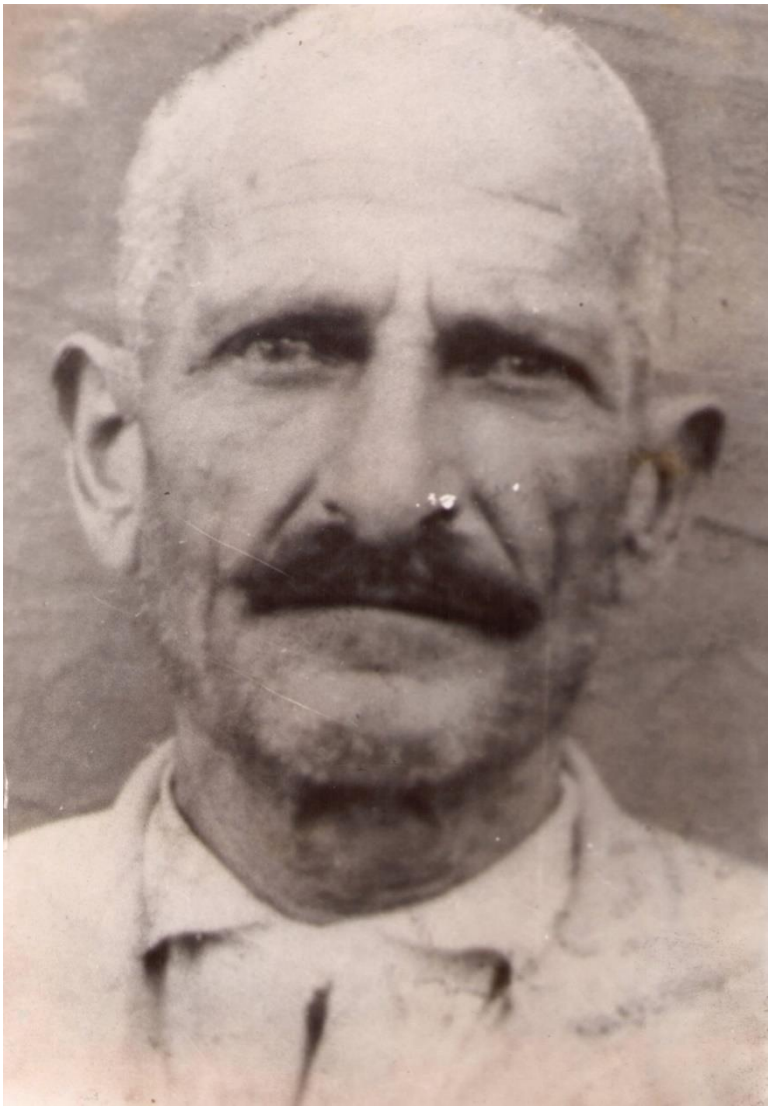

(7) صوقول عبدولي (1893-1959) والد الشيخ عبد القادر الأرناؤوط
(من المجموعة الشخصية للمؤلف)

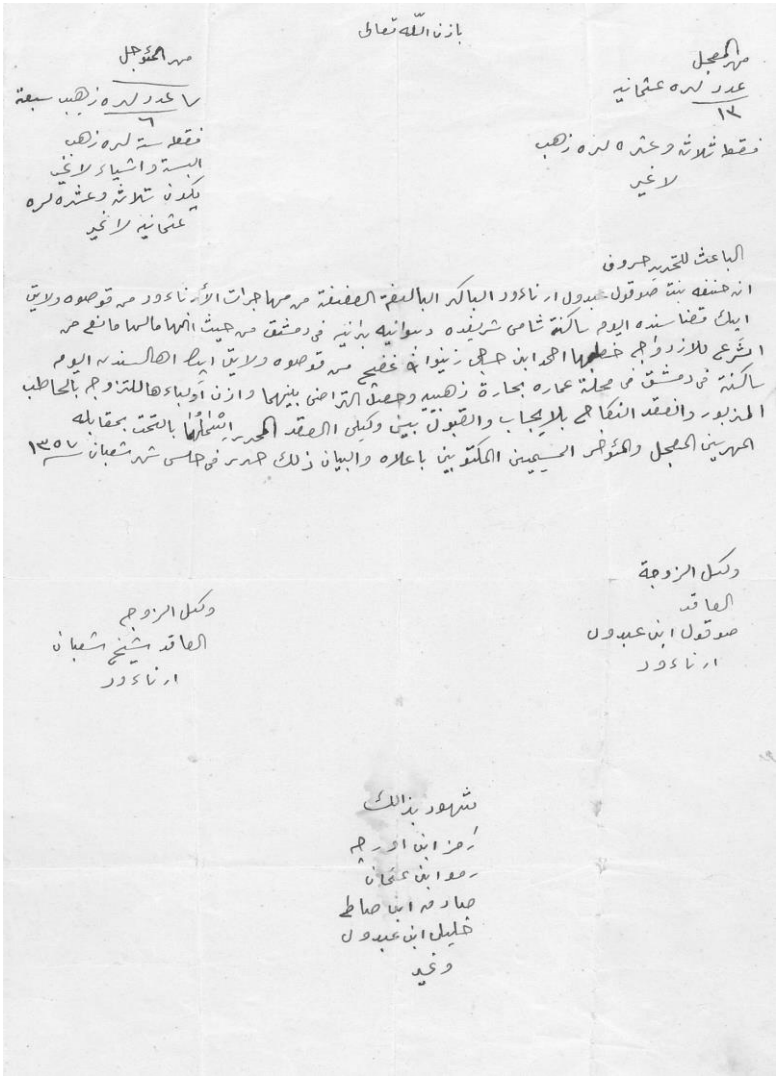

(8) عقد زواج حنيفة ابنة صوقول عبدولي على أحمد غيغيتش يبيّن احتفاظ الألبان بأسمائهم الأصلية والبلدات التي جاؤوا منها (من المجموعة الشخصية للمؤلف)

(9) حنيفة بعد زواجها مع ابنتها الأولى حوالي العام 1951
(من المجموعة الشخصية للمؤلف)

(10) أحمد غيغيتش الأرناؤوط موظفا في شركة الكونسروة
في خمسينيات القرن العشرين
(من المجموعة الشخصية للمؤلف)

(11) عبد اللطيف أرناؤوط طالبا في الكلية الحربية في 15/ 9/ 1955

(من مجموعة عائشة أرناؤوط)

(12) الرئيس شكري القوتلي في افتتاح معرض الفنون الجميلة (1955)
متحدثا إلى الفنان أنور علي أرناؤوط
(من مجموعة محمود أنور أرناؤوط)

(13) الفنان أنور علي أرناؤوط مدرّسا في مدرسة معاوية بسوق ساروجة
في نهاية ثلاثينيات القرن الماضي
(من مجموعة محمود أنور أرناؤوط)

(14) إعلان انتخابي للشيخ عبد القادر الأرناؤوط

لانتخابات الاتحاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة 1959

(من الإنترنت)

دليل الاتحاد القومي – الاقليم الشمالي

مدينة دمشق – الوحدة الانتخابية الرابعة – عمارة وتوابعها

السيد عبد الغني الكزبري ٤٥ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- مزارع
- خبير زراعي
- العنوان : دمشق – عمارة

السيد قدري الارناؤوط ٤٠ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- خطيب جامع الديوانية
- الثانوية الشرعية
- العنوان : دمشق – عمارة – جامع الديوانية

السيد صلاح العلبي ٣٧ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- موظف في وزارة التربية والتعليم
- شهادة التحصيل الثانوي
- العنوان : دمشق – عمارة – مدرسة مسجد الاقصاب

السيد فخر الدين الحسيني ٣٨ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- موظف
- يحمل شهادة التحصيل الثانوي – كاتب اجتماعي
- العنوان : دمشق – عمارة

السيد صالح الخطيب ٥٠ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- تاجر مال القبان
- متعلم
- العنوان : دمشق – عمارة جوانية

السيد محمد بشير النحلاوي ٣٥ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- مدرس في ثانويات دمشق
- شهادة الدراسة الثانوية
- العنوان : دمشق – مهاجرين – ابو رمانة

الدكتور محمد محمود الخطيب ٣٨ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- عضو لجنة التربية والتعليم وعضو لجنة التخطيط والبحوث بوزارة التربية والتعليم
- ليسانسيه وماجستير ودكتوراه في العلوم – دبلوم في التربية وعلم النفس مع أهلية التعليم
- العنوان : دمشق – عمارة – حمام سامي (١٣)

السيد منير التقي ٤٧ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- صيدلي
- اجازة في الكيمياء والصيدلة
- العنوان : دمشق – عمارة – باب البريد – صيدلية الامانة

السيد مظهر الخياط ٤٥ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- تاجر
- متعلم – يعمل بأهداف القومية العربية
- العنوان : دمشق – ابو رمانة

السيد احمد رسلان الوتار ٥٠ سنة
- عضو الاتحاد القومي في المنطقة الرابعة
- تاجر جلد ومصران وصوف
- يحسن القراءة والكتابة
- العنوان : دمشق – دباغات – احمد رسلان الوتار

– ٣٨ –

(15) الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ضمن القائمة الانتخابية الرابعة في دمشق لانتخابات الاتحاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة 1959 (من الإنترنت)

(16) عبد القادر أرناؤوط في أول معرض شخصي مثّل مرحلته الفنية الأولى (1961)
(من موقع عبد القادر أرناؤوط الذي يشرف عليه ابنه سامي أرناؤوط)

(17) الإخوة عبد القادر وعبد اللطيف وعائشة أرناؤوط
في نزهة بالغوطة سنة 1962
(من المجموعة الشخصية للمؤلف)

(18) التغيرات الثقافية لدى الجيل الأول الذي نشأ في دمشق:
حسين أرناؤوط والد عبد القادر أرناؤوط (بالطربوش ولفة لام ألف) وخاله نعمان ثابت (بالطربوش) في مرسمه الأخير بجادة أبو رمانة عام 1968- 1969
(من مجموعة عائشة أرناؤوط)

(19) تشييع إسماعيل غوراني أحد رموز الألبان عام 1974
ويلاحظ «البليس» الألباني على رأس التابوت.

(20) عبد اللطيف الأرناؤوط (الثاني من اليمين) وعلي خلقي (الرابع من اليمين) مع مجموعة كتّاب أمام مجلة «صوت الشباب» في بريشتينا في صيف 1978 (من المجموعة الشخصية للمؤلف).

(21) الشاعر بركات لطيف

سائق القطار على خط دمشق – درعا

(من الإنترنت)

ملاحظات ببلوغرافية

1. **سنوات الحافظ إسلام البرشتوي في دمشق 1920-1929،** نشرت لأول مرة في مجلة «العاديات»، عدد1، حلب، 2004، ص42-47.
2. **من العثمانية إلى القومية العربية: معروف الأرناؤوط،** نُشرت لأول مرة بعنوان «عودة إلى معروف الأرناؤوط» في مجلة «البيان»، عدد127، الكويت، تموز 1976، وتُنشر هنا بعد إضافة تحديثات عليها.
3. **بروز «السلفية الألبانية»: الشيخ ناصر الدين الألباني،** قدمت في الأصل ورقة تحت عنوان «الأقلية الألبانية في سورية ودورها في بروز السلفية المعاصرة» إلى الندوة الدولية التي نظمها مركز الأبحاث ودراسة السياسات: «المسألة الطائفية وتطييف الأقليات في المشرق العربي» التي عقدت في البحر الميت 13-15/ 3/ 2014، وتنشر هنا مع بعض التعديلات الطفيفة.

كتب أخرى للمؤلف

المؤلفات

1. الثقافة العربية في الأبجدية العربية، الكويت، عالم المعرفة، 1983.
2. تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت، دار العروبة، 1987.
3. الألبانيون في العالم العربي (بالألبانية)، بريشتينا، 1990:

Shqiptarët në botën arabe, Prishtinë (Rilindja) 1990.

4. ملامح عربية إسلامية في الأدب الألباني، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1990.
5. الإسلام في يوغوسلافيا.. من بلغراد إلى سراييفو، عمان، دار البشير، 1993.
6. معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، دمشق، دار الحصاد، 1993.
7. دراسات في التاريخ الحضاري لبلاد الشام في القرن السادس عشر، دمشق، دار الأبجدية، 1995.
8. دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، تونس – دبي، مؤسسة التميمي/ جمعة الماجد، 1995.
9. كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني- الصربي في القرن العشرين، القاهرة، مركز الحضارة للدراسات السياسية، 1998.
10. مداخلات عربية – بلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2000.
11. دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، دمشق، دار الفكر، 2000.
12. دراسات حول وقف النقود، تونس، مؤسسة التميمي، 2000.
13. دراسات حول الحكومة/ الدولة العربية في دمشق 1918-1920، إربد- عمان، الشروق/ حمادة، 2000.
14. التأليف في اللغة العربية في البوسنة، عمان – إربد، الشروق – حمادة، 2001.

15. مراجعة الاستشراق: الذات والآخر- تجربة يوغوسلافيا، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2000.

16. من دار الإسلام إلى الوطن ومن الوطنية إلى القومية، بيروت، الدار العربية للعلوم 2004.

17. البوسنة بين الشرق والغرب، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2005.

18. الإسلام في أوروبا المتغيرة: تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2007.

19. كوسوفو ما بين الماضي والحاضر، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2008.

20. الوثائق العربية في مركز المحفوظات بدوبروفنيك، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2008.

21. الصلات الأدبية الألبانية العربية (بالألبانية)، تيرانا، 2009:

Lidhjet letrare shqiptare-arabe, Tiranë (ACFOS) 2009.

22. سنان حسّاني.. الروائي الشاهد على حياة وموت يوغوسلافيا، عمّان، أزمنة، 2009.

23. كوسوفا تجليات ثقافية بين الشرق والغرب، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2009.

24. الوقف في العالم الإسلامي الماضي والحاضر، بيروت، جداول، 2011.

25. من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، بيروت، جداول، 2012، طبعة ثانية 2014.

26. دراسات في الصلات العربية البلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، بيروت، جداول، 2012.

27. وقف المرأة في عالم الإسلام: مقاربة جديدة لمكانة المرأة في المجتمع، بيروت، دار جداول، 2014.

28. الإسلام في البلقان (بالاشتراك)، دبي، المسبار، 2014.

29. البلقان من الشرق إلى الاستشراق، الدوحة، منتدى العلاقات العربية والدولية، 2014.

30. من تاريخ ألبان مصر خلال القرون 15-20 (بالألبانية)، بريشتينا، أكاديمية العلوم، 2016.

Nga historia e shqiptarëve të Egjiptit gjatë shekujve XV-XX, Prishtinë (Akademia e Shkencave dhe Arteve të Kosovës) 2016.

31. الجالية المخفية.. فصول من تاريخ الألبان في مصر، القاهرة، دار الشروق، 2018.
32. من التاريخ الحضاري لبلاد الشام خلال القرن الأول للحكم العثماني، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2019.
33. البوسنة والهرسك خلال الحكم العثماني، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2019.
34. من الحكومة إلى الدولة: تجربة الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، عمان، الآن ناشرون وموزعون بدعم من وزارة الثقافة، 2020.
35. شخصيات ألبانية في الشرق الأوسط خلال القرون 16-20 (بالألبانية)، سكوبيه :2021

Figura shqiptare në Lindjen e mesme: shek. XVI-XX, Shkup (Lugos A), 2021.

36. Nga historia e shqiptarëve në Egjipt- verzion i zgjeruar, Shkup (Logos A) 2022.
37. هجرة الألبان إلى دمشق في القرن العشرين وإسهامهم في الحياة الثقافية، عمّان، 2022.

كتب محققة

1. محمد بن محمد الخانجي، الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة، تحقيق وتقديم، الكويت، مؤسسة البابطين، 2010.
2. محمد بن محمد الخانجي، أخبار مصر، تحقيق وتقديم بالاشتراك مع أمين يوسف عودة، دمشق، دار الحصاد، 2010.
3. شوكت سليمان غاوجي، ذكرياتي عن ألبانيا ومصر وبلاد الشام في القرن العشرين، تحقيق وتقديم، بيروت، دار جداول، 2011.

4. توفيق طنوس، تاريخ الحرب البلقانية 1912-1913، تحقيق وتقديم، بيروت، جداول، 2013.
5. مذكرات محسن البرازي، نسخة محققة بالاستناد إلى الأرشيف الشخصي، عمّان، 2022.

كتب مترجمة

1. أنطولوجيا الشعر العربي الحديث (بالألبانية)، بريشتينا، ريليندیا، 1979.
2. فلسطين الألبانية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1979.
3. مختارات من الشعر الألباني المعاصر، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 1981.
4. قصص سورية 1931-1981 (بالألبانية)، بريشتينا، ريليندیا، 1981.
5. بحر في الصحراء – مختارات من الشعر الكويتي الحديث (بالألبانية)، بريشتينا، ريليندیا، 1982.
6. رجب تشوسيا، أبو الهول الحي، ترجمة وتقديم، الكويت، سلسلة من المسرح العالمي، 1984.
7. أحمد أحمدي، أسباب اندحار الجيش العثماني، ترجمة وتقديم (بالألبانية)، بريشتينا، 1985.
8. سنان حساني، الريح والبلوط، ترجمة وتقديم، بيروت، المؤسسة العربية للأبحاث، 1986.
9. قصص شعبية غجرية، ترجمة وتقديم، دمشق، وزارة الثقافة، 1989.
10. حسن كلشي، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم، إربد، مؤسسة قدسية، 1990.
11. دراسات ووثائق حول الدفشرمة، ترجمة وتقديم، إربد، مؤسسة قدسية، 1991.
12. ألكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب 1-2، ترجمة وتقديم، طبعة أولى الكويت، عالم المعرفة، 1993، وطبعة ثانية، عمّان، وزارة الثقافة، 2013.

13. خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة وتقديم، بيروت، دار المدار الإسلامي، طبعة أولى 2002، وطبعة ثانية 2014.
14. مختارات من الشعر الكوسوفي المعاصر، ترجمة وتقديم، عمّان، أزمنة، 2009.
15. قيصر فرح، السلطان عبد الحميد الثاني والعالم الإسلامي، ترجمة وتقديم، بيروت، جداول، 2012، وطبعة ثانية 2016.
16. شمس الدين سامي الفراشري، المدنيّة الإسلامية، ترجمة وتقديم، الإسكندرية- بيروت، مكتبة الإسكندرية – دار الكتاب اللبناني، 2012.
17. مذكرات ملك ألبانيا أحمد زوغو في مصر 1946-1955، بيروت، دار جداول، 2015.
18. مقاربات بلقانية عن القدس خلال الحكم العثماني، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2020.
19. بلد اسمه الأغنية.. مختارات شعرية من نجوان درويش 2000-2020 (بالألبانية)، بريشتينا، 2021.
20. سياحتنامه أوليا جلبي.. مختارات عن بلاد الألبان، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2021.
21. شمس الدين سامي فراشري.. تشابك العثمنة والقومية والإسلام، عمان، الآن ناشرون وموزعون والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى، 2022.
22. حسن كلشي.. دراسات مختارة عن الإسلام والثقافة والسياسة في البلقان، عمّان، الآن ناشرون وموزعون، 2022.
23. إليزابيت تومبسن، كيف سرق الغرب الديموقراطية من العرب، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022.